شواهد للتاريخ

لعل الكتاب هو أعز ما يملكه العالم وأقرب شيء إلى قلبه. فهو رفيق حياته وصديق عمره، معه يجد الراحة والسكينة، وبه ينتقل إلى عالمه المحبب بعيداً عن صخب الحياة وضوضائها، ومن خلاله ينمو عقله وتغتذي روحه.

فالكتاب للعالم كالمرآة للأنثى لا يستطيع أن يفارقه، ولا يجد ذاته إلا به، ويشعر عندما يفتحه كأنه يفتح عقول الآخرين وينفذ إلى مكنوناتها، يقلب أوراقه وكأنه يقلب الزمن بماضيه وحاضره ومستقبله. أما اللذة التي يحصل عليها، فلا يمكن وصفها، فهي لذة المعرفة وهي اللذة الوحيدة التي تزداد الرغبة إليها كلما تذوقها الإنسان.

يقضي العالم حياته في البحث عن المعرفة ليشبع نهمه العلمي، وينفق في سبيل ذلك كل ما يملك للحصول على الكتب والمراجع التي لا نهاية لها. ويصل إلى آخر العمر وهو متمسك بكل ورقة من أوراقه وبكل كتاب من كتبه. كيف لا يفعل ذلك... ؟! ولكل كتاب قصة وتاريخ..! فقد يكون حرم نفسه وأهله من طعام أو لباس، أو اقترض مالاً ليحصل على كتاب. ومن غرائب ما قرأت في هوامش أحد الكتب ما أثبته أحد العلماء فقال: «لقد صمت ثلاثة أشهر حتى اشتريت هذا الكتاب».

نعم... يستطيع العالم أن يتحمل شظف العيش وضنكه، ولكنه لا يستطيع كبح جماح نفسه عن كتاب يحتاجه. ومع مرور الزمن يجتمع لديه كم هائل من الكتب ينوء بها منزله وتضيق عنها حجراته، لكنه لا يزال يبحث عن الكتاب الجديد. فلا يترك ركناً من أركان المنزل إلا ويضع فيه الكتب حتى الممرات لا تخلو منها. إذ لا يستطيع أن

يرى مكاناً دون أن يمتع ناظريه برؤيتها. فهو يجد فيها الأنس والسلوان، ويموت العالم وتموت معه كتبه. وقديماً قيل: المعاصرة حرمان وأزهد الناس بالعالم أهله وجيرانه، بل ومجتمعه المعاصر له. فكثيراً ما رأينا مكتبات لعلماء وضعت في أقبية مهجورة تعبث بها الحشرات وتنال منها القوارض، أو في فجوات تتعرض فيها الكتب للرطوبة والتلف.

أما أبناء هؤلاء العلماء فأغلبهم ينهج في حياته نهجاً يختلف عن نهج آبائه، فأحياناً توزع هذه الكتب على الورثة بالعدد فترى الكتاب الواحد موزعاً على أكثر من شخص حسب أجزائه، وأحياناً يحتفظون بها على حالتها السيئة على أنها من آثار المرحوم، لا يجوز نقلها أو التفريط فيها. فتضيع كثير من مؤلفات هذا العالم قبل أن تطبع وترى النور، وتغيب أيضاً آراؤه وأفكاره الهامة التي تتمثل بتعليقاته على هوامش الكتب. ويجري الأمر كذلك على أوراقه ووثائقه ومراسلاته التي تعد تاريخاً لهذا العالم ولمجتمعه وأمته.

وإنني – إذ تعمدت الحديث عن هذا الموضوع – لأهيب بأصحاب الحل والعقد والقادرين الغيورين والقائمين على المؤسسات الثقافية الرسمية والخاصة بأن يتنبهوا إلى هذا الأمر الجلل ويستدركوا ما أمكنهم استدراكه. فأعلامنا ومفكرونا ليسوا ملكاً لأسرهم فحسب؛ بل هم ملك للأمة ولا بد من الحفاظ على ثرواتهم الفكرية المكتوبة، والعمل على معالجتها وصيانتها وفهرستها ووضعها في متناول أيدي الجميع، ليفيد منها الباحثون والدارسون وتكون تلك المكتبات شواهد للتاريخ، فيخلد أصحابها وتتعرف الأجيال القادمة عن كثب إلى بناة هذه الأمة وعظمائها ومفكريها.

د. عبد الرحمن فرفور

مقالات

بعض ملامح الاجترار في التراث النحوي الأندلسي

نكت الأعلم الشنتمري نموذجاً

الأستاذ رشيد بلحبيب
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد الأول - وجدة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن شخصية الأمة - أي أمة - هي نسيج حشدٍ هائل متداخل ومتشعب من المعارف والمعطيات والأنشطة والأفكار تدعى تراثاً، فالتراث إذن هو جذور الأمة ونسيج وجودها وهو قدرها وأساس رقيها.

ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى ضرورة إحيائه، والالتزام العلمي الواعي بتصفحه ودراسته، قصد فهم حاضر الأمة وتحديد الخرائط الدقيقة لمستقبلها.

وتراث الأمة يمتد بامتداد الأوطان شرقاً وغرباً، ويضرب في الأزمان ماضياً وحاضراً، ويختلف باختلاف المدارس تنظيراً وتطبيقاً، وهو في كل ذلك متنوع كماً وكيفاً بين كثافة وانبثاث، وبين عمق وتأسيس، واجترار وترديد.

ومما لا شك فيه أن تراثاً بمثل الغزارة والرحابة التي عليها تراث الأمة الإسلامية - مع ترامي الأطراف واختلاف الأوطان وتباين المستويات - يكون قد أسهم بحظ وافر في بناء الحضارة الإنسانية من جهات مختلفة، وفي مجالات شتى، من طب وبيطرة وفلك وصيدلة ولغة، وفلسفة وأدب وتاريخ وحكمة وجدل...(1).

ومما لا شك فيه أيضاً أن هذا التراث - ونظراً للاعتبارات السالفة - يكون قد عرف حالات من الضعف والترديد والاجترار والسطحية، تجعل مهمة المبالغين في تقديسه والدفاع عنه صعبة للغاية.

وسأحاول من خلال هذا البحث رصد بعض أسباب الترديد التي طبعت بعض الأعمال العلمية في تراثنا بعامة، وفي تراثنا النحوي الأندلسي من خلال نكت الأعلم الشنتمري بخاصة.

ولعل من بين هذه الأسباب:

١ - اتساع مفهوم التأليف واختلاف مقاصد التصنيف التي كانت تسمح بضروب مختلفة من الكتابة، اعتمد بعضها وألغي ما سواه.

وقد حدثنا ابن خلدون عن سبعة مقاصد معتمدة[٢] هي:

١ : ١ - استنباط العلم بموضوعه وتقويم أبوابه وفصوله[٣] (كما فعل سيبويه في النحو والشافعي في الأصول وابن جني في علم اللغة وعبدالقاهر في علم البلاغة...).

١ : ٢ - شرح ما استغلق من كتب الأولين (مثل شروح كتاب سيبويه وشروح كتاب الجمل وشواهده وشروح المفصل وشروح أدب الكاتب وشروح التسهيل...).

١ : ٣ - تصحيح أخطاء وأغلاط منْ تقدم (مثلما فعل أبو عبيد البكري في كتابه «التنبيه على أوهام القالي في أماليه»، ومثلما فعل ابن بري في كتابه «التنبيه والايضاح عما وقع في الصحاح» ومثلما فعل الغندجاني في فرحة الأديب، وابن هشام اللخمي، فقد نبّه الأول على أخطاء ابن السيرافي في شرحه لشواهد الكتاب، ونبّه الثاني على أخطاء الأعلم في شرح شواهد الكتاب أيضاً...).

١ : ٤ - إتمام ما نقص من مسائل وأبواب وفصول في فن بعينه، (مثلما فعل الزبيدي في كتابه الاستدراك على أبنية سيبويه ومثل كتب التكميلات والذيول وفوات الوفيات...).

١ : ٥ - ترتيب مسائل في أبوابها (مثلما فعل السيوطي في الأشباه والنظائر...).

١ : ٦ - جمع ما تفرق من مسائل في أبوابها (مثلما فعل السيوطي في الأشباه والنظائر...).

١ : ٧ - تلخيص المسهب والمكرر وتناوله بالاختصار والإيجاز (مثل اختصار السيرة لابن كثير واختصار الزبيدي لكتاب العين وتلخيص القزويني في علم البلاغة...).

وقد ختم ابن خلدون حديثه عن أصناف التواليف قائلاً: «فهذه جماع المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف ومراعاتها، وما سوى ذلك ففعل غير محتاج إليه، وخطأ عن الجادة التي يتعين سلوكها في نظر العقلاء، مثل انتحال ما تقدّم لغيره من التواليف بأن ينسبه إلى نفسه ببعض تلبيس من تبديل الألفاظ وتقديم المتأخر وعكسه... أو يأتي بما لا فائدة فيه، فهذا شأن الجهل والقحة»[٤].

ومع وضوح ضروب التصنيف المعتمدة فإن عدداً كبيراً من المؤلفات لم تستطع أن تحقق مستوى علمياً مرغوباً فيه، فسقطت في التعليق والتذييل والتحشية والترديد والاجترار، وغابت عنها مقاصد التأليف كما رسمها ابن خلدون[٥].

٢ - الميل إلى الشرح والتيسير

لقد كان الميل إلى الشرح والتيسير غاية شحذت لها الهمم، ومثلت بعض المصادر

محطات استقطبت الاهتمام على مدى الأزمان، ودارت في فلكها مئات الشروح، فالتراث الأصولي لا يكاد يخرج عما رسمه الإمام الشافعي في رسالته، كما أن التراث النحوي لم يكد يخرج عما رسمه سيبويه في كتابه، وكذلك كان كتاب الجمل للزجاجي الذي بلغت شروحه مائة وعشرين شرحا، فضلاً عن شروح الألفية واللامية والتسهيل لابن مالك، وفي اتجاه تيسير العلوم ألَف ابن قتيبة «تلقين المتعلم من النحو»، ووضع الزبيدي «الواضح في النحو»، ووضع ابن النحاس كتابه «التفاحة»، وشرح ابن القوطية صدر «أدب الكتّاب»، وبسط المعافري كتاب أستاذه ابن القوطية في الأفعال، وشرح أبان ابن سيد «كتاب العالم والمتعلم» على طريقة تعليمية خالصة[٦].

ومما لا شك فيه أن هذه الشروح لم تكن على مستوى واحد فقد كان منها الغث والسمين وكان منها المعتمد والمردود!

٣ – الميل إلى المحاكاة

إن وحدة الثقافة المنتجة لهذا التراث، ومركزيته الشرقية جعلت معظم أقطار الأمة الإسلامية تقف موقف التلمذة، وتشرئب أعناقها إلى المعين الصافي واردة متتلمذة، ففي الأندلس مثلا، كان حملة اللغة والنحو في أغلب الأحيان تلامذة الطبقة الأولى من اللغويين والنحويين المشارقة، وقد نشروا منذ البداية أصول المدرستين البصرية والكوفية، كما أصبح كتاب سيبويه لديهم غاية المتعلقين بالدراسات النحوية[٧]، وأصبح لقب سيبويه لديهم علامة على البارع في علم النحو، بل وأصبح للأندلس أخفشها وكسائيها ومتنبيها وبحتريها...

وإذا كان السيرافي قد شرح كتاب سيبويه، فإن الأعلم الشنتمري قد أخذ نفسه بتأليف في مثل هذا الموضوع، كما ألف الزبيدي كتابا في لحن العامة، محاكيا في ذلك أبا حاتم السجستاني الذي سبق إلى التأليف في هذا الفن.

وإذا كان بعض العلماء قد وفقوا في تحقيق درجة عالية من التفرد والتميز، فإن عددا منهم قد أخفقوا في ذلك، وكان عطاؤهم العلمي دون المستوى المرغوب فيه.

٤ – عطاء المؤدبين في مجال التأليف

لقد كان نشاط كثير من المؤدبين لا يتناول من العلوم إلا الظاهر القريب، ولم يكن تكوينهم ليسعفهم على الغوص في غوامض الظواهر ودقائق الأمور. وجاء كثير من أعمالهم المتبقية، ضعيف المستوى، ولعل هذا راجع إلى ضعف التحصيل لديهم، يقول الزبيدي: «لم يكن عند مؤدبي العربية، ولا عند غيرهم ممن عني بالنحو كبير علم، وذلك أن المؤدبين إنما كانوا يعانون إقامة الصناعة في تلقين تلاميذهم العوامل، وما شاكلها وتقريب المعاني لهم في ذلك، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية وغوامضها...، ثم كانوا لا ينظرون في إمالة ولا إدغام، ولا تصريف ولا أبنية، ولا يجيبون في شيء منها»[٨].

إن هذه الأسباب وغيرها، هي مما يجعل

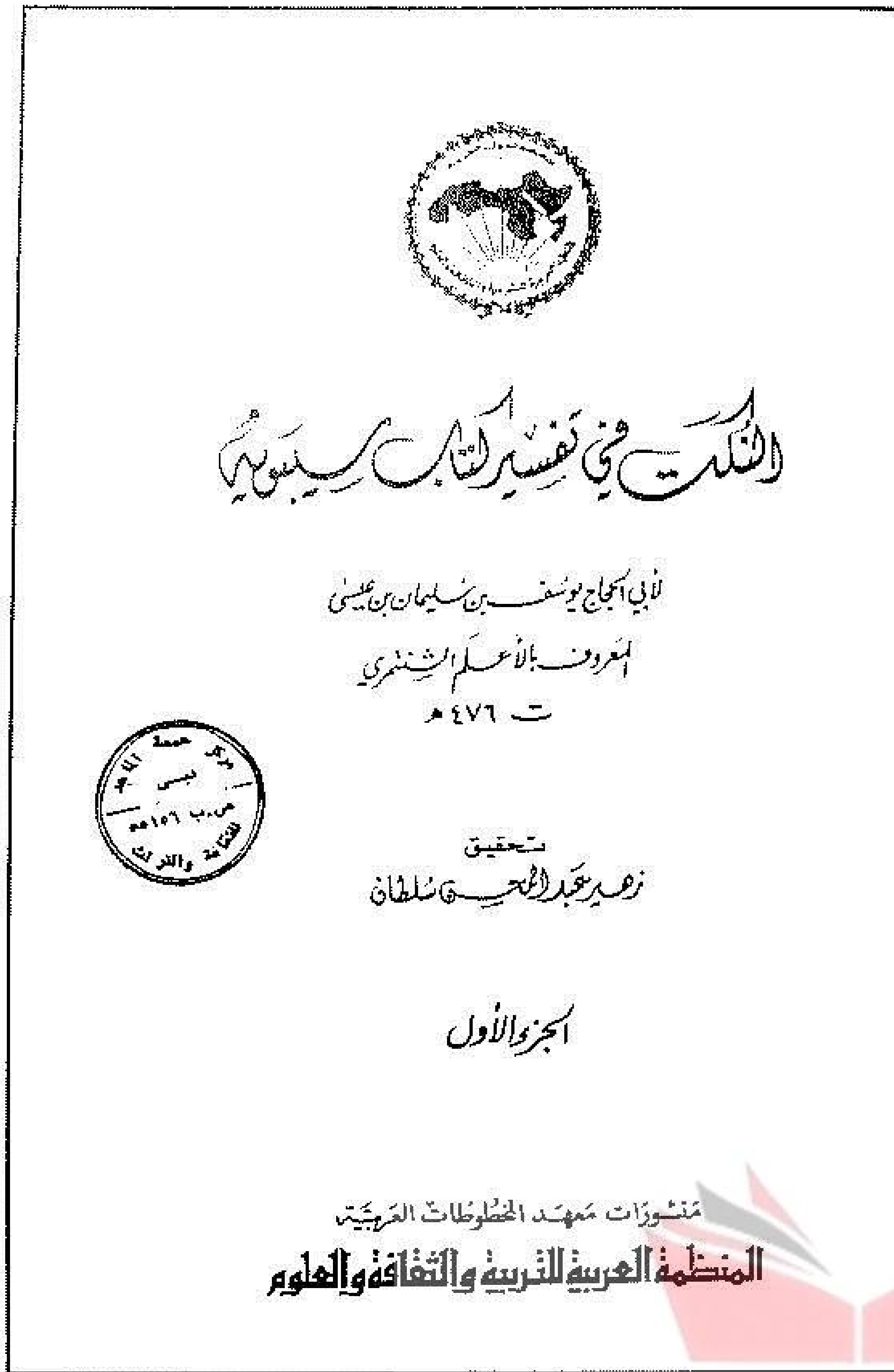
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عدداً من الأعمال العلمية في تراثنا لا تعدو أن تكون مجرد اجترار وترديد للقول، وهي بهذا، قد تفقد السند الذي يجعل ما يبذل في سبيل تحقيقها من جهد مقبولاً.

وسنحاول في عجالة الوقوف عند محطة سيبويه بوصفها أصلاً، دار في فلكه عدد كبير من المؤلفات بغية الوصول إلى عمل الأعلم الشنتمري الذي أخلّ فيه بدستور الكتابة كما حدده ابن خلدون.

وتأتي هذه المحاولة في سياق التعريف بالتراث النحوي السيبويهي، ذلك أن المكتبة العربية تزخر بحشد هائل من الأسماء التي ارتبطت بكتاب سيبويه بنوع من التأليف، «حتى إننا لنستطيع أن نقول: إنه لم يمض جيل من الأجيال دون أن يخلف لنا تراثاً غزيراً متصلاً بالكتاب، وحركة التأليف هذه لم تقف عند قرن معين، ولا انحصرت في إقليم محدد، وإنما استمرت عبر القرون، وفي شتى الأقاليم والأمصار، حتى ملأت شروح الكتاب بلاد فارس والأندلس وما بينهما من البلاد[9]».

فقد عكف على شرح الكتاب عدد من العلماء من أمثال: الأخفش (-٢١٥هـ) وابن السراج (-٣١٦هـ) والنحاس (٣٣٨هـ) ومبرمان (٣٤٥هـ) وابن درستويه (-٣٤٧هـ) والسيرافي (٣٦٨هـ) والزبيدي (-٣٧٢هـ) وابن سيد (-٣٨٢هـ) والرماني (٣٨٤هـ) والمعري (-٤٤٩هـ) وابن الجد الفهري (٥١٥هـ) وابن السيد البطليوسي (-٥٢١هـ) وابن الباذش (-٥٢٨هـ) وابن خلف (٥٢٨هـ) والزمخشري (-٥٣٨هـ) وابن أبي الركب



(٥٤٤هـ) وابن خروف (-٦٠٩هـ) والكلاعي (-٦١٠هـ) والصفار (٦٣٠هـ) وابن الحاجب (-٦٤٦هـ) وابن الحاج الإشبيلي (٦٥١هـ) والخفاف (٦٥٧هـ)...

كما اهتم عدد من العلماء بشواهد الكتاب فألفوا في شرحها وبيان موضع الشاهد فيها ومن هؤلاء: المبرد (-٢٨٥هـ) والزجاج (٣١١هـ) والنحاس (-٣٣٨هـ) وابن السيرافي (-٣٨٥هـ) والإسكافي (-٤٢٠هـ) والهروي (-٤٣٣هـ) والأعلم الشنتمري (٤٧٦هـ) والدقيقي (-٦١٣هـ) والعكبري (٦١٦هـ) والزواوي (-٦٢٨هـ) والشلوبين الصغير (-٦٦٠هـ) وعفيف الدين الكوفي (٦٨٢هـ)...

وقد ضيق بعض العلماء مجال شرحهم فاختصوا بشرح أبنية الكتاب وصيغه

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الصرفية ومن هؤلاء: الجرمي (-٢٢٥هـ) والسجستاني (-٢٥٠هـ) وثعلب (-٢٩١هـ) والزبيدي (-٣٧٩هـ) وابن الدهان (٥٦٩هـ)...

واختص بعض العلماء بشرح دقائق الكتاب ونكته ومن هؤلاء الزيادي (-٢٤٩هـ) ومبرمان (-٣٤٥هـ) والرماني (-٣٨٤هـ) والقرطبي (-٤٠١هـ) والأعلم الشنتمري (٤٧٦هـ) وابن هشام اللخمي (-٥٧٠هـ) وابن الفخار الجذامي (-٧٢٣هـ)...

وألف المبرد وابن الطراوة (-٥٢٨هـ) وابن عصفور (-٦٦٣هـ) في الاعتراض على الكتاب وتتبع هفواته.

وألَف ابن ولاد (-٣٣٢هـ) وابن درستويه (-٣٤٧هـ) وابن الضائع (-٦٨٠هـ) في الدفاع عنه والانتصار له.

وعلق على الكتاب أبو علي الفارسي (٣٧٧هـ) والشلوبين الكبير (-٦٤٥هـ) وابن الزبير (-٧٠٨هـ). واختصر الكتاب أبو عمر الجرمي وإبراهيم بن محمد اليمني وشرح أغراضه المبرد والرماني وشرح غريبه الجرمي وشرح أمثلته المعري...[١٠].

وقد كان للأندلسيين النصيب الأوفر في خدمة الكتاب، إذ انصرف عدد كبير منهم إليه يتدارسونه، ويعلقون ويستدركون عليه حتى قال أبو حيان: «ومما برعوا فيه علم الكتاب، انفردوا بإقرائه منذ أعصار دون غيرهم من ذوي الألباب، أثاروا كنوزه وفكوا رموزه...»[١١].

يقول علي النجدي ناصف: «وقد رجعت إلى «بغية الوعاة» و«كشف الظنون» أتتبع دراسات الكتاب وأستوعبها إحصاء وعدا، فإذا للأندلسيين وما يسامتها من بر المغرب قرابة أربعين وللعراق وما يليه قرابة خمس وعشرين ولمصر أربع لا غير. وليس هذا التفاوت بعجيب...»[١٢].

هذه الشهادات تؤكد لنا اهتمام الأندلسيين بالكتاب، فقد تعددت وقفات العالم الواحد عنده، وتعددت بذلك شروحه، والأعلم الشنتمري (-٤٧٦هـ)[١٣] من أولئك الذين أغرموا بالكتاب، فبعد أن خبره وتمرّس به ألّف كتابين، الأول في شرح نكته والثاني في شرح شواهده.

وقد قمت بتحقيق نكت الأعلم بإشراف فضيلة الأستاذ العلامة محمود علي مكي[١٤]، وكان المنهج يفرض عليَّ أن أعود إلى كثير من شروح الكتاب دراسة وتحقيقاً، وقد تبيّن لي منذ الوهلة الأولى تلك العلاقة الغريبة بين نكت الأعلم وشرح السيرافي[١٥]، ثم بين النكت وكتاب «الاستدراك على أبنية سيبويه» للزبيدي[١٦].

ولعل هذا ما سأحاول بيانه في الصفحات المقبلة.

بين النكت وشرح السيرافي

يعدّ شرح السيرافي من أجل الشروح وأطولها وأكثرها أهمية، منه أكثر من عشرين نسخة خطية في مختلف مكتبات العالم ذكر بروكلمان أكثرها[١٧].

يقع هذا الشرح في ستين وستمائة وثلاثة آلاف صفحة (٣٦٦٠) مخطوطة[١٨]، وشرح السيرافي - نظرا لسبقه الزمني - أصبح من

المصادر المعتمدة في اللغة والنحو، إذ قلما نعثر على مؤلف نحوي يخلو من ذكره، وقد ظلت علاقة تلك المصادر بشرح السيرافي علاقة تأثر في قضايا محدودة، حتى ألَّف الأعلم كتابه «النكت»، لتتحول العلاقة إلى نسخ حرفي شمل الكتاب من أوله إلى آخره، وتبيَّن لي أن ما سماه الأعلم «بالنكت»، إنما هي قضايا مستخلصة من شرح السيرافي المطوَّل بالحرف!.

ويكفي أن أقول: إنني اعتمدت شرح السيرافي نسخة ثانية لتحقيق النكت، ومقابلة النصوص، حيث توصلت إلى تصحيح عبارات أصابها التلف، من جرَّاء الرطوبة والخروم المنتشرة في كتاب النكت من أوله إلى آخره، وما كنت لأتوصل إلى تصحيحها وإصلاح المطموس منها لولا هذا الشرح!

ولكي يتأكد القارئ من هذه الحقيقة، أسوق أول نص من «النكت» وآخر نص منه، وما يقابلهما في شرح السيرافي، وإن كان كتاب «النكت» كله نصاً ناطقاً بهذه الحقيقة.

يقول الأعلم: «هكذا موضوع كتابه الذي نقله أصحابه بتنوين علم».

ويسأل في ذلك عن أشياء منها أن يقال: إلام أشار بقوله «هذا» والإشارة إلى حاضر؟ والجواب في ذلك:

– أن يكون أشار إلى ما في نفسه من العلم وذلك حاضر..

– والثاني: أن يكون أشار إلى متوقع قد عرف وانتظر وقوعه..

– والثالث: أن يكون وضع كلمة الإشارة


كتاب

علم الاعلام امام كل امام مالك أزمة الادب ومالك علوم العرب أبي بشر عمرو الملقب

سيبويه

(الجزء الاول)

(وبهامشه)

تقريرات وزبد من شرح أبي سعيد السيرافي فهو الكتاب الوافر الوافي ومن غيره أيضا

وبأسفل الصحيفة بالقاعدة الصغيرة شرح الشواهد المسمى (تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الادب في علم مجازات العرب) لمؤلفه علم الاعلام ومولى الانام يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمري رحم الله الجميع وأرسل على أضرحتهم شآبيب الرحمات. ونفعنا بما لهم من المؤلفات

(حقوق الطبع محفوظة)

الطبعة الاولى

بالمطبعة الكبرى الاميريه ببولاق مصر المحميه

سنة ١٣١٦ هجريه

(بالقسم الادبي)

ليشير بها عند الحاجة والفراغ من المشار إليه كقولك: هذا ما شهد عليه الشهود المسمون وهم لم يشهدوا... [النكت ٦].

وقال السيرافي: «هكذا موضوع كتابه الذي نقله عنه أصحابه. ويسأل في ذلك عن أشياء، فأولها أن يقال: إلام أشار سيبويه بقوله «هذا» والإشارة بها تقع إلى حاضر؟ فالجواب في ذلك أنه يحتمل ثلاثة أوجه:

– أحدها: أن يكون أشار إلى ما في نفسه من العلم وذلك حاضر..

– والثاني: أن يكون أشار إلى متوقع قد عرف وانتظر وقوعه..

– والثالث : أن يكون وضع كلمة الإشارة غير مشير بها ليشير بها عند الحاجة والفراغ من المشار إليه كقولك: هذا ما شهد عليه الشهود المسمون.. وما شهدوا بعد... [شرح السيرافي ١/٣٠٢].

وينتهي كتاب النكت بقوله:

«واعلم أن هذه النون لا تحذف في مثل بني النجار وبني النمر وما أشبهه، لأن لام المعرفة إذا ظهرت بان مخرجها فظهرت النون واللام كأنهما من جنس واحد، لما بينهما من التجاور، لأن النون تدغم في اللام فصارتا كأنهما سينا مسست ولاما ظللت.

فإذا أدغمت لام المعرفة في حرف آخر باين ذلك الحرف النون.

وأيضاً، فإن لام المعرفة إذا أدغمت فأبدلت للإدغام فقد أعلت، فكرهوا حذف ما قبلها، لئلا يدخلوا علة على علة فاعلم ذلك [النكت ٥١٠].

ويقابله في شرح السيرافي :

«ولا يحذف في بني النجار وبني النمر وما أشبه ذلك، لأن لام المعرفة إذا ظهرت بان مخرجها، فظهرت النون واللام وكأنهما من جنس واحد لما بينهما من التجاور، لأن النون تدغم في اللام، فصارتا كأنهما سينا مسست وأحسست ولاما ظللت.

وإذا أدغمت لام المعرفة في حرف آخر باين ذلك الحرف النون.

وأيضا فإن لام التعريف إذا أدغمت فأبدلت للإدغام فقد أعلت، فكرهوا حذف ما قبلها لئلا يدخلوا علة على علة... [شرح السيرافي ٣/ ورقة ٤٣٤].

ولست في حاجة إلى مزيد من النماذج لإثبات هذه الحقيقة. فقد أشرت في تحقيق أبواب النكت إلى ما يقابلها في شرح السيرافي حتى يتمكن القارىء من العودة إليها في مكانها – ***ولكن هذا لا يمنع من استعراض طرق تصرف الأعلم في كلام السيرافي والفروق الموجودة بينه وبين مصدره.***

١ – الإحجام عن ذكر السيرافي

تعمد الأعلم عدم الإكثار من ذكر السيرافي على الرغم من اشتهار السيرافي بكثير من الآراء الواردة في النكت، إذ ذكره في ثلاثة مواضع متباعدة: في ص ٤٢ قال: «هذا تفسير السيرافي وغيره» وقال أيضاً على هامش ص ٢٧٣: «وهو قول السيرافي».

وقال أخيراً ص ٤٩٦: «...حكاه أبو سعيد».

٢ – انتحال آراء السيرافي بنسبتها إلى نفسه:

السيرافي: «لما ذكرته لك...».

الأعلم: «لما ذكرته لك...» (النكت ١٢٧).

السيرافي: «على ما ذكرنا...».

الأعلم: «على ما ذكرنا...» (النكت ٢٦٣).

السيرافي: «ونحن لا نقول...».

الأعلم: «ونحن لا نقول...» (النكت ٢٦١).

السيرافي: «وكذلك سائر ما ذكرناه في الباب...».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأعلم: «وكذلك سائر ما ذكرناه في الباب...» (النكت ٢٩٢).

٣ - محاولة التخلص من بعض عبارات السيرافي المنسوبة إلى ضمير المتكلم بنسبتها إلى الغائب أو بنائها للمجهول:

قال السيرافي: «وإنما أردت...».

قال الأعلم: «وإنما أراد بـ...» (النكت ٩٣).

قال السيرافي: «والأولى عندي أن يجعل...».

قال الأعلم: «ويجوز أن يجعل...» (النكت ١٢٥).

قال السيرافي: «والقول عندي...».

قال الأعلم: «والقول فيه...» (النكت ١٢٥).

قال السيرافي: «وهذا حقه أن يكون...».

قال الأعلم: «وقال غيره: وهذا حقه أن يكون...» (النكت ٣٨٤).

قال السيرافي: «لو خففنا نمراً...».

قال الأعلم: «وقاله غيره: لو خففنا نمراً...» (النكت ٣٤٤).

قال السيرافي: «عند أصحابنا...».

قال الأعلم: «عند البصريين...» (النكت ٢٥٩).

قال السيرافي: «عند أصحابنا...».

قال الأعلم: «عندهم...» (النكت ٢٥٩).

قال السيرافي: «والذي عندي أن أبا الحسن...».

قال الأعلم: «وكان الأخفش...» (النكت ٢٦٦).

قال السيرافي: «والأقوى عندي...».

قال الأعلم: «والأقوى...» (النكت ٢٩٣).

قال السيرافي: «وعندي فيه وجه آخر...».

قال الأعلم: «وفيه وجه آخر...» (النكت ٤٢٠).

قال السيرافي: «وبعض أصحابنا...».

قال الأعلم: «وبعض النحويين...» (النكت ٤٣٦).

وهذه الظواهر أكثر من أن تعدّ.

٤ - تغيير كلمة بأخرى مرادفة لها:

السيرافي: «موضع».

الأعلم: «موقع» (النكت ١٠٢).

السيرافي: «سيف».

الأعلم: «سهم» (النكت ١٠٩).

السيرافي: «في حالة».

الأعلم: «من حالة» (النكت ١٢٥).

السيرافي: «لاجتذاب».

الأعلم: «لاجتلاب» (النكت ١٣٢).

السيرافي: «مبتولاً».

الأعلم: «مبتوتاً» (النكت ١٤١).

السيرافي: «بحلول».

الأعلم: «بدخول» (النكت ٤٤٧).

السيرافي: «بظرف من خمر».

الأعلم: «بعس من خمر» (النكت ٣٩٤).

٥ يتصرف الأعلم في كلام السيرافي بالقفز على بعض العبارات، ولكنه يظل محتفظاً بألفاظ صاحبه بترتيبها.

يقول السيرافي مثلاً: «وليس في الباب غير هذين الحرفين صفة دعا بها وذلك أن هنيئاً مريئاً صفتان، تقول هذا شيء هنيء مريء كما تقول: هذا جميل صحيح وما أشبه ذلك

من الصفات على فعيل، فدعي بهما للإنسان وليستا مصدرين، ولا هما من أسماء الجواهر كالتراب والجندل فأفرد لهما بابا..» شرح السيرافي ٣:٨٦.

ويقول الأعلم: «وليس في الباب هذين الحرفين، وإنما أفرد لهما باباً لأنهما صفتان يدعى بهما، ألا ترى أنك تقول هذا شيء هنيء مريء» [النكت ١٢٠].

٦ - وقع الأعلم في أخطاء «تقنية» وهو بصدد النقل فنسب كثيراً من نصوص السيرافي إلى سيبويه

- وقدم لها بقوله: «قال سيبويه» أو «قوله» أو «قال» وهي العبارات التي درج على التقديم بها لنصوص سيبويه - ظناً منه أن ما أورده هو نص الكتاب المراد شرحه، وقد أحصيت ما يزيد عن عشرين موضعاً أخطأ الأعلم فيها هذا النوع من الخطأ، وهذه بعض النماذج:

- جاء في النكت: وقال: وقال سيبويه: وفي الحكاية: النكت ٣٢٧ و«قال» الأولى يعود ضميرها على السيرافي.

- وجاء في النكت: وقوله: وأجاز سيبويه في الشعر.. » [النكت ٢٩٩] والضمير في «وقوله» يعود على السيرافي، وما بعده كلامه/ السيرافي.

- وجاء في النكت أيضاً: قال: «وقال سيبويه...» [النكت ٣٢٧].

- وجاء في النكت: «قال: ومثله في الرفع...» [النكت ١١٩] وقول السيرافي: ومثله في الرفع... [٣:٨٢].

- وجاء في النكت: «قال: ومن ذلك قولهم... [النكت ١٢٧] وقول السيرافي: ومن ذلك قولهم» [٤:١٣٤].

- وجاء في النكت قال: «ولو قلت إن لفظ حروفه...» [النكت ٣٢٥] والكلام للسيرافي [٤/ ورقة ١٠٨].

فالقائل المعبر عنه بـ «قال» هو أبو سعيد السيرافي وليس سيبويه كما توهَّم الأعلم.

٧ - كما وقع الأعلم في تحريف بعض النصوص بسبب القفز على الكلام.

قال السيرافي: «فإن لها عندهم آثاراً» [٣:٤٢٦].

وقال الأعلم: «وعليها عندهم آثاراً» [١٧٣].

٨ - اشتهار الأعلم باقتناص العلل

لقد عرف الأعلم بتصيده للعلل وفرحه بها حتى قال عنه ابن مضاء «وكان الأعلم - رحمه الله - على بصره بالنحو مولعاً بهذه العلل الثواني ويرى أنه إذا استنبط منها شيئاً فقد ظفر بطائل»[١٩].

وإذا علمنا أن كتاب النكت غني بالعلل، وأنها مستخلصة من شرح السيرافي، وأن الأعلم عالة على صاحب الشرح في هذا الجانب، تبين لنا سر تلازم اسمي الرجلين في مصادر النحو المتأخرة وهذه بعض النماذج:

- جاء في مغني اللبيب لابن هشام أن «من» تأتي مرادفة لـ «ربما» قال: «قاله السيرافي وابن خروف وابن طاهر والأعلم»[٢٠].

- وجاء في همع الهوامع، في معرض

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحديث عن الموصول وجملة الصلة: «وجوز قوم منهم السيرافي والأعلم وابن خروف وصلها...»[٢١].

– وفي باب المجرورات – ذكر السيوطي – قيل و«من» بمعنى «ربما» إذا اتصلت مع «ما» قاله السيرافي وابن خروف وابن طاهر والأعلم..[٢٢] وغير هذا كثير من الأمثلة التي تؤكد تلازم اسمي السيرافي والأعلم، واقترانهما في نسبة بعض الظواهر النحوية والتعليلات العقلية إليها، والعلة في ذلك كون كتاب السيرافي المصدر الأول للأعلم، منه أخذ وعليه اعتمد.

بين النكت وكتاب الاستدراك

سار الأعلم مع شرح السيرافي خطوة خطوة، ينتقي منه نكته ويرفض إسهاباته، ويختار من عباراته ما يريد، حتى إذا وصل إلى باب الأبنية ترك السيرافي وشرحه وانتقل إلى كتاب وثيق الصلة بمحتوى هذا الباب، وهو كتاب «الاستدراك على أبنية سيبويه»[٢٣] لأبي بكر الزبيدي (–٣٧٩هـ)[٢٤].

وقد كان هذا الكتاب من المصادر التي درسها الأعلم ودرسها[٢٥]، وخبر محتواها، وأدرك قيمتها في مجال الأبنية، ولذلك لم يجد حرجاً في تضمينها نكته وإذا كان الزبيدي قد بدأ بإيراد أبنية الكتاب، وثنى باستدراك ما فات سيبويه مع شرح غريب كل باب، فإن الأعلم قد سار على المنهج نفسه في ذكر الأبنية بالترتيب الذي أورده الزبيدي مع الالتزام بالمستدرك وبالشرح اللغوي نفسه،

ويكفي أن أقول: إنني اعتمدت كتاب الزبيدي في تصويب كثير من الأبنية المحرفة في النكت، وأستطيع أن أقول أيضاً:

إن باب الأبنية في النكت يقابله الاستدراك للزبيدي، باستثناء بعض الفروق الضئيلة.

وهذه بعض النماذج الموضحة:

جاء في كتاب الاستدراك:

«قال أبو بكر: وقد جاء أيضاً من هذا الباب مما لم يأت به سيبويه: إفعلة، قالوا: إكبرة قومه إذا كان أقعدهم في النسب، وفعنلاء، قالوا: حبنطاء بمعنى حبنطي للعظيم البطن وفعيلاً، قالوا: حفيسأ للرجل القصير..[الاستدراك، ص ٨].

وجاء في النكت:

«ومما جاء به غير سيبويه من باب زيادة الهمزة إفعلة، وذلك قولهم: هو إكبرة قومه إذا كان أقعدهم في النسب وفعنلاء وذلك حبنطاء للعظيم البطن.

وفعيْلأ وذلك حفيسأ للقصير من الرجال... [النكت، ص ٤٥١].

وجميع العناوين التي ذكرها الأعلم مما لم يأت به سيبويه يقابلها في الاستدراك عناوين «الزيادة».

الاستدراك، ص ٢١ [النكت ٤٥٧].

الاستدراك، ص ٢٢ [النكت ٤٥٧].

الاستدراك، ص ٢٣ [النكت ٤٥٧].

الاستدراك، ص ٢٧ [النكت ٤٦٠].

الاستدراك، ص ٣١ [النكت ٤٦٥].

كما اعتمد الأعلم على الزبيدي في الشرح اللغوي لهذه الأبنية:

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

قال الزبيدي:

«تفسير غريب الباب – قال أبو بكر: الأفكل: الرِّعدة والأيدعُ: دم الآخوين وهو الشيّان، والإجرِدُ: نبت واحدته إجردة وهي تنبت بين ظهراني الكمأة ويستدل بها على موضعها من الأرض...» [الاستدراك، ص ٨].

قال الأعلم:

«تفسير غريب الباب: من ذلك الأفكل: الرعدة.

والأيدع: دم الأخوين، والإجرد نبت يخرج عند الكمأة ويستدل به عليها» [النكت، ص ٤٥١].

وقد قفز الأعلم على بعض الكلمات من نصوص الزبيدي فأصبح المعنى بموجب القفز مبهما:

قال الزبيدي: «والعدبَّس: الجمل القوي الضخم والعملَّس: الرجل القوي على الأسفار» [الاستدراك، ص ٣٥].

وقال الأعلم: «والعدبس: الجمل القوي الضخم الرجل القوي على الأسفار». [النكت، ص ٤٠٦] فقد تمّ القفز على كلمة «العملس» التي تعني الرجل القوي على الأسفار.

وقد حاول الأعلم التخلص من النماذج الشعرية التي أتى بها الزبيدي، ومن نسبة الآراء إلى أصحابها عند شرحه للأبنية لغوياً، كما أغفل ذكر وزن الأبنية الواردة في الكتاب واكتفى بالأمثلة.

وفي ما عدا هذه الملاحظات، فقد كان اعتماد الأعلم على الزبيدي واضحاً كلّ الوضوح، «اعتقاداً» منه أن كتاب الاستدراك خير ما يمكن التعويل عليه في باب الأبنية، وأن شرح السيرافي لا يفي بالطلب في هذا الجانب.

ومع أن الأعلم اجتهد في اقتناص نكته من شرح السيرافي. ***إذ بلغ مجموع ما انتقى عشر صفحات وخمسمائة صفحة من أصل ستين وستمائة وثلاثة آلاف صفحة. إلا أنه ظلّ حبيس منهج السيرافي وطريقة شرحه. كما ظلّ حبيس منهج الزبيدي في استدراك الأبنية وشرحها وترتيبها، وجاء كتابه ملفقاً من عملين علميين ليس له منهما إلا الاختصار، مع ترديد كلامهما واجترارد بالحرف، دون الإشارة إلى صاحبيه، مخالفاً بذلك قانون التأليف كما رسمه ابن خلدون.***

ولعل هذا ما جعل المعتضد بالله أبا عمرو عباد بن محمد لا يكترث للنكت، ولا يلقي له بالاً عندما قدمه الأعلم هدية له، مما جعل الأعلم يصفه بنبوِّ الطبع وكسل الهمة[٢٦].

وفي الختام فإن تراثنا بحاجة إلى قراءة معرفية تضع اليد على مواطن القوة والضعف فيه، وتنبه على المعتمد والمردود منه، وهو بحاجة ماسة كذلك إلى خدمة وإحياء، ومع مرور ما يزيد عن قرن من الزمان على نشأة هذا الإحساس، فإن هذا الحقل ما زال يعرف انعداماً في التخطيط، وتلقائية في الفعل، وغياباً في الرؤية وفقداناً للمنهج العلمي الدقيق.

ومع وفرة مؤسسات متعددة قائمة على

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

Afâq al -Ṯaqāfa Wa al -Turāṯ — **آفاق الثقافة و التراث**

A Quarterly Journal of Cultural Heritage — **مجلة فصلية ثقافية تراثية مكتبية**

Jum `a al -Majid Center for Culture and Heritage — **تصدر عن مركز جمعة الماجد للثقافة و التراث**

Subscription Order Form — قسيمة اشتراك

☐ سنة One Year ☐ أكثر من سنة More Than One Year ☐ عدد السنوات # of Years

Issues # . . . . : للأعداد

of Copies: . . . . : عدد النسخ

Subscription Date : . . . . : ابتداء من تاريخ

☐ شيك Check ☐ حوالة مصرفية Bank Draft ☐ حوالة بريدية Postal Draft

Date : . . . . : التاريخ

Signature : . . . . : التوقيع

الاشتراك السنوي

داخل الإمارات :

للمؤسسات : ١٠٠ درهماً .

للأفراد : ٦٠درهماً .

للطلاب : ٤٠ درهماً

في الخارج :

للمؤسسات : ٣٥ دولاراً أمريكياً

للأفراد : ٢٠ دولاراً أمريكياً .

تودع الاشتراكات في رقم الحساب البنكي للمركز : ٠٤٩٠٩٠٦٥٢٣ - بنك المشرق - دبي

Payments should be made To Juma al - Majid Center for Culture and Heritage

Acc . # 0490906523 al - Mashriq Bank - DUBAI

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

Afâq al -Ṯaqāfa Wa al - Turāṯ — **آفاق الثقافة و التراث**

إشعار بالتسلم
Acknowledgment of Receipt

Name: . . . . : الاسم الكامل

Institution. . . . . : المؤسسة

Address : . . . . : العنوان

P.O.Box : . . . . : صندوق البريد

No of Copies ☐ عدد النسخ Issue No ☐ العدد

Subscription ☐ اشتراك Exchange ☐ تبادل Gift ☐ اهداء

Sig- . . . . التوقيع Date . . . . : التاريخ

ترسل إلى :

مجلة آفاق الثقافة و التراث

ص ب : ٥٥١٥٦ - فاكس : ٦٩٦٩٥٠ (٠٤) - دبي - الإمارات العربية المتحدة

Afāq al -Ṯaqāfa Wa al -Turāṯ

P.O.Box : 55156 - Fax : (04) 696950 DUBAI - U.A.E

Stamp
الطابع
البريدي

Name: .... : الاسم

Address : .... : العنوان

Country : .... : البـــلد

Phone : .... : هاتف   P.O .Box : .... : ص ب

Fax : .... : فاكس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تحقيق التراث في العالم العربي الإسلامي، إلا أن التنسيق بينها يكاد يكون منعدماً، وأن عامل الزمان لديها مهدر، فقد شرع في طبع كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري منذ سنة ١٩١٠ وما تزال بعض أجزائه تنتظر الطبع، كما استغرق تحقيق «خزانة الأدب» للبغدادي ما يزيد عن نصف قرن من الزمان!![٢٧].

إن هذه الفترات الزمانية التي يستغرقها طبع الكتاب الواحد محققاً، لتدعو إلى التساؤل عن المدة الزمنية الكافية لإحياء تراث هذه الأمة ونشره.

إن عملية إحصائية غير نهائية، تشير إلى أن عدد المخطوطات العربية يتجاوز ثلاثة ملايين(٢٨). وإذا كان المحقق المدقق - في أحسن أحواله - لا يمكنه أن يتجاوز إخراج عشرة كتب في حياته، فمعنى هذا أننا بحاجة إلى ثلاثمائة ألف (٣٠٠٠٠٠) محقق يمضون أعمارهم لإخراج هذه المخطوطات، وإذا علمنا أننا لا نملك - على صعيد العالم الإسلامي سوى ١٪ من هذا العدد، تبين لنا أن عملية إحياء التراث بحاجة إلى ما يقل عن ثلاثة قرون، وهذا ما لا يقبله عقل يريد «إقلاعاً» حضاريا راشداً لهذه الأمة.

ومن ثم يكون تحديد الأولويات وترشيد عمل المحققين واجباً قصد إبعاد حركة التحقيق عن السقوط في المتاهات، والتخبط بين ملايين المخطوطات التي لا تستحق - يقينا - أن يبذل فيها الجهد نفسه.

وهذا العمل يجب أن يتم بالمنهج العلمي الدقيق وبالرؤية الحضارية المطلوبة، بعيدا عن عقلية الناشرين ومصلحتهم، وبعيدا عن هوى الذين يعملون في حقل التراث ورغباتهم، ممن دفعت بهم الأقدمية والترقيات والدرجات العلمية إلى مراكز التحكم، والذين كثيرا ما يختارون الكتب المرشحة للتحقيق أو النشر بناء على المزاج الفكري الفردي، أو الاسم الرنّان للكتاب أو الشهرة لصاحبه، ضاربين صفحاً عن القيمة العلمية لما ينشر غالباً[٢٩].

إن غياب استراتيجية لمباشرة التراث دراسة وتحقيقا يعرقل عملية إخراجه للوجود ويعرقل من ثم حركية الأمة وفكرها، فالدراسات المنجزة في التحقيق لا قيمة لها، ما لم تنشر لأنها تنقل من رف إلى رف ومن مخطوط إلى مرقون.

وغياب التنسيق بين المراكز والجامعات يؤدي إلى إعادة تحقيق ما حقق مرات وفي جهات مختلفة.

وما حقق وصرفت فيه الجهود مما لا يضيف جديداً للفن الذي ينسب إليه، يعدّ عملاً ضائعاً.

وما أحوجنا إلى الوقت والجهد والتخطيط لإنقاذ تراث هذه الأمة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحواشي

١ – ينظر على سبيل المثال: هونكه، زيغريد، شمس الله تسطع على الغرب. أثر الحضارة العربية في أوربا. ط ٢ (بيروت: منشورات المكتب التجاري، ١٩٦٧).

٢ – مقدمة ابن خلدون، تـ علي عبد الواحد وافي، ط ٣ (القاهرة: دار النهضة بمصر. ١٩٨١) ٣: ١٢٣٧ – ١٢٤٠.

٣ – لقد تمَّ التصرف في عبارة ابن خلدون بالاختصار، والأمثلة المذكورة لكل مقصد من وضع صاحب البحث.

٤ – مقدمة ابن خلدون، ٣: ١٢٤٠.

٥ – وقد نسب ابن خلدون المقاصد نفسها إلى أرسطو.

٦ – مطلق، ألبير حبيب، الحركة اللغوية في الأندلس (بيروت: المكتبة العصرية. ١٩٦٧) ص ١١٩.

٧ – المرجع السابق، ص ١١٩.

٨ – الزبيدي، أبو بكر، طبقات النحويين واللغويين، تـ محمد أبو الفضل إبراهيم. ط ٢ (القاهرة: دار المعارف. ١٩٨٤) ص ٣٣٦.

٩ – مبارك، مازن، الرماني النحوي (بيروت: دار الكتاب اللبناني. ١٩٧٤) ص ١٣٤.

١٠ – انظر: علي، أمين، حركة التأليف حول كتاب سيبويه، والاتجاهات النحوية في الأندلس (رسالة مقدمة إلى كلية دار العلوم) ١٩٦٤، ص ١١٥.

– إبراهيم، محمد سليمان، أبو سعيد السيرافي وأثره في الدراسات النحوية، ص ١٣٢. رسالة مقدمة إلى كلية دار العلوم سنة ١٩٧٠ محفوظة بآداب القاهرة رقم ٩٧٧.

– الدناع، محمد خليفة، أثر كتاب سيبويه في نحاة الأندلس وجهودهم في شرحه. رسالة مقدمة إلى دار العلوم سنة ١٩٧٧ محفوظة بآداب القاهرة تحت رقم ٢٣٧٣.

– جمعة، خالد عبد الكريم. شواهد الشعر في كتاب سيبويه (الكويت: مكتبة دار العروبة، ١٩٨٠) ص ٥٧ وما بعد.

– عواد، كوركيس. سيبويه إمام النحاة في آثار الدارسين خلال اثني عشر قرناً (مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ١٩٧٨) ص ٣٦ – ٦٩. وكان اعتمادي عليه بالدرجة الأولى.

١١ – جميل، صدقي محمد. البحر المحيط (دار الفكر، ١٩٩٢) ١: ١١.

١٢ – سيبويه إمام النحاة (عالم الكتب، ١٩٧٩) ص ١٩٢.

١٣ – الأعلم الشنتمري، يوسف بن عيسى بن سليمان أبو الحجاج (– ٤٧٦ هـ) عالم بالنحو واللغة والشعر، انظر ترجمته: الصلة، ٢: ٦٤٣. فهرس ابن خير، ص ٣١٤. نكت الهميان، ص ٣١٩. إنباه الرواة، ٤: ٥٦. نفح الطيب، ٤: ٣٢. وفيات الأعيان، ٧: ٨١. بغية الوعاة، ٢: ٤٢٢. وانظر: الأعلم. النكت في شرح كتاب سيبويه، تحقيق ودراسة رشيد بلحبيب (رسالة).

١٤ – وقد تقدمت بها إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة لنيل درجة الماجستير سنة ١٩٨٧.

١٥ – أبو سعيد السيرافي النحوي عالم بالنحو والفقه واللغة والشعر والعروض والقوافي والقرآن والفرائض والحديث (– ٣٦٨ هـ). ينظر في ترجمته: ابن النديم، الفهرست، ص ٩٣. طبقات الزبيدي، ص ١٨٥. بغية الوعاة، ١: ٥٠٧. تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، ٢: ٩٣. السيرافي، مقدمة أخبار النحويين البصريين، تـ محمد ابراهيم البنا.

١٦ – طبع كتاب الاستدراك سنة ١٨٨٩ بتحقيق إجنازيو جويدي بروما. والزبيدي هو أبو بكر محمد بن الحسن. الزبيدي الإشبيلي الأندلسي النحوي اللغوي الفقيه المحدث الشاعر (– ٣٧٩ هـ) انظر ترجمته المقري، نفح الطيب، ٥ ١٥٢٥ و الضبي، بغية

الملتمس، ص ٥٦. و: ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ١:٣٨٣. و: القفطي، إنباه الرواة، ٣:١٠٨. و: وفيات الأعيان، ١٨:١٧٩. و: بغية الوعاة، ١:٨٤.

١٧ – تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، ط ٤ (دار المعارف، ١٩٧٧) ٢:١٣٦.

١٨ – أقدم نسخة بين أيدينا هي نسخة موفق الدين عبد اللطيف البغدادي (– ٦٢٩ هـ) وهي نسخة ناقصة تقع في خمس مجلدات، محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٧ نحو، ومنها صورة في مكتبة آداب القاهرة تحمل رقم ٢٦١٧١. وقد طبعت فقرات من شرح السيرافي على هامش كتاب سيبويه طبعة بولاق، وطبع باب ما يحتمل الشعر محققاً في كتاب مستقل بعنوان: الضرورات الشعرية، حققه رمضان عبد التواب، وطبع منه جزء بتحقيق رمضان عبد التواب ومحمود فهمي حجازي، وحقق شرح السيرافي بأكمله (إلا قليلاً) في ستة أجزاء كل جزء يمثل أطروحة جامعية تقدم بها أصحابها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة الأزهر.

– حقق الجزء الأول سعيد شرف الدين سنة ١٩٧٦ ورسالته محفوظة بمكتبة الجامعة رقم ١٩٢٩.

– وحقق الجزء الثاني دردير محمد أبو السعود سنة ١٩٧٦ ورسالته محفوظة بمكتبة الجامعة تحت رقم ١٢٥٤ – ١٢٥٦.

– وحقق الجزء الثالث محمد حسن محمد يوسف سنة ١٩٧٨ والرسالة محفوظة بمكتبة الجامعة تحت رقم ١٦٦٧.

– وحقق الجزء الرابع سيد جلال حسنين جودة سنة ١٩٨٣ والرسالة محفوظة بمكتبة الجامعة تحت رقم ٣١١٠.

– أما الجزء الخامس فهو مسجل في سجل الرسائل بجامعة الأزهر تحت رقم ٣/٤٨.

– وحقق الجزء السادس عبد المنعم فايد عبد الكريم سنة ١٩٧٧ ورسالته محفوظة بمكتبة الجامعة رقم ١٢٢٠. وهذه الرسائل متسلسلة من أول باب إلى باب (ما لحقته الزوائد من بنات الثلاثة) وهو آخر باب حقق في الرسالة السادسة، وبقي مما لم يحقق ٥٢ باباً.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٩ – القرطبي، ابن مضاء، الرد على النحاة، تـ شوقي ضيف، دار المعارف، ص ١٣٧.

٢٠ – ابن هشام، مغني اللبيب، تـ مازن المبارك، ومحمد حمد الله، مراجعة سعيد الأفغاني، ط ٥ (دار الفكر، ١٩٧٩) ١:٣٥٧.

٢١ – السيوطي، همع الهوامع، ط ٢ (حيدر آباد، ١٣٦١ هـ) ١:٢٨١.

٢٢ – المصدر ذاته، ٤:٢١٥.

٢٣ و ٢٤ – انظر الإحالة رقم ١٦ ص٢٥ من هذا البحث.

٢٥ – انظر : الأعلم، النكت (مقدمة المحقق) ص ١٠.

٢٦ – انظر «النكت» ص ٣ – ٤.

٢٧ – بالجهد الفردي الذي بذله المرحوم شيخ المحققين عبد السلام محمد هارون تغمده الله بواسع رحمته.

٢٨ – ينظر : العمري، أكرم ضياء، التراث والمعاصرة (كتاب الأمة)، ط ٢، ١٩٨٥، ص ٣٩ – ٤٠.

٢٩ – ينظر : عمارة، محمد، التراث في ضوء العقل (بيروت : دار الوحدة، ١٩٨٠) ص ١٨، ١٩، ٢٠.

مقالات

مسيرة الفكر الاشتقاقي

في اللغة العربية

الدكتور محمد السيد علي بلاسي
جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية - الزقازيق

الاشتقاق ... مزية العربية[1]

لا شك أن «هناك ميلاً طبعياً لمفردات اللغة نحو النمو والتكاثر: نتيجة لنمو النشاط الإنساني بمرور الزمن وتكاثره. فهناك أشياء كثيرة تجد، وأحوال تنشأ، وأفعال تستحدث، ومعان تتولد، وكلها تتطلب لأنفسها ألفاظاً وأسماءً لكي تظهر! ويتم الحصول على هذه الكلمات من عدة طرق مختلفة»[2]*. أهمها في اللغة العربية (الاشتقاق)، الذي يعد أكبر وسائل نموها*[3]*! بل ويعد من كبريات مميزاتها، وعن طريقه وجدت مفردات كثيرة في اللغة العربية*[4]*!*

وقد تتبع علماء اللغة المسالك اللغوية لتوليد الألفاظ في اللغات جميعها وأوضحوا لنا صورها الواقعية. وكان ذلك في القرن التاسع عشر الميلادي، وقد قسموا اللغات - تبعاً لمسالك التوليد المتبعة فيها إلى ثلاث فصائل[5] على النحو التالي[6]:

أ - اللغات العازلة Isolantes أو اللغات غير المتصرفة monosyllabiques أو غير المرتقية:

هي اللغات التي بنية الكلمات فيها لا تتغير، وأصولها لا تلصق بها حروف زائدة لا قبلها ولا بعدها. وليس بين أجزاء تراكيبها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

روابط وصلات. ويدخل فيها اللغة الصينية وكثير من اللغات البدائية.

ب - اللغات الإلصاقية Agglomérantes:

هي لغات وصلية تمتاز بالسوابق Préfixes واللَواحق Suffixes التي ترتبط بالأصل فتغير معناه وعلاقته بما عداه من أجزاء التركيب. وأشهرها اللغات اليابانية والتركية وبعض اللغات البدائية.

ج - اللغات التحليلية Analytiques، **أو المتصرفة** Flexional، **ويطلق عليها اسم المرتقية**:

وهي اللغات المتصرفة التي تتغير أبنيتها بتغيّر المعاني وتحلَل أجزاؤها المترابطة فيما بينها بروابط تدلَ على علاقاتها. ومن هذه اللغات اللغات السامية، وفي طليعتها العربية، وأكثر اللغات الهندية - الأوربية[٧].

فاللغات السامية إذاً تسمَى لذلك لغات الاشتقاق، وهو من ميزاتها اللازمة لها.

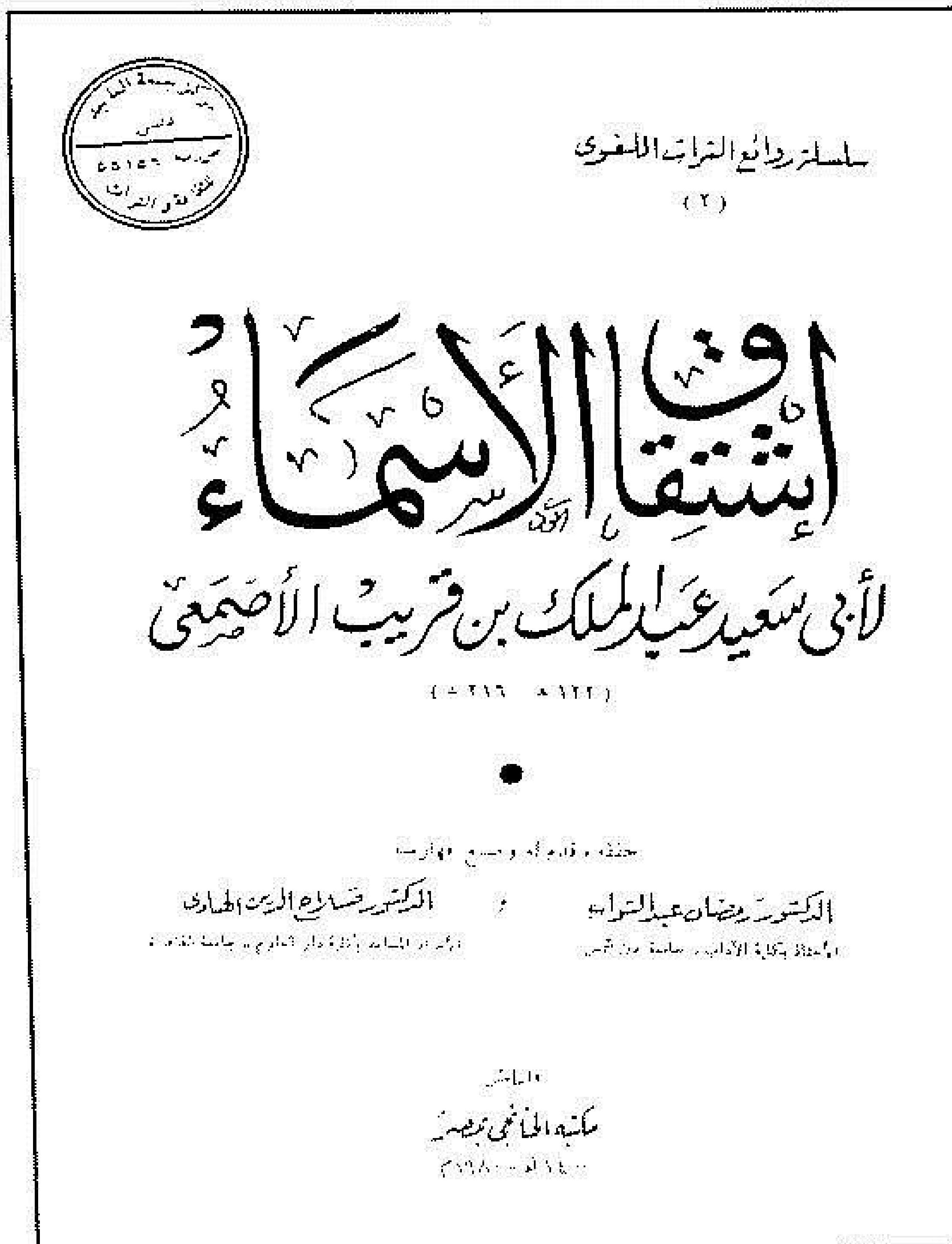
وتكاد اللغة العربية من بينها تنفرد بعموم الاشتقاق واطراده مع تحريك أواخر الكلمات حسب مواقعها من الجمل المفيدة[٨].

وإذا قارنا في خاصَة الاشتقاق نفسها بين العربية وأخواتها في الأسرة اللغوية كادت أن تنفرد باشتقاق مقصور عليها لا يضارعه اشتقاق العبرية أو السريانية أو الكلدانية، أو الحبشية في السعة ولا في تقسيم القاعدة ولا في تحكيم المتكلم في التعبير عن أغراضه على حسب كلّ احتمال معقول[٩].

ناهيك عن اللغات الهندية - الأوربية، تلك التي تجعلها نظرية شليجل اشتقاقية، هي في واقع حياتها ونموّها وصلية تعتمد السوابق واللواحق، وإن كانت تسمي هذا النحو من التوسّع بالاشتقاق Derivation. وهذا «الاشتقاق[١٠] هو الطريقة الأشيع في خلق الكلمات الجديدة في الإنجليزية. وهو نهج مألوف، فيه تضاف سابقة Préfix أو لاحقة Suffix إلى كلمة حيَة قائمة: لتقوم صيغة جديدة. ومن أمثلة ذلك: Cool ness المصوغة بإضافة اللاحقة ness الى cool التي صيغت بتصدير السابقة Dis لكلمة Trust وهذه الزوائد (السوابق أو اللواحق) تحمل معاني عامة، وتضاف إلى الكلمات تعرفها وتحدّد معانيها»[١١].

هذا بخلاف الاشتقاق باللغة العربية: «فإن اللغة العربية تمتاز بأصول - تسمى بالحروف الصامتة وهي ما عدا حروف المدّ - أثبت وأقوى وأبقى على اختلاف أحوال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



الكلمة وتصرفاتها وصيغها ومنها تتكون حروف الكلمة الأصلية الثابتة التي تدور معها أنّى دارت، وتثبت أنّى تقلّبت، وهي التي تثبت أصل المعنى في المادة اللغوية بثباتها»[١٢].

«ولحروف المدّ في العربية وظيفة تنويع المعنى الواحد والمادة الواحدة - بجانب الحركات التي تنوّع المعنى أيضاً - تبعاً لأوزان مختلفة مثل: ينظر - ناظر - منظور - نظير - نظائر - نظارة - مناظر - منظار - منظر - منتظر...إلخ، فهذه الكلمات تختلف بين أسماء وأفعال وصفات وإفراد وجموع، والذي فرق بينها هو الوزن الذي لوّنته الحركة قصيرة وطويلة»[١٣].

من هنا: كان ***الاشتقاق في العربية يقوم بوظيفة لا يستهان بها في تنويع المعنى الأصلي وتلوينه في الوقت الذي تسمو فيه العربية لتعبّر عن معانٍ دقيقة باختلاف الوزن والحركة***: فقد نجد - مثلاً في صيغ الألفاظ العربية تفرقة واضحة بين ما هو حركة في النفس وما هو حركة في الجوارح. فالعربية تفرّق بين الكِبْر والتكبّر والعلم والتعلّم والفقه والتفقّه وما إلى ذلك.

من ثم: فإنّ منهج اللغة العربية الفريد في الاشتقاق قد زوّدها بذخيرة من المعاني التي لا يسهل أداؤها في اللغات الأخرى[١٤].

ولا غرو - إذاً - أن يكون سرّ تفوق اللغة العربية، وأنها من أشرف اللغات القديمة والحديثة، وأنها أحقّ لغة بأن تحيا - كما قال بعض علماء الأميركان المحققين - هو: لأنها لغة، باب الاشتقاق فيها واسعٌ جداً[١٥].

الاشتقاق في اللغة هو: «أخذ شقّ الشيء وهو نصفه، والاشتقاق الأخذ في الكلام وفي الخصومة يميناً وشمالاً مع ترك القصد. واشتقاق الحرف من الحرف أخذه منه»[١٦].

وتكاد تجمع المعاجم اللغوية العربية على هذا المعنى اللغوي، دون أن تغيّر فيه شيئاً[١٧].

أما الاشتقاق في الاصطلاح، فقد حدّد بتعريفات عديدة منها[١٨]:

١ - روى حمزة الأصبهاني في كتابه «الموازنة» عن الزجاج (- ٣١١ هـ) أنه ذكر: «أن كلّ لفظتين اتفقتا ببعض الحروف، وإن نقصت حروف إحداهما عن حروف الأخرى، فإن إحداهما مشتقة من الأخرى»[١٩].

٢ - روي أنّ الرّماني عرّف الاشتقاق بأنه: «اقتطاع فرع من أصل، يدور في تصاريفه

كتاب
الاشتقـــاق

تصنيف
الشيخ الإمام أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي عفا الله عنه
(٢٢٣ - ٣٢١ هـ)

عن النسخة التي نشرها المستشرق الألماني فرديناند فستنفلد بمدينة جيتنجن بألمانيا سنة ١٨٥٤ م
وروجع على نسخ خطية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(حروف ذلك) الأصل».

٣ - ورد في كليات أبي البقاء (- ١٠٩٤ هـ)(٢٠) أنه قيل إن الاشتقاق: «أخذ كلمة من أخرى بتغيير ما، مع التناسب في المعنى».

٤ - ورد في المصدر نفسه أنه قيل إنه: «ردّ كلمة إلى أخرى لتناسبهما في اللفظ والمعنى».

٥ - قال الرضي الاستراباذي (- ٦٨٤ هـ) في شرحه لشافية ابن الحاجب: «الاشتقاق كون إحدى الكلمتين مأخوذة من الأخرى، أو كونهما مأخوذتين من أصل واحد».

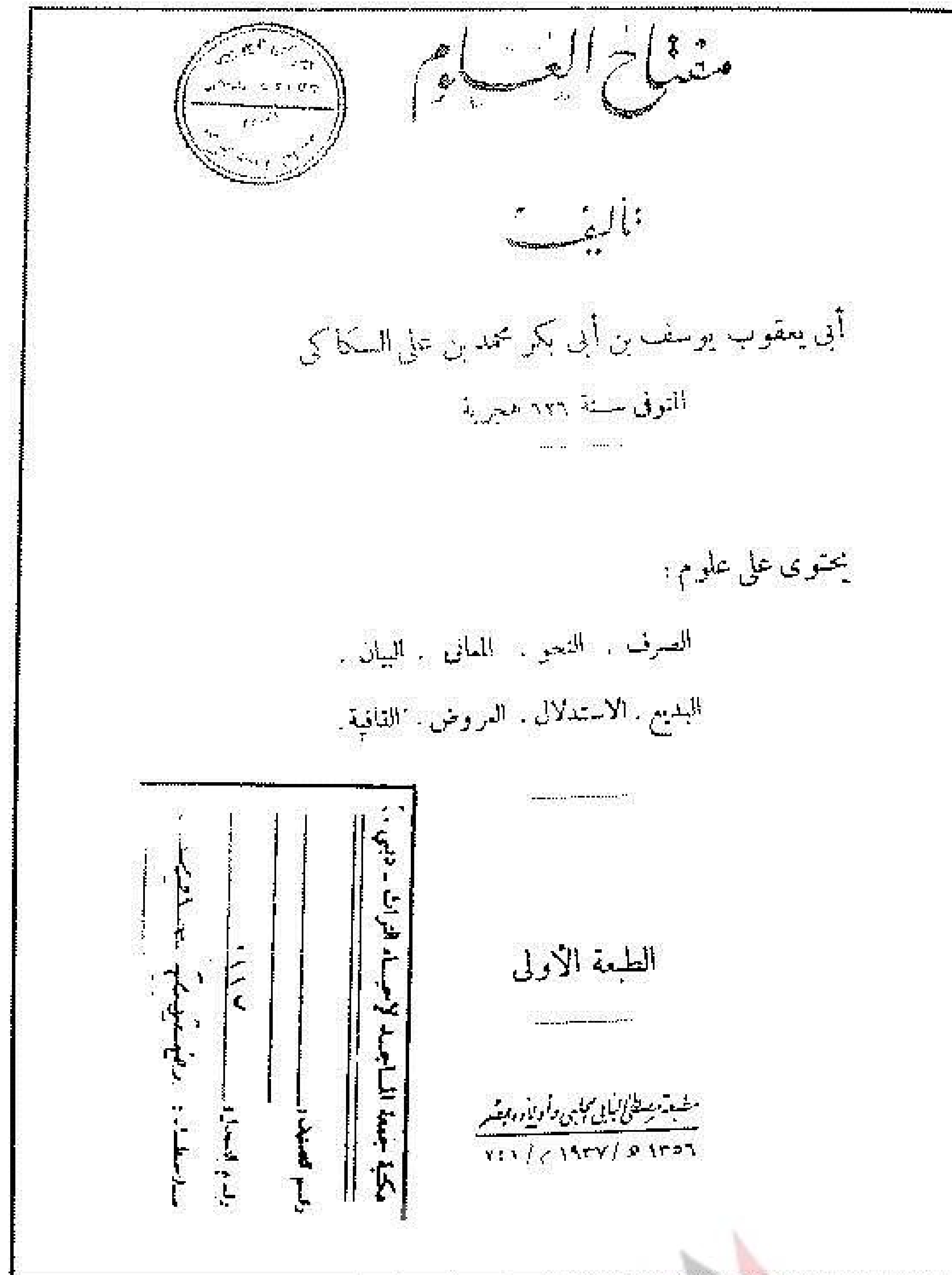
٦ - ذكر السيد الشريف الجرجاني (- ٨١٦ هـ) في «كتاب التعريفات»، أن الاشتقاق هو: «نزع لفظ من آخر بشرط مناسبتهما معنى وتركيباً ومغايرتهما في الصيغة»[٢١].

٧ - روى السيوطي عن شرح التسهيل أنه - أي الاشتقاق - : «أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى، ومادة أصلية، وهيئة تركيب لها...».

أقول: وجميع هذه التعريفات متقاربة في المفهوم، إلا أنها تتفاوت في تشديدها على الصلة اللفظية والمعنوية بين المشتق والمشتق منه.

وأرى أن أنسب تعريف للاشتقاق هو: «أخذ لفظ من لفظ يناسبه في التركيب ليدل على معنى يناسب معناه. كالصلة بين: علم، وعالم، واستعلام، وتعلم، وتعالم، وبينهنّ وبين العلامة (كسحابة)، والعلم: الحبل، والأعلم: ذي الشفة المشقوقة كشفة الجمل»[٢٢].

هذا، وقد اختلف النحويون والصرفيون واللغويون حول الاشتقاق من حيث تحديده


مفتاح العلوم

تأليف

أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي

المتوفى سنة ٦٢٦ هجرية

يحتوي على علوم:

الصرف . النحو . المعاني . البيان .

البديع . الاستدلال . العروض . القافية .

الطبعة الأولى

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م

ومداه:

١ - الاشتقاق عند النحويين

هو أخذ شيء من المصدر ليدلّ على حدث وصاحبه، فيشمل بهذا أربعة أنواع: اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، واسم التفضيل. أما أسماء الزمان والمكان والآلة فهي من الجوامد[٢٣].

٢ - الاشتقاق عند الصرفيين

هو أخذ شيء من غيره ليدل على ذات وحدث له ارتباط بتلك الذات. والمقصود بالارتباط اتصال ما، سواء أكان على جهة الوقوع منها أم عليها أم فيها أم بواسطتها.

والمشتقّ - بهذا التحديد - يشمل: اسم الفاعل واسم المفعول، والصفة المشبهة، واسم التفضيل، واسم الزمان، واسم المكان، واسم الآلة.

والجمود ضدّ الاشتقاق، والجامد - على هذا - هو ما لم يؤخذ من غيره على الصفة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

السابقة، وذلك بأن يدل على ذات فقط مثل رجل وفرس أو معنى فقط مثل علم وشجاعة، وكأن المشتق بهذا المعنى متفرع عن الجامد، فكأنك تشقه وتستخرج منه معنى الأصل»[٢٤].

٣ - الاشتقاق عند اللغويين:

هو أخذ شيء من غيره مطلقاً، سواء دلّ على ذات وحدث معاً أم لا، فيشمل المشتق عندهم - المشتقات التي عرفت عند النحويين والصرفيين، كما يشمل نحو استنسر من النسر، واستحجر من الحجر. ومن الأول قولهم في المثل:

إنّ البغاث بأرضنا يستنسر[٢٥]

مما سبق يتضح أنّ: «الصرفي: ينظر إلى هيئة الكلمة وصورتها، فيقول: إن اسم الفاعل من الثلاثي على وزن فاعل، ومن غيره على صورة المضارع، مع إبدال حرف المضارعة ميماً مضمومة، وكسر ما قبل الآخر، كمهاجر ومقاتل.

واللغوي: يبحث عن اشتراك الكلمتين في الحروف، مع ملاحظة المناسبة بينهما في المعنى دون التفات إلى حركات أو سكون»[٢٦]. وتأتي هذه الملاحظة من حيث إنّ هناك فروقاً بيّنة في المعنى بخلاف الاشتقاق الصرفي.

«وبهذا يتبين أنّ الاشتقاق اللغوي أعمّ من الصرفي، والنحوي، وإن كان عند الصرفيين أعمّ منه عند النحويين.

ولكن اللغوي هو الذي فتح المجال لزيادة الثروة اللغوية، وهو الذي يتمتع بسمات لها أهمية بالغة.

وإذا كان النحاة والصرفيون قد ضيقوا من دائرة الاشتقاق بتحديدهم إياه، وتكبيله بالقيود فإنّ اللغويين قد أطلقوه من عقاله، وأفسحوا له الطريق كما يشاء»[٢٧].

هذا وقد وقف علماء اللغة حتى الوقت الراهن - على صور للاشتقاق، عرفت عندهم بالاشتقاق الصغير، والكبير، والأكبر، والكبّار.

كما قسّموا الاشتقاق باعتبار الشيوع والندرة - حسب انتظام القواعد وعدمها - إلى قسمين[٢٨]:

أ - **مطّرد**: وهو المبني على قواعد منتظمة، كاشتقاق الأفعال والصفات من المصدر، وهو من الصغير.

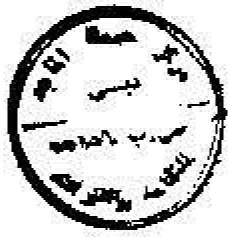
ب - **غير مطّرد**: وهو الاشتقاق من أسماء الأعيان: كمذهب، ومفضض، من الذهب والفضة، وأبحر: ركب البحر...

وليس لهذا النوع قاعدة يسير وفقها، وقد

رسالة الاشتقاق

لأبي بكر محمد بن السري السراج

المتوفى ٣١٦ هـ

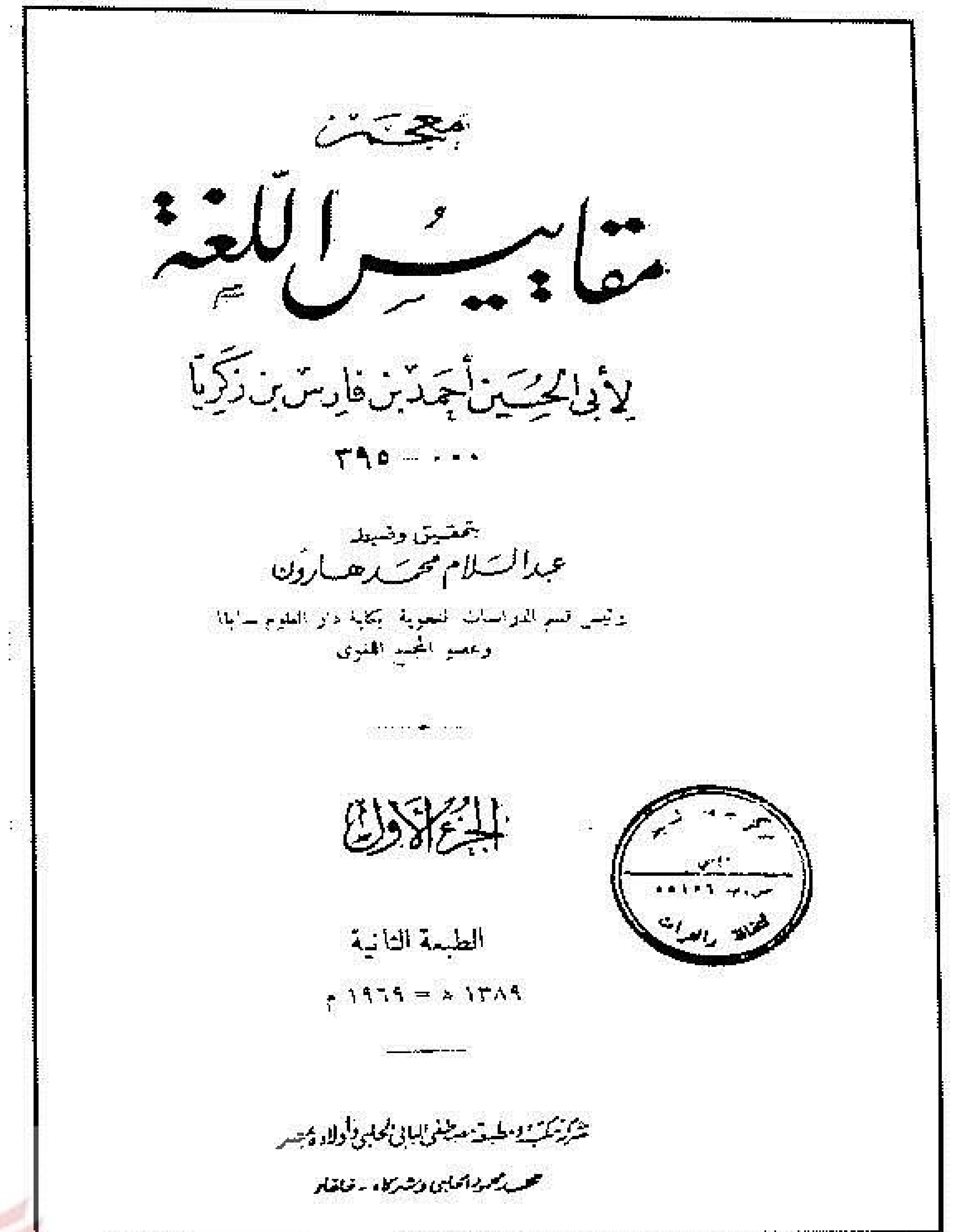


تحقيق

محمد علي الدرويش   مصطفى الحدري

حقوق الطبع محفوظة للمحقق

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com



بدا لمجمع اللغة العربية في القاهرة كثرة استخدام العرب لهذا النوع من الاشتقاق، كما ظهر له شدة الحاجة إليه في العلوم والفنون، فاتخذ قراراً باستخدامه وقياسه عند الضرورة في العلوم والفنون[٢٩].

أثر البيئة في مسيرة الاشتقاق

من المعلوم أنَّ الاشتقاق ظاهرة لغوية، تمدّ الإنسان بألفاظ جديدة كلما دعت الحاجة إلى ذلك...

والاشتقاق كأية ظاهرة لغوية أخرى، خاضع لتأثير البيئة، فهي التي تحدّد دواعيه، وتقرّر - إلى حدّ كبير - النشاطات الخاصة المتصلة به.

ومن ثمّ: فقد تأثر الاشتقاق العربي بالبيئة العربية في الجزيرة وخارجها:

ففي الجزيرة العربية: كان العرب قبل الإسلام يحيون حياة يسيرة لا تستدعي اشتقاق الكثير من الألفاظ الجديدة. وكانوا يعرفون لغتهم بالسليقة: فلم تكن هنالك حاجة لمدارستها والبحث في أصول اشتقاقها. ثمّ إنّ قلّة اتصالهم بالعالم الخارجي - آنذاك - جعلت أبنيتهم الاشتقاقية تختلف مع الزمن عن نظائرها عند الأمم السامية الأخرى التي اتصلت به اتصالاً وثيقاً. ومن جهةٍ أخرى، أدّى اتساع بلادهم وكثرة ما يعترضها من صحارٍ واسعة؛ إلى ظهور لهجات مختلفة بينهم كان اعتمادها على المشافهة سبباً في استفحال أمرها[٣٠]. ولا ريب في أنّ اختلاف اللّهجات كثيراً ما يؤول إلى اختلاف الألفاظ التي هي المادة الأولية للاشتقاق[٣١].

وعلى الرغم من أنّ ظهور القرآن الكريم أدّى إلى الحدّ من هذه اللهجات، فقد ظلّ ما بينها من فروق مصدراً للاختلاف وكثرة الشوارد في المسائل الاشتقاقية. أضف إلى ذلك أن ما كان بين بعض هذه اللهجات من إبدال في الحروف وقلب فيها أدّى إلى التوسّع في هذين البابين فيما بعد، وفسح المجال أمام بعض اللغويين المتأخرين ليعتبروهما من ضروب الاشتقاق نفسه.

وكان ظهور الإسلام حدثاً هاماً في تاريخ العرب اللغوي: فقد كان في نزول القرآن الكريم وتدوينه ما أدّى إلى استقرار الأنماط الاشتقاقية الواردة فيه: إذ وضع أمام العرب

– على اختلاف لهجاتهم – مثلاً أعلى في البلاغة واشتقاق الكلم. أضف إلى ذلك أنّ مجيء الإسلام أدّى إلى إكساب كثير من الألفاظ المشتقة معاني جديدة لم يكن للعرب عهد بها[٣٢].

ومن هنا نرى أنّ عملية الاشتقاق حادثة لا تنشأ في بدء نشأة اللغة، بل تمثّل مرحلة من مراحل نموّها، متأثّرة بحياة الإنسان وبيئته. وهي فوق ذلك عمل عقليّ منظّم يعتمد فيه الإنسان على العقل بعد أن كان لا يعتمد غير الحِسّ في تكوين عناصره اللغوية الأولى. ويواكب هذا العمل حياة الإنسان اللغوية: يستمد منها العون كلما حزبه الأمر واضطرته حياته الحضارية المتطورة إلى توليد كلمات جديدة[٣٣].

واستمرّ النشاط في الأدب الاشتقاقي، تحدوه الحاجات الجديدة، وتستحثه الدراسات القرآنية، حتى بلغ أوجه في القرنين الثالث والرابع الهجريين حين ظهرت طائفة من أعلام اللغة ألّفت فيه، كالأصمعي والأخفش والمبرّد والزجّاج وابن دريد... ولكن جلّ تواليف هؤلاء قد طويت مع الزمن[٣٤].

وبقيت البحوث الاشتقاقية منذ ذلك الحين دون إثارة ذات شأن حتى العصر الحديث؛ حيث عملت الحاجة إلى المصطلحات العلميّة على إثارتها من جديد[٣٥].

الرحلة [illegible] للفكر الاشتقاقي

بالرغم من أنّ الاشتقاق قد درس الآن باعتداده ظاهرة من ظواهر اللغة العربية، إلا أنّ كثيرا من الناس يمارسونه في ثنايا كلامهم. كذلك كان العرب قبل الإسلام يمارسون الاشتقاق بهذه الطريقة وإن لم يكن ذلك على سبيل الجهد العلمي المقصود. ونستطيع أن نلمس ذلك في أسماء أولادهم وعلل تسميتهم بهذه الأسماء، كما ذكر في تسمية فاطمة ومدركة وطابخة وقصّى وهاشم ومحمد صلى الله عليه وسلم[٣٦].

وقد ورد أقدم استعمال لكلمة الاشتقاق، فيما صحّ عن الرسول صلى الله عليه وسلم: يقول الله: أنا الرحمن خلقتُ الرّحم وشققت لها من اسمي[٣٧]..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

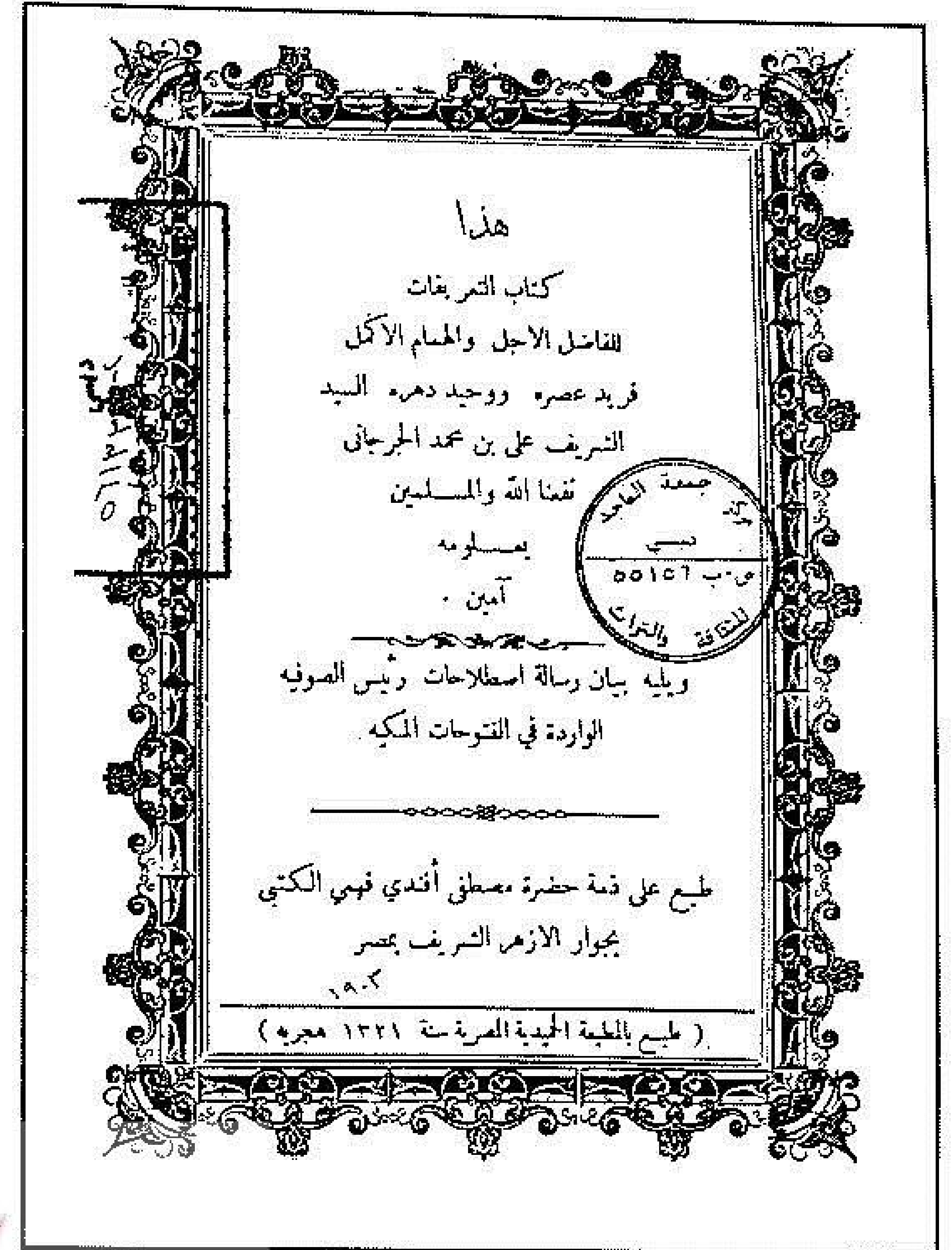
فصيح ثعلب
والشروح التي عليه
نشر وتعليق الأستاذ
محمد عبد المنعم خفاجي

(مجموعة في اللغة تشمل : الفصيح ، وشرحه ، وذيله ، ومقدمة الاشتقاق الكبير لابن دريد ، وسواها .)

روجع على النسخ الخطية المحفوظة بدار الكتب الملكية

الطبعة الأولى

١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م


هذا
كتاب التعريفات
للفاضل الاجل والهمام الاكمل
فريد عصره ووحيد دهره السيد
الشريف على بن محمد الجرجانى
نفعنا الله والمسلمين
بعلومه
آمين .
ويليه بيان رسالة اصطلاحات رئيس الصوفيه
الواردة في الفتوحات المكيه .
طبع على ذمة حضرة مصطفى أفندي فهمي الكتبي
بجوار الازهر الشريف بمصر
١٩٠٢
(طبع بالمطبعة الحميدية المصرية سنة ١٣٢١ هجريه)

جمعية الماجد للثقافة والتراث دبي ص.ب ٥٥١٥٦

ومن الاشتقاقات الجزئيَّة المبكِّرة: قول ابن عباس رضي الله عنهما فيما يرويه عن نفسه: «كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها أي بدأتها»[٣٨].

«وهكذا استفاض الاشتقاق عند اللغويين وغيرهم فأصبح هو المنهج كلَما اقتضت الحاجة تحرير معنى لفظ أو تقريبه أو بيان أصل معناه، كما نجد في: أدب الكاتب لابن قتيبة والكامل للمبرّد ومجالس ثعلب والأمالي للقالي... وكما نرى في بعض معاجم اللغة: كالتهذيب للأزهري والمحكم لابن سيده...»[٣٩].

من ذلك: رأى أبو عمرو الشيباني (٢٠٦ هـ) ثم يعقوب بن السكيت (- ٢٤٤ هـ) أنّ لفظ (آية) من آيات كتاب الله يعني جماعة من حروف (أي جملة ألفاظ) نظرا إلى الآية: الشخص[٤٠].

هذا، ويعدُّ العمل الذي قام به الخليل بن أحمد الفراهيدي عند وضعه لكتابه (العين) النواة الأولى لعلم الاشتقاق العربي؛ ففكرة الجذور هي الفكرة التي يقوم عليها تشقيق الكلام والوصول به إلى العناصر المشتركة بين المشتق والمشتقّ منه.

وظلّ الاشتقاق حتى النصف الأخير من القرن الرابع الهجري لا يتعدى - عند علماء اللغة - سوى الكلمات المتناسبة في اللفظ والمعنى، مع ترتيب الحروف. وهذا ما يدعونه بالاشتقاق الصغير أو الأصغر.

غير أن هذا المدى ما لبث أن اتسع حين أضاف ابن جني (- ٣٩٢ هـ) إلى الاشتقاق باباً آخر يشمل الكلمات المشتقة من تقاليب اللفظة الواحدة، تلك الكلمات التي افترض أنَها تشترك في معنى عام، بالإضافة إلى اشتراكها في الحروف الأصلية على الرغم من عدم ترتيب تلك الحروف.

ودأبت كتب اللغة منذ القرن الرابع الهجري على الإشارة إلى هذين النوعين. وكان أصحابها يكتفون بذلك، أو يعلَقون عليه، منكرين النوع الثاني أحياناً[٤١]، أو مقلّلين من شأنه أحياناً أخرى[٤٢].

وذكر السكّاكي (- ٦٢٦ هـ) أن الحاتمي عدّ إبدال الحروف من الاشتقاق أيضاً[٤٣].

وأضاف أحد معاصرينا، وهو الأستاذ عبدالله أمين، إلى هذه الأنواع الثلاثة نوعاً رابعاً، هو باب النحت وأطلق عليه: «الاشتقاق الكبّار» وبذلك أصبح الاشتقاق بأوسع معانيه يشمل الأنواع الأربعة المتعارف عليها الآن وهي: الاشتقاق الصغير، والكبير، والأكبر، والكبّار، على اختلاف بين علماء اللغة في المسميّات[٤٤].

تراث علماء العربية في الاشتقاق

عُني العلماء الأعلام من العرب والأعاجم منذ فجر النهضة الإسلامية الكبرى بدراسة اللغة العربية دراسة عميقة واسعة شاملة، ووضعوا لحروفها وكلماتها وتراكيبها علوماً جمّة محرّرة[٤٥].

وقد حظي علم الاشتقاق في اللغة العربية[٤٦] بعناية كثير من علمائنا منذ أقدم العصور الإسلامية، فقد تعاوره العلماء بالبحث والتأليف فيه منذ أواخر القرن الثاني الهجري. وأفرده بالتأليف جماعة من العلماء المتقدمين وثلّة من المتأخرين، كما وردت معالجات كثيرة لموضوعه بين ثنايا كتب المتقدمين والمتأخرين، غير أنّ عوادي الزمن أتت على الكثير ممّا ألّفوه، ولم يبق لنا منه إلا القليل!

وفيما يلي إحصاء للمؤلفات في موضوع الاشتقاق، مرتّب حسب الترتيب التاريخي لوفاة المؤلفين:

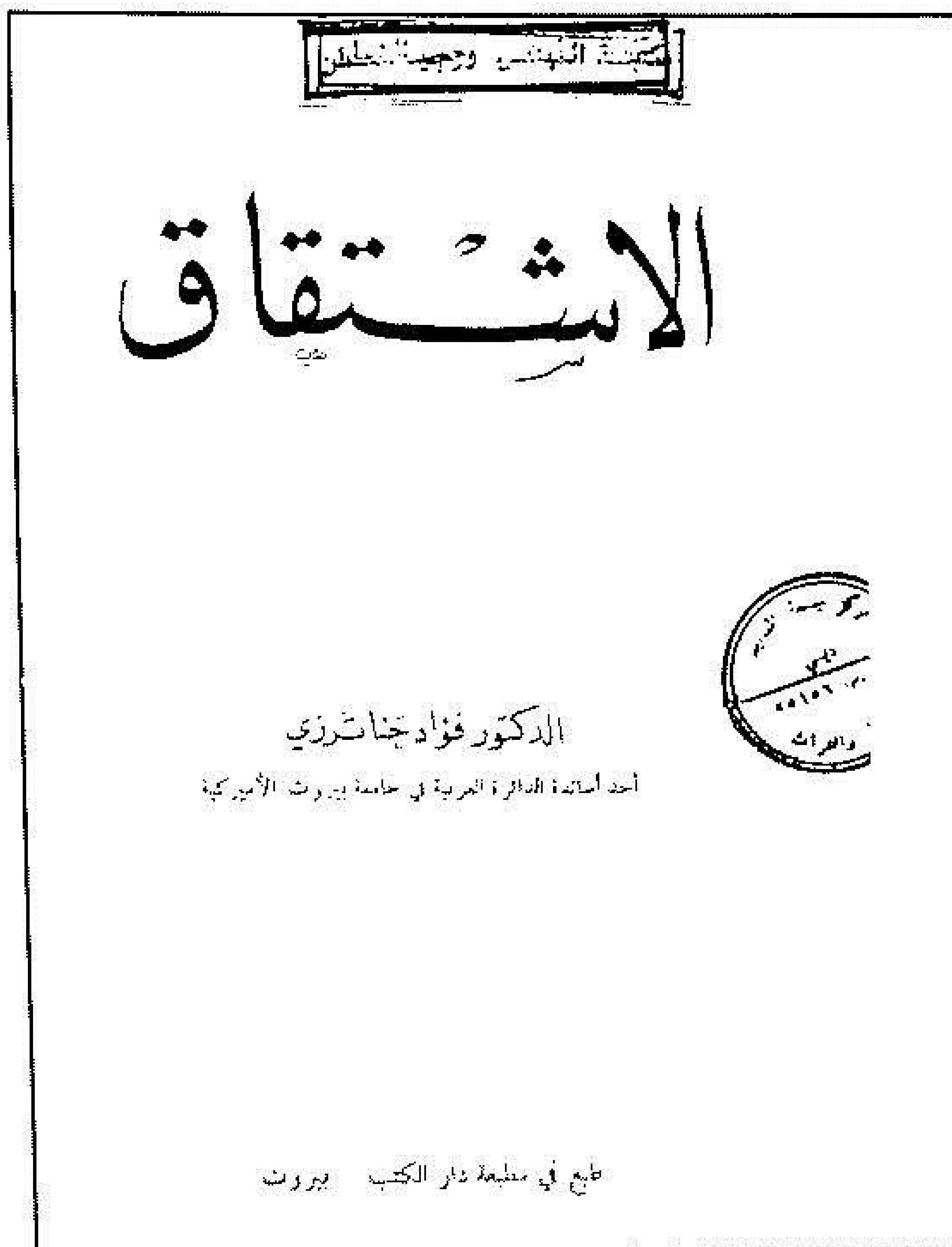
١ - كتاب الاشتقاق، لأبي علي محمد بن المستنير بن أحمد، المعروف بقطرب (٢٠٦هـ).

٢ - كتاب الاشتقاق، لأبي الحسن سعيد بن مسعدة، المعروف بالأخفش الأوسط (٢١٥هـ).

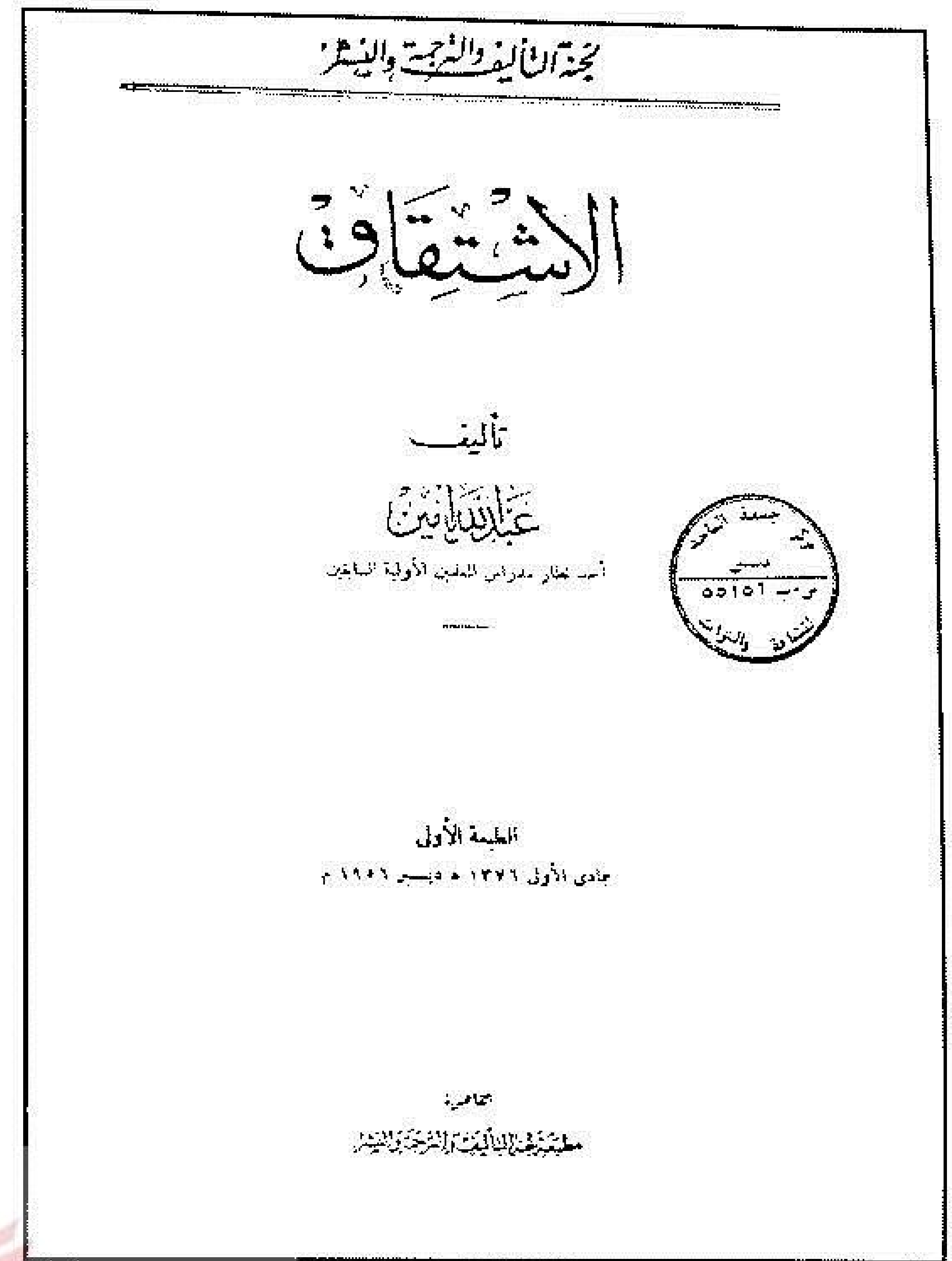
٣ - كتاب الاشتقاق، لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (٢١٦ هـ).

٤ - كتاب اشتقاق الأسماء: لأبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي (٢٣١ هـ).

٥ - كتاب اشتقاق الأسماء، لأبي الوليد عبد الملك بن قطن المهري القيرواني (٢٥٦هـ).



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



٦ – كتاب المشتقَ، لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور (٢٨٠هـ).

٧ – كتاب الاشتقاق : لأبي العباس محمد بن يزيد المبرِّد (٢٨٥هـ).

٨ – كتاب الاشتقاق، لأبي طالب المفضل بن سلمة بن عاصم اللغوي (– ٣٠٠ هـ).

٩ – كتاب الاشتقاق، لإبراهيم بن السري بن سهل أبي إسحاق الزجّاج (٣١١ هـ) (٤٧).

١٠ – كتاب الاشتقاق، لأبي بكر محمد بن السري بن سهل السرّاج (٣١٦ هـ). وقد نشر الكتاب محمد صالح التكريتي في بغداد سنة ١٩٧٣ م، كما نشره أيضاً في السنة نفسها محمد علي الدرويش ومصطفى الحدري في دمشق.

١١ – كتاب اشتقاق أسماء القبائل، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (٣٢١هـ).

وقد نشر الكتاب مرتين : الأولى بعناية المستشرق فستنفلد لمنمّصط، في غوتنغن عام ١٨٥٤ م. والثانية بتحقيق عبد السلام هارون في القاهرة عام ١٩٥٨ م بعنوان «الاشتقاق».

١٢ – كتاب الاشتقاق الصغير، لأبي محمد عبدالله بن جعفر بن محمد بن درستويه (بعد ٣٣٠ هـ).

١٣ – كتاب الاشتقاق الكبير، لابن درستويه السابق.

١٤ – كتاب الاشتقاق، لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (٣٣٧ هـ).

١٥ – كتاب الاشتقاق لأسماء الله عزّ وجل، لأبي جعفر النحاس السابق.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٦ – اشتقاق أسماء الله تعالى وصفاته المستنبطة من التنزيل وما يتعلّق بها من اللغات والمصادر والتأويل، لأبي القاسم عبد الرحمن بن أبي إسحاق الزجّاجي (٣٧٧هـ). حققه ونشره الدكتور عبد الحسين المبارك في بغداد سنة ١٩٧٤ م.

١٧ – كتاب الاشتقاق، لأبي عبدالله الحسين بن أحمد بن خالويه (٣٧٠ هـ).

١٨ – كتاب الاشتقاق الكبير، لأبي الحسن علي بن عيسى الرّماني (٣٨٤ هـ).

١٩ – كتاب الاشتقاق الصغير، للرّماني السابق.

٢٠ - اشتقاق الأسماء، لأبي القاسم يوسف بن عبدالله الزجّاجي (٤١٥ هـ).

٢١ - اشتقاق الأسماء، لأبي عبيد البكري، عبدالله بن عبدالعزيز أبي مصعب الأندلسي (٤٨٧ هـ).

٢٢ - اشتقاق أسماء المواضع والبلدان، لحجّة الأفاضل علي بن محمد الخوارزمي (٥٦٠ هـ).

٢٣ - الاشتقاق، لأبي بكر محمد بن أحمد بن عبدالله بن سُحمان الوائلي البكري الأندلسي (-٦٨٥ هـ).

٢٤ - العلم الخفّاق من علم الاشتقاق، للسيد محمد صديق خان بهادر (١٣٠٧ هـ).
والكتاب مطبوع بمطبعة الجوائب باستانبول سنة ١٢٩٦ هـ.

٢٥ - الاشتقاق والتعريب، لعبد القادر المغربي (-١٣٧٥هـ)، وهو من الدراسات الحديثة، طبع في القاهرة سنة ١٩٠٩ م.

٢٦ - الاشتقاق، لعبدالله أمين. وهو من الدراسات الحديثة أيضاً، طبع في القاهرة سنة ١٩٥٦ م.

٢٧ - الاشتقاق، للدكتور فؤاد حنّا ترزي، من مطبوعات دار الكتب ببيروت، ومنشورات كليّة العلوم والآداب في جامعة بيروت الأمريكية سنة ١٩٦٨م(٤٨).

٢٨ - ظاهرة الاشتقاق في اللغة العربية: طنطاوي محمد دراز، وهو من مطبوعات

كتاب المزهر في علوم اللغة وأنواعها للعلامة
السيوطي جلال الدين تغمده
الله بالرحمة والرضوان
وأسكنه فسيح الجنان

(ترجمة المؤلف)

مؤلف هذا الكتاب الشيخ الإمام والرحلة الهمام الأوحد الأمجد المحقق جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن الشيخ الإمام العالم العلامة كمال الدين أبي بكر بن محمد بن سابق الدين أبي بكر بن الفخر عثمان بن ناصر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبي الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الخضيري السيوطي، كان مولده بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة ٨٤٩ تسع وأربعين وثمانمائة وحملت أمه به إلى الشيخ محمد المجذوب وكان رجلا من كبار الأولياء بجوار المشهد النفيسي فدعا له بالبركة وحفظ القرآن وهو ابن ثمان فأقل من السنين، وله التآليف الكثيرة والمناقب الشهيرة، ومن مؤلفاته هذا الكتاب الذي لم يؤلف مثله في هذا الفن، قال مصححه وجدته على ظهر نسخة من نسخ هذا الكتاب فأثبته كما رأيته

مطبعة عابدين بالقاهرة سنة ١٩٨٦ م.

٢٩ - الاشتقاق عند الزجّاج.. مع عمل معجم اشتقاقي لغوي، محمد السيد علي بلاسي (رسالة دكتوراه مخطوطة محفوظة بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر).

هذا، وقلّما نجد مؤلفاً في فقه اللغة إلا وجدناه يفرد جزءاً منه للاشتقاق، تلك الظاهرة اللغوية التي تمتاز بها لغتنا الخالدة وتعدّ خصيصة من خصائصها.

كذلك الكتب الأمهات - أيضاً - لم تخل من بحوث مهمة في الاشتقاق: الخصائص لابن جني (٣٩٢ هـ)، ومقاييس اللغة: لابن فارس (٣٩٥ هـ)، وكتاب الأفعال: لابن القوطية (٣٦٧ هـ)، وأيضاً كتاب الأفعال: لابن القطاع (٥١٥ هـ)، والمزهر: للسيوطي (٩١١هـ) وغيرها...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحواشي

١ - يراجع في هذا الموضوع ما يلي: هلال، عبد الغفار حامد، اللغة العربية خصائصها وسماتها، ط ٣ (القاهرة : مطبعة الحضارة العربية، ١٩٨٦) ص ١٤٩ وما بعدها. وافي، علي عبد الواحد، علم اللغة، ط ٩ (القاهرة : دار نهضة مصر، د. ت) ص ١١٥ وما بعدها. الموسى، نهاد، النحت في اللغة العربية (دار العلوم للطباعة والنشر، ١٩٨٤) ص ٤٥ وما بعدها. الصالح، صبحي، دراسات في فقه اللغة، ط ١٠ (بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٨٣) ص ٤٥ - ٤٦. أمين، عبدالله، الاشتقاق (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦) ص ٤٤٨. الداية، فايز، علم الدلالة العربي (دمشق : دار الفكر، ١٩٨٥) ص ٢٣٥. زيدان، جرجي، الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية (بيروت : دار الحداثة، ١٩٨٢) ص ٨٦. شاهين، عبد الصبور، العربية لغة العلوم والتقنية (دار الإصلاح، ١٩٨٣) ص ٢٦٤. مجاهد، عبد الكريم، الدلالة اللغوية عند العرب (عمان : دار الضياء، ١٩٨٥) ص ٢٥٤. المبارك، محمد، فقه اللغة وخصائص العربية (بيروت : دار الفكر) ص ٢٦٤. ضومط، جبر، اللغة العربية، مجلة المقتطف، ع ٣، مارس ١٩١٣، ٢٣١ - ٢٣٩. ابن فارس، الصاحبي، ص ٥٧. الحازمي، عليان محمد، الاشتقاق، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، ع ١، ١٤٠١ هـ. ١٤٥. الكيالي، عبد الرحمن، عوامل تطور اللغة العربية وانتشارها، مجلة اللسان العربي، ع ٧، ١: يناير ١٩٧٠، ٨٦. السايح، أحمد عبد الرحيم، من خصائص اللغة العربية، مجلة اللسان العربي، ٨٤، ١: يناير، ١٩٧١، ٤٠. وهبة، توفيق، عطاء اللغة العربية وسعتها، المجلة العربية، ع ١، ديسمبر، ١٩٧٨، ١٢٨. فتوح، عيسى، محمد المبارك: علاّمة خسرته اللغة العربية، المجلة العربية، ع ١٢، مارس ١٩٨٢، ٩٢.

٢ - باي، ماريو، أسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار عمر، ط ٣ (القاهرة : عالم الكتب، ١٩٧٨) ص ١٥٤.

٣ - هناك عوامل أخرى كثيرة لنموّ ثروة اللغة العربية منها: الحقيقة والمجاز، والقلب والإبدال، والقياس، والتعريب... وغير ذلك. إلا أنها لا تصل بحال من الأحوال سعة عامل الاشتقاق.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٤ - انظر : هلال، عبد الغفار، اللغة العربية.. خصائصها وسماتها، ص ١٤٩.

٥ - في الحقيقة أن هذا التقسيم كان نتيجة نظرية للعلامة شليجل وتابعه فيها كثير من الباحثين، وهي طريقة في تقسيم اللغات البشرية إلى فصائل، لا تعوّل على صلات القرابة اللغوية، بل تستند في هذه القسمة إلى قوانين التطوّر والارتقاء المتعلقة بقواعد الصرف والتنظيم. راجع: صالح، صبحي، دراسات في فقه اللغة، ط ١٠ (بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٨٣م) ص ٤٥. و وافي، عبد الواحد، علم اللغة، ط ٩ (الفجالة : دار نهضة مصر) ص ١١٥، د. ت.

٦ - حامد، هلال، اللغة العربية.. خصائصها وسماتها، ص ١٥١.

٧ - دراسات في فقه اللغة، صبحي الصالح، ص ٤٥، ٤٦ - بتصرف يسير - وراجع: وافي، علي عبدالواحد، علم اللغة، ص ١١٥ - ١١٨. و حامد هلال، عبد الغفار، اللغة العربية.. خصائصها وسماتها، ص ١٥١ وما بعدها؛ تجد مزيداً من التفصيل.

٨ - اللغة العربية.. خصائصها وسماتها، ص ١٥٧ نقلاً عن العقاد في مقال له بعنوان: «اللغة العربية بين لغات الحضارة العصرية».

٩ - العقاد، عباس محمود، أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، ط ٣، (القاهرة : دار المعارف، ١٩٧٠) ص ١٠١.

١٠ - انظر : المعجم الموحّد لمصطلحات اللّسانيات (انجليزي - فرنسي - عربي): (تونس : مكتب تنسيق التعريب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٩) ص ٣٨.

١١ - الموسى، نهاد، النحت في اللغة العربية (الرياض . دار العلوم للطباعة والنشر، ١٩٨٤) ص ٤٦. نقلا عن:

The English language, : Smith, L.P. (London, 1922) p. 85.

وانظر : ماريو باي، أسس علم اللغة، ترجمة وتعليق أحمد مختار عمر، ١٥٤، ١٥٥. و دي سوسير، فردينان، دروس في الألسنية العامة، تعريب صالح القرماوي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة (تونس : الدار العربية للكتاب، ١٩٨٥) ص ٢٦٤.

١٢ – اللغة العربية.. خصائصها وسماتها، ص ١٥٧.

١٣ – المرجع السابق، ص ١٥٨.

١٤ – السايح، أحمد عبد الرحيم، من خصائص اللغة العربية، ص ٤٠ – بتصرف – وانظر، أمين، عثمان، فلسفة اللغة العربية (الدار القومية للتأليف والترجمة، ١٩٦٥) ص ٤٦.

١٥ – اللغة العربية، جبر ضومط، ص ٢٣٤.

١٦ – الجوهري، الصحاح، مادة «ش ق ق».

١٧ – انظر – على سبيل المثال – المعاجم التالية: لسان العرب، مختار الصحاح، القاموس المحيط، تاج العروس، البستان... مادة «ش ق ق».

١٨ – راجع : ترزي، فؤاد، الاشتقاق (بيروت : مطبعة دار الكتب، ١٩٦٨) ص ١٢ – ١٤.

١٩ – انظر : السيوطي، المزهر، ٣٥٤:١.

٢٠ – أبو البقاء هو أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، كان من قضاة الأحناف. عاش وولي القضاء في «كفه» بتركيا، وبالقدس وببغداد. وعاد إلى إستانبول فتوفي بها، ودفن في تربة خالد. وله كتب أخرى بالتركية. انظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام (بيروت : دار العلم للملايين) ٣٨:٢.

٢١ – الجرجاني (– ٨١٦ هـ)، التعريفات، ت. إبراهيم الأبياري (دار الكتاب العربي، ١٤٠٥ هـ) ص ٤٣.

٢٢ – جبل، حسن حسن، المعنى اللغوي: دراسة نظرية وتطبيقية (طبعة خاصة، ١٩٨٤) ص ١٠٣.

٢٣ – حامد هلال، عبد الغفار، اللغة العربية.. خصائصها وسماتها، ص ١٦١. نقلاً عن التبيان في تصريف الأسماء، ص ١٨، ١٩ – بتصرُّف –.

٢٤ – اللغة العربية.. خصائصها وسماتها، ص ١٦٢، نقلاً عن التبيان في تصريف الأسماء، ص ٦٨، ٦٩ – بتصرف –. وراجع: البنا، محمد إبراهيم، علم التصريف: موضوعه وتطوّره، مجلة الأزهر، ع ٣، ربيع الآخر، ١٤٠٠ هـ، ص ١٥٨٥ – ١٥٨٧. وراجع أيضاً: الأسعد، عبد الكريم محمد، التعريف بعلم التصريف، مجلة الفيصل، ع ٨٠، صفر ١٤٠٤ هـ، ٥٨ – ٦١.

٢٥ – اللغة العربية.. خصائصها وسماتها، ص ١٦٢. وقارن بـ: نجا، إبراهيم محمد، فقه اللغة العربية (مطبعة السعادة، ١٩٦٥) ص ٤٨.

٢٦ – نجا، إبراهيم محمد، فقه اللغة العربية، ص ٤٨.

٢٧ – حامد هلال، عبد الغفار، اللغة العربية.. خصائصها وسماتها، ص ١٦٢، ١٦٣.

٢٨ – نجا، إبراهيم محمد، فقه اللغة العربية، ص ٤٩. وراجع: اللغة العربية.. خصائصها وسماتها، ص ١٦٣.

٢٩ – انظر: مجلة مجمع اللغة العربية، ٢٤:١ وما بعدها.

٣٠ – ترزي، فؤاد، الاشتقاق، – بتصرُّف يسير – (بيروت : دار الكتب، ١٩٦٨) ص ٣٦٦. وانظر السامرائي، إبراهيم، فقه اللغة المقارن، ط ٣ (بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٨٣) ص ١٦٩ وما بعدها.

٣١ – المرجع السابق، ص ٢٤.

٣٢ – لمزيد من التفصيل: راجع: ابن فارس، الصاحبي، تـ السيد أحمد صقر (القاهرة : عيسى البابي الحلبي، ١٩٧٧) ص ٨٣ وما بعدها. كما راجع: السيوطي، المزهر، ١:٢٩٥ وما بعدها.

٣٣ – ترزي، فؤاد، الاشتقاق، ص ٢٤، ٢٥.

٣٤ – المرجع السابق، ص ٣٦٧، ٣٦٨.

٣٥ – ترزي، فؤاد، الاشتقاق، ص ٤٩، بتصرف –.

٣٦ – جبل، محمد حسن حسن، المعنى اللغوي.. دراسة نظرية وتطبيقية، طبعة خاصة (طنطا : مكتب التركي للآلات الكاتبة، ١٤٠٤ هـ) ص ١٠٩.

٣٧ – المزهر: للسيوطي، ١:٣٤٦. والرُّحم: مصدر كالرحمة. هامش المصدر المذكور ١:٣٤٦. وراجع: الأفغاني، سعيد، في أصول النحو، ط٢ (دمشق : جامعة دمشق، ١٩٥٧) ص ١٢٢.

٣٨ – تفسير ابن كثير (حلب : مكتبة التراث الإسلامي، ١٤٠٠ هـ) ٣:٥٤٦.

٣٩ – المعنى اللغوي.. دراسة نظرية وتطبيقية، ص ١١١.

٤٠ – المرجع السابق، ص ١١٠. نقلاً عن: الغريبين للهروي، ١:٣٠٦.

٤١ – انظر: السيوطي، المزهر، ١:٣٤٧. وراجع ص ٩٣ وما بعدها من رسالتنا للدكتوراه: «الاشتقاق عند الزَّجاج.. مع عمل معجم اشتقاقي لغويّ...» (رسالة مخطوطة محفوظة بكلية اللغة العربية – جامعة الأزهر).

٤٢ – انظر : المثل السائر: لابن الأثير، ص ٢٤٥٧.

٤٣ – وسماه الحاتمي «الاشتقاق الأكبر». انظر: السكاكي، الإمام أبو يعقوب (– ٦٢٦ هـ)، مفتاح العلوم، (القاهرة : مطبعة التقدم العلمية بمصر) ص ٦، ٧.

٤٤ – راجع : ترزي، فؤاد، الاشتقاق، ص ٤٥، ١٥، ١٦،– بتصرف –. وقارن بـ ابن دريد (– ٣٢١ هـ)، الاشتقاق، تـ عبد السلام محمد هارون (القاهرة : الخانجي) (مقدمة المحقق) ص ٢٦ وما بعدها. كما راجع: ص ٧١ وما بعدها من رسالتنا للدكتوراه.

٤٥ – أمين، عبدالله، الاشتقاق (المقدمة)، ص «ج» – بتصرف يسير – وانظر ما بعدها من صفحات: تجد مزيداً من التفصيل.

٤٦ – عَدَّ الاشتقاق في اللغة العربية علماً مستقلاً منذ القرن السابع الهجري: حيث تكلم عنه باعتداده علماً مستقلاً العلاّمة السكاكي (– ٦٢٦ هـ) في «مفتاح العلوم، ص ٣»، وكذلك عدّه حاجي خليفة (– ١٠٦٧ هـ) في «كشف الظنون، ١٠:١٤»، نقلاً عن مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده (– ٩٦٨ هـ)، وكذلك ذكره التهانوي (بعد ١١٥٨ هـ) نقلاً عن شرح المفتاح «كشّاف اصطلاحات الفنون، ١:١٨»، والشيخ حمزة فتح الله في «المواهب الفتحيّة، ص ١٨»، والعلامة عبدالله أمين في مقدمة كتابه «الاشتقاق». انظر: جبل، محمد حسن حسن، نقد الاستغراب في الدراسات اللغوية، مجلة جامعة الأزهر، ذي القعدة ١٤١٢ هـ = مايو ١٩٩٢ م، ١:٣٨.

٤٧ – راجع ص ٣١، ٣٢ من رسالتنا للدكتوراه: تجد تفصيلاً.

٤٨ – الأصمعي، اشتقاق الأسماء، تـ رمضان عبد التواب وصلاح الدين الهادي (القاهرة : مكتبة الخانجي، ١٤٠٠ هـ) ص ٤٦ – ٥٢ بتصرف. وانظر : السيوطي، المزهر، ١:٣٥١. وأبو سكين، عبد الحميد، الاشتقاق وأثره في النمو اللغوي (١٣٩٩) ص ٥ –٦.

الخفاء والتجلي في لامية

عبدة بن الطبيب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدكتور
علي كمال الدين الفهادي
الموصل

عبدة بن الطبيب شاعر مخضرم عاش أكثر حياته في الجاهلية، وأسلم فيمن أسلم من قومه من تميم سنة تسع من الهجرة في أكبر الظن[1] وحسن إسلامه، وقد شهد وقعة بابل سنة ثلاث عشرة من الهجرة[2] وشارك مع النعمان بن مقرّن في حرب الفرس بالمدائن سنة ١٥ - ١٦ هجرية. وشهد مع المثنى بن حارثة قتال هرمز[3]. وكان ممن انتدبهم سعد بن أبي وقاص لبثّ الحميّة والحماسة في نفوس المسلمين بقوله: «وأنتم شعراء العرب وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم فسيروا في الناس فذكروهم وحرضوهم على القتال»[4]. وبعد فتح المدائن «ارتحل سعد بن أبي وقاص من المدائن حتى عسكر بالكوفة سنة سبع عشرة، وكان بين وقعة المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران»[5]. ويبدو أن نفس الشاعر لم تطب بالمقام في الكوفة فرحل إلى باديته بعد أن أبت حليلته الرحيل معه إلى البادية وآثرت البقاء في الكوفة، فذكرها في مقدمة لاميته[6]. لقد شهد الشاعر حرب الفتوح مدة لا تقل عن ثلاث سنوات في أقل تقدير، وخاضها بنفسه فهو إذ ينظم الشعر عن الفتوح فإنما

ينظم تجربة شخصية عاشها وانفعل بها وشهد انتصاراتها وما فيها من جيوش وأسلحة وغارات ومعارك وخطط حربية ورحلات قطعات عسكرية من ميدان إلى ميدان. وشارك في أول معركة تخوضها العرب ضد جيش يعتمد الفيلة في هجومه، فكانت معارك نادرات حاسمات، شهد في أثنائها تساقط القتلى واستشهاد المجاهدين، وسمع أنين الجرحى، وتُليت عليه رسائل الخلافة، وسمع رسائل العدو مهدداً متوعداً، فكان ذلك كله موضوعاً لقصيدته اللامية التي تكاد تكون من أطول القصائد في فتوح صدر الإسلام، وهي أطول قصيدة في شعره، تجلَت فيها تجربته واضحة للعيان حيناً، واختفت وراء الأبيات حيناً آخر. ونودّ في بحثنا أن نكشف هذا الخفيّ ونجلوه للعيان ونظهر أبعاد التجربة الإسلامية التي عاشها الشاعر وأنكرها بعضهم عليه حين زعم أن حظ القصيدة من الإسلام ضئيل تمثل في ثلاثة أبيات منها[٧]. إن الصلة وثيقة العرى بين الإسلام والقصيدة، والتجربة تنبىء عن الترابط الوثيق بين الدين والشعر ترابطاً يتمثل في «اعتماد كل منهما اعتماداً كبيراً على الروح والإلهام والتلقي الحدسي»[٨]. وسوف نعتمد في دراسة اللامية وفك رموزها وتجلية ما خفي من معانيها تعبير الأحلام، إذ الشعر في صوره ورؤاه غالباً ما يكون حلماً من أحلام الشاعر مرره من خلال إرادته الشفافة في يقظاته الحالمة أو في أحلامه اليقظة. واعتماد تعبير الأحلام - على نحو ما ورد عند المعبرين المسلمين - في دراسة الشعر العربي القديم منهج مساعد نعتمده أول مرة في البحوث الأدبية والنقدية حسبما أعلم.

يتألف ظاهر القصيدة من ستة أجزاء تدور حول الفتح الإسلامي مؤلفة وحدة عضوية موضوعية محكمة، والأجزاء الستة هي:

- المقدمة الغزلية، الأبيات ذات الأرقام ١ - ٨
- وصف الناقة، الأبيات ذات الأرقام ٩ - ٢٣
- وصف ثور الوحش والكلاب والصائد، الأبيات ذات الأرقام ٢٤ - ٤٤
- رحلة الجيش إلى الجهاد وقيادة الشاعر لقومه، الأبيات ذات الأرقام ٤٥ - ٥٦
- رحلة الصيد، الأبيات ذات الأرقام ٥٧ - ٦٥
- وصف مجلس الخمر، الأبيات ذات الأرقام ٦٦ - ٨١

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجزء الأول:

المقدمة الغزلية

قال عبدة بن الطبيب[٩]:

هل حبل خولة بعد الهجر موصولُ
أم أنت عنها بعيد الدار مشغول

حلّت خويلة في دار مجاورةً
أهلَ المدائن فيها الديك والفيل

يقارعون رؤوس العجم ضاحيةً
منهم فوارس لا عزلٌ ولا ميل[١٠]

فخامر القلبَ من ترجيع ذكرتها
رَسٌّ لطيفٌ ورهن منكَ مكبول[١١]

رسٌّ كـــرس أخـــي الحمّـــى إذا غبرتْ
يـــومـاً تـأوَّبـه مـنـهـا عـقـابـيـل[١٢]

ولـلأحـبــة أيـــامٌ تَـــذَكُّـــرُهــا
ولـلـنّـوى قـبـل يـوم الـبين تـأويـل[١٣]

إنّ الـتـي ضـربـت بـيـتـاً مـهـاجـرةً
بـكـوفـة الجـنـد غـالـت وُدَّهـا غـولُ[١٤]

فـعـدّ عـنـهـا ولا تشـغـلك عـن عـمـلٍ
إن الـصـبـابـة بـعـد الشـيـب تضـلـيـلٌ

يفتتح عبدة بن الطبيب لامية الفتح باستفهام يتمنى فيه وصال خولة (زوجته) بعد هجرها، فقد أبت العودة معه إلى البادية، ويعادل هذا السؤال بانشغاله عنها وبعد داره منها، فهي في «الكوفة» قد أقامت بها. وهذا الانشغال ليس جديداً على الشاعر؛ فقد انشغل من قبل عنها في الجهاد وخوض غمار المعارك في مدن فارس التي فتحها المسلمون وحلّت بها (خويلة) بجوار أهل المدائن وما فيها من ديك وفيل، والديك والفيل يدلان في القصيدة على بيئة العجم وأمصارهم. وربما اختار الشاعر الديك ليذكر بهوان الفرس وبرسالة ملكهم «هرمز جاذويه» التي كتبها إلى المثنى بن حارثة الشيباني ومنها: «إني قد بعثت إليك من وخش[١٥] أهل فارس، إنما هم رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلك إلاّ بهم»[١٦]، فأجابه المثنى: «... الحمد لله الذي ردّ كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير»[١٧]. وكان اختياره الفيل بوصفه سلاحاً هجومياً أرهب المسلمين أول الأمر حتى إذا احتالوا لقتاله قلبوه سلاحاً على عدوهم واقترن ذكره بالعدوان على العرب ومقدساتهم قبل الإسلام[١٨]. وتنساب ذكريات الشاعر فتعود به إلى أيام الجهاد ومعارك الفتح ومقارعة رؤساء الأعاجم وملوكها[١٩] «يقارعون رؤوس العجم ضاحيةً» واختار الشاعر الضحى موعداً وزمناً لقتالهم استمداداً لنصر الله على الفرس الذين أمِنوا مكر الله، قال سبحانه: «أوَ أمِنَ أهل القرى أنْ يأتِيَهُم بأسُنا ضحىً وهم يلعبون»[٢٠]. واختلطت الذكريات في قلبه، ذكريات الحب ولواعج الشوق لخولة وذكريات الحرب والخوف وحمّى النصر ونشوته، فأحس بذلك إحساساً خفيّاً متتابعاً بين آونةٍ وأخرى محدثاً في نفسه قشعريرة الحمّى، ثم خاطب نفسه يائساً من وصال خولة الذي اغتالته الكوفة[٢١] واغتالت المودة من قلبها، فطلب منها أن تكف عن الصبابة وذكرياتها بعد أن شاب رأسه، فالصبابة في موقفه هذا وسنه ضلال، وما عليه إلا أن ينشغل عنها بالحديث عن الناقة التي تحمله إلى أرض الجهاد والفتح. ويحسن الشاعر التخلص تخلصاً ظاهراً من الغزل إلى وصف الناقة بقوله: «فعدّ عنها»، وهو تخلص رآه الحاتمي حسناً عند الشعراء القدماء، وعابه على العباسيين[٢٢].

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجزء الثاني:

وصف الناقة

وقال فيه:

بجسرةٍ كعَلاةِ القين دَوْسَرةٍ
فيها على الأين إرقالٌ وتبغيلُ(٢٣)

عَنْس تشير بقِنْوانٍ إذا زُجِرتْ
من خصبةٍ بقيت فيها شعاليلُ(٢٤)

قرواءَ مقذوفةٍ بالنَّحض يشْعَفُها
فرطُ المِراح إذا كلَّ المراسيلُ(٢٥)

وما يزال لها شأوٌ يوقِّرُهُ
مُحرَّفٌ من سُيورِ الغَرْفِ مجدولُ(٢٦)

إذا تجاهدَ سيرُ القوم في شَرَكٍ
كأنّه شَطَبٌ بالسَّرْوِ مرمولُ(٢٧)

نَهجٍ ترى حولَهُ بيض القطا قُبَصاً
كأنه بالأفاحيص الحواجيلُ(٢٨)

حَواجِلٌ مُلِئَتْ زيتاً مجرَّدةً
ليست عليهنَّ من خوصٍ سواجيلُ(٢٩)

وقلَّ ما في أساقي القوم فانجرُدوا
وفي الأداوَى بقيّاتٌ صلاصيلُ(٣٠)

والعيسُ تُدْلَكُ دلكاً عن ذخائرها
يُنحزْنَ من بين محجونٍ ومركُولِ(٣١)

ومزجياتٍ بأكوارٍ مُحمَّلَةٍ
شوارُهُنَّ خلالَ القوم محمولُ(٣٢)

تهدي الرِّكابَ سَلُوفٌ غيرُ غافلةٍ
إذا توقَّدَت الحِزَّان والميلُ(٣٣)

رعشاءُ تنهضُ بالذِّفْرى مُواكِبَةٌ
في مِرْفَقيها عن الدَّفَّيْنِ تفتيلُ(٣٤)

عَيْهَمةٌ ينتحي في الأرض مَنْسِمُها
كما انْتَحَى في أديمِ الصِّرْفِ إزميلُ(٣٥)

تَخدِي به قُدُماً طَوراً وتَرجِعُهُ
فحدُّهُ من وِلافِ القبضِ مفلولُ(٣٦)

ترى الحصى مُشْفتَرّاً عن مناسمها
كما تجلجلَ بالوَغْلِ الغَرابيلُ(٣٧)

يصف الشاعر في الجزء الثاني من لاميته ناقته التي رحل عليها إلى أرض الجهاد. وفي هذا الوصف يخلع عليها كل صفات القوة فهي «جسرة، ودوسرة، وعنس، وعيهمةٌ» وصفاة السرعة والنشاط «فيها على الأين إرقالٌ وتبغيل، ويشعفها فرط المراح، ورعشاء، وتخدي به قدماً، وترى الحصى مشفتراً عن مناسمها».

ومن خلال إسباغه صفات القوة والسرعة على ناقته يؤكد عتقها وكرمها ويقدمها على سائر النياق في القافلة فهي ناقة تفوق الرِّكاب قوة وسرعة وعتقاً. وهي مرحة نشيطة عندما تكل الأخريات. وأحاط طريقها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بعناصر الخصب والحياة التي تبشر بمستقبل رخي ونصر آتٍ، نلمس ذلك من إشاعته بيض القطا على جانبي الطريق، وهذا البيض له تفرده، فهو أشبه بقوارير الزيت، والزيت من وسائل الإنارة حسبما نعلم، فالبيض بشرى بالحياة الجديدة التي يملؤها النور والهداية، والناقة تمتلك من خصائص القيادة والبطولة، إذ عندما يشرف ماء القافلة على النضوب ولا يبقى منه غير صبابة تنذر بالموت ظمأً وتتعب العيس من طول الرحلة فيضطر سائقها إلى القسوة عليها فيضربها بالعصا ويركلها برجله يستحثها دون جدوى فيحمل رحلها على ما سواها من الإبل، وفي هذا السير العصيب العسير نرى ناقة الشاعر قائدة «تهدي الركاب سلوف غير غافلة» فهي تخبر الطريق ولا تغفل عنه وتقود القافلة (الركاب) إلى الطريق القويم على الرغم من شدة الحرّ وتوقّد الظهيرة «إذا توقدت الحزان والميل». إن الناقة في هذا الجزء تمثل المعادل الموضوعي للشاعر المجاهد، وهي رمز لذاته. فهو قائد من قوّاد هذا الجيش المجاهد، ووجه من وجوه قومه في هذه الحرب. وقد انتدبه سعد بن أبي وقاص لإذكاء روح الجهاد في المسلمين. إن الناقة لا تهدي الركاب، بل يهديهم راكبها «وغالباً ما تبدو الناقة قريبة من الشاعر على نحو يسمح لها بمقاسمته معاناة الرحلة وهمومها ومخاوفها إلى درجة التوحّد الذي يفضي إلى صيرورة الناقة رمزاً لذات الشاعر في همومها ومخاوفها وتطلعاتها، الأمر الذي يعني أن تحولات الناقة إلى ثور الوحش أو بقر الوحش وحمار الوحش لا ينفصل مغزاها بحال من الأحوال عن معنى الصلة بين الشاعر والناقة»[٣٨].

لقد كان الشاعر مجاهداً من مجاهدي الفتح الإسلامي وعلى صلة بالمدد الذي أرسله أبو بكر الصديق بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنهما من الشام إلى العراق، وقد لقي هذا المدد مخاطر، وجابه مصاعب جمة حتى وصل إلى العراق. ومن هذه المصاعب وُشوك ماء الجيش على النفاد، مما جعلهم يتوقعون الموت عطشاً ويشربون أي ماء يصير في متناول أيديهم. والأبيات ذات الأرقام ١٦ و١٧ و١٨ تبين شيئاً من بعض ذلك، فعندما دعا خالد بن الوليد الأدلة قبيل رحيله إلى العراق بجيشه قال لهم: كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم! فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين، فكلهم قال: لا نعرف إلا طريقاً لا يحمل الجيوش، يأخذه الفذ الراكب... ثم أشار عليه بهذا الطريق رافع بن عميرة على تهيّب وقال له: اجعل كوكب الصبح على حاجبك الأيمن ثم أُمَّهُ تفضِ إلى سُوَى، فكان أدَلّهم[٣٩]. وقال رافع بن عميرة الطائي مخاطباً جيش خالد: استكثروا من الماء، من استطاع منكم أن يصر أذن ناقته على ماء فليفعل فإنها المهالك إلا ما دفع الله... ثم ساروا بعد أن أوشك الماء على النفاد. قال خالد الرافع: ويحك ما عندك؟ وكان أرمد، قال: أدركت الرِّيَّ إن شاء الله، فلما دنا من العلمين قال للناس: انظروا هل ترون شجيرة عوسج كقعدة الرجل؟ قالوا: ما نراها: قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! هلكتم والله إذاً وهلكت، لا أبالكم! انظروا، فطلبوها

فوجدوها قد قطعت وبقيت منها بقية، فلما رآها المسلمون كبَّروا وكبَّر رافع وحفروا أصولها فاستخرجوا عيناً، وروي منها الجيش[٤٠]. إن رحلة الشاعر على ناقته توحي بكثير من أحداث رحلة هذا الجيش الإسلامي الفاتح، فوصف الناقة بما يختفي وراءه من دلالات وإيماءات وصف إسلامي لا شأن له بوصف الناقة قبل الإسلام، وإن كان ظاهر اللغة واحداً، إذ إن الناقة وأسماءها وأوصافها وأدوات ركوبها واحدة في العصرين. إن تطور هذه الرحلة إلى الجزء الثالث الذي يعرض فيه الشاعر حكاية الثور الوحشي مع الصياد وكلابه يكاد يكون صورة للقتال الدائر بين المسلمين والفرس.

الجزء الثالث:

وصف ثور الوحش والكلاب والصياد

عمد الشاعر إلى إبراز مظاهر القوة البدنية والنشاط والسرعة والعتق في وصفه لناقته ورحلتها في الجزء الثاني من لامية الفتح، ثم شبهها بالثور الوحشي عند انتقاله إلى حكاية الثور والصياد:

كأنها يوم وِرْدِ القوم خامسةً
مسافرٌ أشعبُ الروقين مكحول[٤١]

مجتابُ نصعٍ جديدٍ فوق نُقبتِه
وللقوائم من خالٍ سراويل[٤٢]

مُسَفَّعُ الوجه في أرساغه خَدَمٌ
وفوق ذاك إلى الكعبين تحجيل[٤٣]

باكَرَهُ قانصٌ يسعى بأكلبه
كأنه من صِلاءِ الشمس مَمْلولُ[٤٤]

يأوي إلى سلفعٍ شعثاءَ عاريةٍ
في حِجْرِها تولبٌ كالقرد مهزول[٤٥]

يُشلي ضواريَ أشباهاً مُجَوَّعَةً
فليس منها إذا أُمكِنَّ تهليل[٤٦]

يتبعْنَ أشعثَ كالسِّرحان منصلتاً
له عليهنَّ قِيْدَ الرُّمح تمهيلُ[٤٧]

فضمهنَّ قليلاً ثم هاج بها
سُفعٌ بآذانها شينٌ وتنكيل[٤٨]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فاستثبت الروعُ في إنسانِ صادقةٍ
لم تجرِ من رَمَدٍ فيها الملاميل[٤٩]

فانصاع وانْصَعْنَ يهفو كُلُّها سَدِكٌ
كأنهن من الضُمْرِ المزاجيل[٥٠]

فاهتزَّ ينفُضُ مَدْرِيَّيْن قد عَتُقا
مُخاوِضٌ غمراتِ الموتِ مخذول[٥١]

شروى شَبيهَيْن مكروباً كُعوبُهُما
في الجنبتين وفي الأطراف تأسيل[٥٢]

كلاهما يبتغي نَهكَ القتال به
إنّ السلاح غداة الرَّوع محمول[٥٣]

يُخالِسُ الطَّعنَ إيشاغاً على دَهَشٍ
بسَلْهَبٍ سِنخُه في الشأن ممطول[٥٤]

حتى إذا مَضَّ طعناً في جواشِنِها
وَرَوْقُهُ من دمِ الأجواف معلول[٥٥]

وَلَّى وَصُرِّعن في حيثُ التَبَسْن به
مُضرَّجاتٌ بأجراحٍ ومقتول[٥٦]

كأنّه بعدما جَدَّ النجاءُ به
سيفٌ جَلا مَتْنَهُ الأصْناعُ مسلول[٥٧]

مُسْتقبِلَ الرِّيح يهفُو وهو مبتركٌ
لسانُه عن شمال الشدق معدول[٥٨]

يَخفي التُرابَ بأظلاف ثمانيةٍ
في أربعٍ مَسُّهُنَّ الأرض تحليل[٥٩]

مُرَدَّفاتٍ على أطرافها زَمَعٌ
كأنها بالعُجايات الثآليل[٦٠]

له جنابانِ من نقعٍ يُثوِّرُهُ
فَفَرجُهُ من حصى المَعزاءِ مكلُول[٦١]

في الجزء الثالث مبيناً بياض جلده وسواد عينيه وانشعاب قرنيه وقرون الثور في تعبير الأحلام عزّة لمن رآها[٦٢]. وثمة صلة وثيقة بين الشعر والأحلام خاصة عندما يكون تعبيراً عن ذكريات يستحضرها الشاعر. لقد وصف عبدة بن الطبيب ثور الوحش وصفاً يقربه من أسلوب القصة، ولكننا لا نزعم أنه

شاعر قصصي بالمفهوم الحديث للقصة على الرغم من أنه صوّر شخصيته وشخصية الصياد وكلابه تصويرا سريعا لم يتعمقه كثيراً. وسرد لنا الأحداث من خلال هذه الشخصيات، وصبّ اهتمامه على تصوير شخصية (الثور الوحشي) البطل ووضعها إزاء شخصية بطلة أخرى متمثلة بكلاب الصائد. وأدار معركة حامية بينهما، وليست هذه المعركة معركة بين ثور وكلاب في حقيقة الأمر، إنما هي معركة بين الشاعر المجاهد أو جيش المسلمين ممثلاً بالثور الوحشي وجيش الفرس ممثلاً بالصائد وكلابه، إذ ثمة دلالات كثيرة خفية أوحى الشاعر بها. ويمكن أن نتلمسها بتؤدة وعناية من خلال ربط الأحداث والصور والرجوع إلى القرآن الكريم وتعبير الأحلام لنكشف ما أخفاه ونجلوه للعيان.

لقد تحدث الشاعر في الجزء الأول من القصيدة عن الرحلة إلى أرض الجهاد حديثاً موحياً كشفنا عن خفيّه معتمدين روايات التاريخ ومفردات دالة على البيئة، وكأن رحلة الناقة قد وصلت إلى أرض الجهاد فأخذ الشاعر يعرض أبطالها فحشد عناصر القوة والسرعة والشجاعة والبياض لثور الوحش. وللبياض دلالات إيمانية في القرآن الكريم. فبياض الوجه كناية عن الإيمان ومرضاة الله «وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله»[٦٣]. وقال سبحانه: «يوم تبيض وجوه وتسود وجوه»[٦٤]. وبياض اليد كناية عن الصحة وسلامة العمل «ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين»[٦٥]. وأفاض في وصف ثور

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الوحش وتعمق قليلاً في وصف نفسيته، ونجد أن الثور يخاف الكلاب بادىء ذي بدء (ب٣٣) ولكنه أيقن أن لا بد من القتال وخوض غمرات الموت (ب ٣٤).

إن ثور الوحش تردد قبل خوض القتال وتردد المسلمون حين انتدبهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحرب الفرس كذلك «كل يوم يندبهم فلا ينتدب أحد إلى فارس، وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم، وأثقلها عليهم، ...قالوا فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس إلى العراق، فكان أول منتدب أبو عبيدة بن مسعود...»[٦٦]. ومن هنا نفهم خشية الثور من الكلاب أول الأمر، فالحرب بين الفرس والعرب لم تكن هينة أبداً، ولم تكن معركة الثور مع كلاب الصائد هيِّنة هي الأخرى، فالكلاب قوية مدربة ضارية يشبه بعضها بعضاً في الشراسة والقوة والتجويع (ب ٢٩) وهي كلاب سود «سفع» (ب ٣١) وقد ورد السواد في القرآن الكريم غير مرة دلالة على الكفر والضلال والجهل، فسواد الوجه كناية عن سوء المنقلب يوم القيامة بسبب الكفر في الدنيا «فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم»[٦٧]، «يوم تبيض وجوهٌ وتسوَّد وجوه»[٦٨] وهو كناية عن الشعور بالخزي «وإذا بُشر أحدهم بالأنثى ظلَّ وجهُهُ مسوداً وهو كظيم»[٦٩]. والسواد في القرآن الكريم ضد البياض، والبياض لون الثور والكلاب قوية مدربة سود وضرب الله للكافر مثلاً بالكلب «فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث»[٧٠]. والكلب في المنام «رجل سفيه يجترىء على المعاصي»[٧١] وهو «عدوٌ ضعيف ورجل شحيح»[٧٢]. وربما دلّ الكلب «على الكفر والإياس من رحمة الله تعالى والتكذيب»[٧٣].

وفي رسالة عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما: «واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعُدّتهم فاضلة، وبأسهم شديد... ولا يخدعنكم، فإنهم خَدَعةٌ مَكَرة...»[٧٤]. وفي هذا ما يدل على قوة الفرس ويفسر قوة الكلاب، ووصف الشعراء الفتوح الفرس ونعتوهم بالكلاب غير مرة، يقول المخبل السعدي في وصف المسلمين الفاتحين[٧٥]:

يذودون جُندَ الهُرمُزان كأنما
يذودون أَوْرادَ الكِلاب تلوبُ

إن ثور الوحش يفهم رسالة عمر بن الخطاب إذ يصف الفرس «فهم خدعة مكرة» ولذلك يقاتل الكلاب. مخالسة وعلى حذر (ب ٣٧) وجيش الكلاب هذا يتلقى أوامره من صياد يأوي إلى سلفع، إلى امرأة بذيئة جريئة، تلك هي أمّة الفرس في نظر العرب المسلمين، وفي حجرها حمار يشبه القرد «ب ٢٨» وللقرد ذكر في القرآن الكريم، فقد مسخ الله أناساً من بني إسرائيل قردة لأنهم اعتدوا على حدود الله وتجرّأوا عليه: «ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردةَ خاسئين»[٧٦]. وقال بحق من نقم على المؤمنين إيمانهم بالله «قل هل أنبئكم بشرٍ من ذلك مثوبةً عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير»[٧٧]

وأشهر ما وصف به القرد في تعبير الأحلام، المكر والخديعة، فهو في المنام رجلٌ «فيه كل عيب، ... ورجل يأتي الكبائر.. رجلٌ مكّارٌ خدّاعٌ ساحر... عدوٌ مغلوب... رجلٌ زالت نعمته لكبيرةٍ ارتكبها»[٧٨]. وقال رستم قائد جيش الفرس لأصحابه عندما عزم على القتال في القادسية: «قد خشيت أن تكون هذه سنة القرود»[٧٩] متذمراً من أوامر الملك، أما التولب وهو ولد الحمار فقد أورده القرآن الكريم كناية عن عدم فهم الرسالة والصدّ عنها وترك الإيمان بها، قال سبحانه: «مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوارة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً»[٨٠] وقال: «كأنهم حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ فرَّتْ من قسورة»[٨١] ويقال للرجل إذا كان يستبد برأيه جُحَيْشُ وحده[٨٢].

وصف الشاعر الثور بثلاثة عشر بيتاً، ووصف الكلاب والصياد بخمسة أبيات وأشركهما بالوصف في ثلاثة أبيات وكأنه يصوغ لنا بياناً عسكرياً عن المعركة. فقد أفاض في الحديث عن جيشه (ثور الوحش) وقوته ورشاقته وسرعته وخبرته بالمخالسة بالطعن ولباقته بتصريف سلاحه في مواطن القتل، على حين أوجز الحديث عن العدو وسلاحه وأشار إلى قتلاه وجرحاه. وقد صرعهم الثور في ساحة الجهاد، ولم يذكر شيئاً عن خسائر الثور، وأوحى إلينا ببراعة وخفاء نتائج المعركة والحرب بين المسلمين والفرس من خلال حكاية ثور الوحش وكلاب الصائد، ولقد استثمر الشعراء هذه الحكاية من قبل ورسموا شخوصها ولكنهم لم يعتمدوها هذا الاعتماد لمصلحة الرؤية الإسلامية، ولم أجد فيما أعلم باحثاً أوّل حكاية من هذه الحكايات تأويلاً إسلامياً على الرغم من ورودها في شعر صدر الإسلام موحية بذلك، وقد كان الشعراء قبل الإسلام يستثمرون هذه الحكاية، «ولم تكن عناية الشعراء بشخوص الحكاية واحدة، فشخصية الثور الوحشي - أو البطل - هي وحدها التي حظيت - أو استأثرت - باهتمامهم فرسموها في أناة، وتكلّفوا في أمرها، أما الشخصية الثانية - الكلاب - فلم يشقوا في أمرها هذا الشقاء، ولم يتكلفوا لها هذا التكلف، ولكنهم لم ينسوها أو يغفلوا عنها غفلةً بعيدة، والشخصية الثالثة - الصياد - هي أنأى هذه الشخصيات عن اهتمامهم وأسوؤها حظاً من عنايتهم»[٨٣]. إن تأكيد الصلة بين الشاعر والناقة أو ثور الوحش ليس تعسفاً في القول بل إننا رأينا كيف كانت الصلة وثيقة بين ذات الشاعر - فرداً أو جماعة - وثور الوحش. إن الشاعر يتحدث عن ذكريات حرب. وفي الحرب تناقض بين الحياة والموت، وقد أدرك الشاعر قبل الإسلام جمال اعتماد هذه الحكاية للتعبير عن هذا التناقض. فمن الملامح الأساسية في وصف الثور عند شعراء ما قبل الإسلام مقابلة الشعراء في «وصف الثور بين صورتين متناقضتين: إرادة الحياة، وإرادة الموت، فالثور يريد الحياة، والكلاب تريد له الموت»[٨٤]. إن الترابط وثيق بين الجزء الثاني والجزء الثالث وما يختفي وراءهما من إيماءات ورموز. فالناقة كانت بديلاً للشاعر وثور الوحش بديله في الجزء الثالث، وكان الشاعر بارعاً في الإيحاء بعدم توازن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجيشين المتصارعين من خلال تعدد الكلاب الذي أوحى بكثرة جيش الفرس إزاء ثور الوحش الذي أوحى بقلة عدد المسلمين. وعلى الرغم من شراسة الكلاب وكثرتها فقد انتصر عليها ثور الوحش، فكان عَبْدَةُ بارعاً في استثمار هذه الحكاية التي أشار الجاحظ إلى استثمار الشعراء لها من قبل فقال: «ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثيَةً أو موعظة، أن تكون الكلاب التي تقتل بقر الوحش. وإذا كان الشعر مديحاً، وقال كأن ناقتي بقرة من صفتها كذا، أن تكون الكلابُ هي المقتولة، ليس على أن ذلك حكايةٌ عن قصة بعينها، ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها، وأما في أكثر ذلك فإنها تكون هي المصابة، والكلاب هي السالمة والظافرة وصاحبها الغانم»[٨٥]. لقد جعل الشاعر الثور يقتل الكلاب فأوحى بانتصار الجيش الإسلامي الراحل إلى أرض الجهاد.

الجزء الرابع :

قيادة الشاعر لقومه في رحلة الجهاد

وَمَنْهَلٍ آجِنٍ في جَمِّهِ بَعَرٌ
مِمّا تَسُوقُ إليهِ الرِّيحُ مَجْلُولُ[٨٦]

كأنَّهُ في دِلاءِ القَومِ إذْ نَهَزُوا
حَمٌّ على وَدَكٍ في القِدْرِ مجمولُ[٨٧]

أوردتُهُ القومَ قد رانَ النُّعاسُ بِهِم
فقلتُ إذْ نهلوا من جَمِّهِ: قِيلوا[٨٨]

حَدَّ الظهيرةِ حتّى ترحلوا أُصُلاً
إنَّ السِّقاءَ لهُ رَمٌّ وتَبْليلُ[٨٩]

لمّا وردنا رفعنا ظِلَّ أرديةٍ
وفارَ باللّحمِ للقومِ المراجيلُ[٩٠]

ورداً وأشقرَ لم يُنْهِئْهُ طابِخُهُ
ما غَيَّرَ الغَلْيُ منه فهو مأكولُ[٩١]

ثُمَّتَ قُمنا إلى جُرْدٍ مُسَوَّمَةٍ
أعرافُهُنَّ لأيدينا مناديلُ[٩٢]

ثم ارتحلنا على عِيسٍ مُخَدَّمَةٍ
يُزجي رواكِعَها مَرْنٌ وتَنعيلُ[٩٣]

يَدْلَحْنَ بالماءِ في وُفْرٍ مُخَرَّبَةٍ
منها حقائبُ رُكْبانٍ ومعدولُ[٩٤]

نرجو فواضلَ ربٍّ سيبُهُ حسنٌ
وكلُّ خيرٍ لديهِ فهو مقبولُ[٩٥]

ربٌّ حبانا بأموالٍ مُخَوَّلَةٍ
وكلُّ شيءٍ حَباهُ اللهُ تخويلُ[٩٦]

والمرءُ ساعٍ لأمرٍ ليس يدركُهُ
والعيشُ شُحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ

تحدث الشاعر عن رحلته حديثاً خفيّاً أوحى إلينا من خلاله نوع الرحلة وطبيعتها والراحلين فيها ونتائجها في الجزء الثالث. ويخرج في الجزء الرابع من الخفاء إلى العراء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فيكشف بجلاء عن رحلة الجيش وقيادته لقومه فيه وما واجهه من أخطار الظمأ والإشراف على الهلاك. ويربط هذا الجزء بالجزء الثاني الذي ذكر فيه قلة الماء وخطورة الطريق (ب ١٦ و١٧ و١٨). وكشفنا صلة تلك الأبيات بالمدد الذي قاده خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى العراق. إن قلة الماء تلك اضطرته في الجزء الثالث أن يورد قومه منهلاً آجناً تجمع فيه البعر والقذى (ب ٤٥ – ٤٧). ولا يضطر المرء إلى ورود منهل بهذا الوصف إلا مع نضوب الماء وشحته والخوف من الهلاك ظمأً، ولا يركب المرء طريقاً خطيراً مخوفاً إلا لهدف عظيم جليل، ولا يركب هذا الطريق إلا عالم به قادر على خطره متغلب على خوفه. إن الراحلين في تعب وإرهاق قد تمكن النعاس منهم لمواصلتهم السفر، ولم تعد لهم قدرة على مواصلته، ولذلك فقد وجههم الشاعر للقيلولة في الظهيرة ريثما يتزودوا بالماء (ب ٤٧) ولكنها قيلولة فحسب، راحة قصيرة لتناول غداء سريع، تستأنف الرحلة بعده عند الأصيل، لم يبْنِ الركبُ الخيام، بل استظلوا بأرديتهم، وأوقدوا النيران تحت اللحم، لكنهم لحرصهم على الوصول إلى أرض المعركة في وقت قصير لم يمهلوه لينضج، ولم يأكلوا إلا ما غيره الغلي. إن المجاهد لم يعد يُلقي بالاً لراحته وطعامه وشرابه وظله. لقد أنهى القوم قيلولتهم وقاموا إلى خيل أصيلة عريقة فمسحوا أيديهم بأعرافها، وسار الركب ثانية على إبل أنهكها السفر وطول المسير حتى حفيت، فألبسوها النعال وهي لا تكاد تقوى على المسير لما حمل عليها من الماء والحقائب. وكل ذلك هيّن، فالرحلة تتجه بعملها وجهادها رجاء والتماساً لفضل الله. وهنا (ب ٥٤) يحسن الشاعر الانتقال ببراعة من وصف الإبل إلى تبيان هدف الرحلة. فالراحلون يلتمسون فواضل الله عز وجل من نصر على عدوهم، وكسب المغنم وثواب الآخرة (ب ٥٤)، فالله سبحانه قد خولهم التصرف في أموال كسرى والفرس بعد أن كفر الفرس بالله وأبوا الدخول في دينه، وكل ما يملكه الإنسان في هذه الأرض فرداً أو جماعةً ملك لله سبحانه خوّله التصرف فيه إلى حين (ب ٥٥) قال تعالى: «قُلِ اللهمّ مالك الملك تؤتي الملك من تشاءُ وتنزعُ الملك ممن تشاء وتُعِزُّ من تشاء وتذلُ من تشاء بيدكَ الخير إنك على كل شيء قدير»[٩٧]. لقد منح الله الفرس أموالاً طائلة وملكاً عظيماً ثم نزعه منهم وأعطاه للمسلمين. إن البيت السادس والخمسين يكاد يقسم القصيدة إلى قسمين:

والمرءُ ساعٍ لأمرٍ ليس يدركه
والعيشُ شحٌ وإشفاقٌ وتأميل

إن الإنسان يبحث عن الخلود ولكنه لا يدركه في هذه الدنيا، وعدم إدراكه حقيقة وعاها البشر، والناس لا يقنعون بما قُسِمَ لهم فيها، وهم يريدون المزيد دوماً، فقد خلق الإنسان من طمع، والمرء حريص على ما جمعه في دنياه، يشفق عليه ويخشى زواله، يعقد الآمال على المستقبل. إن الشاعر يخفي وراء هذا البيت موعظة عظيمة مفادها: بما أن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذه حال الدنيا فعلينا أن نبحث عن خلود الآخرة ونعيمها، ومن هنا يتحدث الشاعر في الجزء الخامس عن رحلة الصيد، ويريد أن يُوَفِّي نفسه حقها من المتعة في الدنيا بعد أن أدَّى واجب الجهاد ابتغاء الآخرة.

الجزء الخامس:

رحلة الصيد

وعازبٍ جادَهُ الوسميُّ في صَفَرٍ
تسري الذِّهابُ عليه فهو موبول[٩٨]

ولم تَسَمَّعْ به صوتاً فيفزعَها
أوابِدُ الرُّبْدِ والعِيْنُ المطافيل[٩٩]

كأنَّ أطفالَ خِيْطانِ النَّعام به
بَهْمٌ مُخالِطُهُ الحَفَّانُ والحُول[١٠٠]

أَفزعتُ منه وحوشاً وهي ساكِنةٌ
كأنَّها نَعَمٌ في الصبح مشلول[١٠١]

بساهِم الوجهِ كالسِّرْحانِ مُنصَلِتٍ
طِرْفٍ تكامَلَ فيه الحسنُ والطُّول[١٠٢]

خاظي الطريقة عُريانٍ قوائِمه
قد شفَّهُ من ركوب البردِ تذبيل[١٠٣]

كأنَّ قُرحتَهُ إذْ قام معتدلاً
شيبٌ يُلَوِّحُ بالحِناءِ مغسول[١٠٤]

إذا أبسَّ به في الألْفِ بَرَّزَهُ
عُوجٌ مُرَكَّبةٌ فيها براطيل[١٠٥]

يغلو بهنَّ ويَثْني وهو مقتدرٌ
في كفْتِهِنَّ إذا اسْتَرغَبْنَ تعجيل[١٠٦]

وصف الشاعر الطبيعة في الجزء الثاني عند وصف الناقة ورحلتها فجعل طريق الرحلة طويلاً مستوياً جافاً متوقد الحر تهلك الإبل فيه (ب ١٣ - ١٩) وعلى الرغم من قسوة الطريق فإنه يحمل بشرى الخير والخصب «بيض القطار» (ب ١٤) والنصر والهداية «حواجل مُلِئت زيتاً». ووصف الطبيعة في الجزء الثالث فرآها مناهل أجنة آسنة وأرضاً جرداء جافة شديدة الحر (ب ٤٥ - ٤٩) ولكنه احتمل قسوتها احتساباً لثواب الله الذي نصر المسلمين وخولهم ملك الفرس وأموالهم (ب ٥٥). ومن زهو النصر راح الشاعر يمرح ويروِّح عن نفسه على فرسه في أرض معشبة خضراء جاد عليها الغيث (ب ٥٧)، ترعى فيها النعام والبقر الوحشي وأطفالها في خفض وأمن (ب ٥٨) كان بيض القطا يحمل البشرى بالنصر لأنه يبشر بالخصب (والولادة) في الجزء الثاني. أما في هذا الجزء الخامس بعد الفتح فقد تحققت البشرى بالولادات الجديدة «أولاد الربد والنعم والعين والنعام» (ب ٥٨ و٥٩) فراح الشاعر يصيد من قطعان الوحوش على فرس أصيل كريم جميل متكامل الأوصاف زاهي المنظر سريع يغلب ألف فرس. «وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من

كلّ زوجٍ بهيج، ذلك بأن الله هو الحق وأنّه يحيي الموتى وأنّهُ على كل شيء قدير»[١٠٧].
لقد تغيرت الطبيعة بعد النصر، وحالت من الجفاف إلى الخضرة، وصار الجواد رشيقاً أنيقاً يتبختر في مشيه، على حين كانت الإبل قد حَفِيت ودَبِرَت وتحلّت، فطريق الجهاد صعب ومتعب، ولكن المرء يصبر عليه ابتغاء ثواب الله. وهذا الطريق يهيء للمرء المؤمن نشوة من النصر والزهو تشعره بالسعادة والتوافق مع الطبيعة (ب ٥٧ – ٦٥). لقد كان الزمن في الجزء الرابع ظُهراً وأصيلاً فصار بعد الفتح في رحلة الصيد صباحاً مشرقاً. ورأى الشاعر أن يريح نفسه من عناء الجهاد فذهب يحتفل على فرسه بالنصر الذي حققه المسلمون بطريقته الخاصة.

الجزء السادس:

مجلس الخمر

وقد غدوتُ وقَرنُ الشمس منفتقٌ
وَدُونَهُ من سواد الليلِ تجليل[١٠٨]

إذْ أشرفَ الديك يدعو بعض أُسْرتِهِ
لدى الصَّباح وهم قومٌ معازيلُ[١٠٩]

إلى التِّجَار فأعداني بلذَّتِهِ
رِخْوُ الإزارِ كصَدْرِ السَّيْفِ مشمول[١١٠]

خِرقٌ يَجِدُّ إذا ما الأمرُ جدَّ به
مخالطُ اللّهْوِ واللّذاتِ ضِلّيل[١١١]

حتى اتكأنا على فُرْشٍ يُزَيِّنُها
من جيِّدِ الرَّقمِ أزواجٌ تهاويل[١١٢]

فيها الدجاج وفيها الأُسد مُخدِرَةً
من كل شيءٍ يُرى فيها تماثيل[١١٣]

في كعبةٍ شادها بانٍ وزَيّنها
فيها ذُبالٌ يضيءُ الليلَ مَفْتول[١١٤]

لنا أَصيصٌ كجِذْمِ الحوض هَدَّمَهُ
وطءُ العِراكِ، لديه الزِّقُّ مغلول[١١٦]

والكوبُ أزهَرُ معصوبُ بقُلّتِهِ
فوق السِياع من الرَّيْحان إكليل[١١٦]

مُبَرَّدٌ بمزاج الماء بينهما
حُبٌّ كَجَوْزِ حِمار الوحش مبزولُ[١١٧]

والكوبُ مَلآنُ طافٍ فوقهُ زَبَدٌ
وطابقُ الكَبْش في السَّفُّودِ مخلول[١١٨]

يسعى به منصَفٌ عجلانُ مُنْتَطِقٌ
فوق الخُوان وفي الصَّاع التَّوابِيل[١١٩]

ثمّ اصطبحتُ كُميتاً قَرقَفاً أُنُفاً
من طيِّب الرَّاح، واللّذّاتُ تعليل[١٢٠]

صِرْفاً مِزاجاً، وأحياناً يعلّلُنا
شِعرٌ كمُذْهَبَةِ السَّمّانِ محمول[١٢١]

تُذري حواشيَهُ جيداءُ آنسةٌ
في صَوْتِها لِسَماع الشَّرب ترتيل[١٢٢]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تغدو علينا تُلَهِّينا ونُصفِدُها
تُلْقَى البُرُوْدُ عليها والسَّرابِيلُ[١٢٣]

أول ما يلفت النظر في هذا الجزء حديث الشاعر عن مجلس الخمر والشراب والغناء في قصيدة إسلامية كهذه، وقد لفت هذا الأمر من قبل نظر الدكتور شوقي ضيف فيها وفي قصيدة ثانية لربيعة بن مقروم الضبي، وفي همزية حسان بن ثابت في هجاء أبي سفيان فذهب إلى أن الأمر لا يعدو أن يكون خلطاً من الرواة بين جزأين قيل أحدهما قبل الإسلام وقيل الآخر فيه[١٢٤]، وتبعه في ذلك النعمان عبد المتعال القاضي فزعم أن أحد الرواة مزج الجزأين في قصيدة واحدة فصارت على النحو الذي نراها عليه[١٢٥]. وأشار الدكتور شكري فيصل إلى خلط مماثل نسبه إلى الرواة في قصيدة حسان بن ثابت الهمزية[١٢٦] وافقته عليه الدكتورة ابتسام مرهون الصفار[١٢٧]. ويجدر بنا أن نتساءل: أو كلما رأينا ذكراً للخمرة في قصيدة من شعر المخضرمين نكل الأمر إلى غلط الرواة وخلطهم شعر الشاعر بين عصرين؟ أم نتريث مع الدكتور عبدالقادر القط الذي يراجع هذا الرأي، فيشير إلى قصائد أخرى ورد ذكر الخمر فيها، ومنها واحدة لحسان بن ثابت وأخريان لكعب بن زهير. ويعلق بقوله: «ويبدو أن المجتمع الإسلامي لم يكن – كما نتصوره أحياناً – على مثل هذا التزمت نحو الشعر، وأن الناس كانوا يتسامحون مع الشعراء، ويغتفرون لهم ما يقولونه في الخمر وغيرها من موضوعات كالغزل على أنه تقليد فني لا ضير منه، ولا يدل بالضرورة على سلوك خلقي. ولعل ذلك مما تشير إليه الآية الكريمة: «ألم تر أنهم في كلّ وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون»[١٢٨]. وإلا فكيف نحاول أن نبرّىء حسان من وصف الخمر وقد انتهى إلى وصفها من خلال الحديث عن رضاب صاحبته، وهو حديث يتساوى في الحرمة مع الخمر!»[١٢٩].

إن حياة الشاعر المخضرم تختلف عن حياة الشاعر الذي ولد في الإسلام وتربّى عليه وقضى نحبه فيه، إذ للأول ذكريات من حياته السابقة اللاهية العابثة يوم لم تكن الخمرة حراماً، ولم يكن ورود الحانات والغدوّ إلى التجار عيباً أو حراماً، ما لم يكن مفاخرة وفخراً! فإذا تذكر الشاعر المخضرم بعض تلك الأيام والمجالس فلا إثم عليه، وإذا قال ما لم يفعل فليس ثمة حدٌّ يقام عليه، وإنه ليصعب القول في القصيدة موضوع البحث أن الجزء السادس غريب عنها أو لصيق بها وليس من عصرها. فالصلة وثيقة بين البيت السابع والستين منها، الذي يذكر الشاعر فيه «الديك وأسرته» والبيت الثاني الذي يذكر فيه «الديك» أيضاً. لقد كان الديك رمزاً للفرس في بداية القصيدة، فتعبير الديك لمن رآه في المنام «رجل أعجميٌّ أو مملوك»[١٣٠]. ويذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى قبيل استشهاده على يد فيروز أبي لؤلؤة رؤيا فقال: «رأيت كأنّ ديكاً نقرني نقرة أو نقرتين، وإني لا أراه إلا حضور أجلي»[١٣١]. وورد ذكر الديك في البيت الثاني من القصيدة مقروناً بالفيل «فيها الديك والفيل»، وتعبير الفيل في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الرؤيا «رجلٌ مُسَلَّطٌ عظيم وهو عجمي. فمن رأى في منامه أنه ركبه أو متصرّف فيه من غير الحرث فإنه يصيب سلطاناً أو غلبةً ويتمكن من سلطان أعجمي»[١٣٢]. وقال ابن سيرين: «ومن رأى أنه قتل فيلاً فإنه يؤوّل بقتل ملك على يديه أو بواسطته أو فتح حصار»[١٣٣]. وقال الكرماني: «ومن رأى أنه راكب على فيل وهو مطيع له فإنه يدل على متابعته ملكاً أعجمياً أو يقهر ملكاً أعجمياً»[١٣٤]. وأرجح أن اقتران الديك بالفيل في بداية القصيدة دليل على بأس الفرس وقوة شوكتهم وسلطانهم قبل أن يغلبهم المسلمون ويزيلوا دولتهم، فلما انتصر المسلمون عليهم وكسروا شوكتهم وأزالوا دولتهم انفصل اقتران الديك عن الفيل، فورد ذكر الديك في أواخر القصيدة مقروناً بأسرته، وهم «قوم معازيل» فدلّ عزلهم من السلاح على هوانهم وذهاب «الفيل» رمز سلطانهم وسلاحهم. ومن هذا الترابط يصعب القول بأن القصيدة تتألف من جزأين خلطهما الرواة في قصيدة واحدة. ونفهم من إيراد الشاعر الديك في الجزء السادس وأسرته معازيل من السلاح أن النصر قد تحقق على «رعاة الدجاج والخنازير»[١٣٥]. ومن حق المنتصر أن يحتفل بنصره، فقد كان العربي قبل الإسلام يحتفل بالخمر والغناء والرقص. وقد أراد الشاعر أن يحتفل بهما أو تذكر احتفالات النصر قبل الإسلام فطافت في خياله صور من تلك الأيام، وربما تذكر سعي المرء إلى الخلود وخالط نفسه شوق إلى خلود الحياة الآخرة في الجنة والنعيم الذي لا يزول. وفي الجنة أنهار من خمر وسقاة كأنهم لؤلؤ منثور، وحور عين، وكواعب أبكار، وكأس دهاق. ونجد في القرآن الكريم أوصافاً كثيرة للجنة تركز على الخمرة وسقاتها وأوانيها وما فيها من نساء جميلات[١٣٦]. وتكاد تمتزج صور مجالس الخمر في الجنة، وهي جزء من ثقافة الشاعر وإيمانه وفهمه للخلود مع ذكرياته القديمة عن مجالس الخمر قبل الإسلام. وتمتزج الصور وتتداخل بحيث يصعب فصلها، لكنها على كل حال مجلس احتفال بالنصر المبين على الفرس حققه المسلمون طمعاً برضى الله «نرجو فواضل رب سيبه حسن».

لقد كان زمن الفتح ظهيرة حارة جافة، وصار زمن النصر صباحاً مشرقاً بنور الشمس «وقد غدوت وقرن الشمس منفتق».

وبعد فقد اختفت وراء القصيدة رحلة المسلمين إلى الجهاد ومحاربة الفرس والانتصار عليهم والاحتفال بالنصر، وثواب المجاهدين في جنّات النعيم. وقد جلّى البحث هذا الخفيَّ باعتماده القرآن الكريم، والروايات والرسائل التاريخية، واستثمر للمرة الأولى حسبما أعلم تعبير الأحلام في تفسير رموز الشعر الإسلامي. أسأل الله التوفيق والسداد.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحواشي

ح١ – الجبوري، يحيى، شعر عبدة بن الطبيب (بغداد : دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧١) ص ٥ – ٧.

٢ – الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تـ محمد أبي الفضل إبراهيم (القاهرة : دار المعارف، ١٩٦٢) ٣:٤١٢.

٣ – المصدر ذاته، ٣:٥٣٣ و٤:٤٣ و٤:١١٥.

٤ – المصدر ذاته، ٣:٥٣٣.

٥ – المصدر ذاته، ٤:٤٢.

٦ – المصدر ذاته، ٣:٤١٢. وينظر: الضبي، المفضل بن محمد (– ١٦٨ هـ)، المفضليات، تـ أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط ٥ (القاهرة : دار المعارف، ١٩٧٦) هامش ١٣٤، و١٣٥ – ١٤٥.

٧ – القط، عبد القادر، في الشعر الإسلامي والأموي (بيروت : دار النهضة العربية، ١٩٧٩) ص ٥٢. وينظر: ضيف، شوقي، العصر الإسلامي، ط ٧ (القاهرة : دار المعارف، ١٩٦٣) ص ٦٥. و: القاضي، النعمان عبد المتعال، شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام (القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر، ١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م) ص ١٨٣ – ١٨٤. وترك يحيى الجبوري ذكر اللامية في كتابه: شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ط ٢ (بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م). وأشار إلى وصاته لأبنائه في قصيدة أخرى تحت عنوان: شعراء في شعرهم لمحات إسلامية، وعبدة واحد منهم، ٢٥٠ – ٢٥١.

٨ – العوادي، عدنان حسين، الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي (بغداد : دار الرشيد، ١٩٧٩) ص ١٥.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٩ – شعره، ص ٥٦ – ٥٩.

١٠ – يقارعون : يضاربون. العجم: هنا الفرس، وقد جاءت بالفيول عقب القادسية. ميل: جمع الأميل، سيء الركوب.

١١ – خامر : خالَط. الترجيع: مرة بعد مرة. الرسّ: الخفيّ، يقال: أجد رساً من حب أو من حمّى: للشيء الداخل في القلب. لطيف: غامض المداخل. الرهن: أراد أن قلبه مرتهن بها. المكبول: المقيّد.

١٢ – غبرت : غابت. العقابيل: بقايا المرض. يقول إذا فارقته الحمى يوماً عاودته ورجعت إليه.

١٣ – تذكرها: تتذكرها أنت. تأويل: علامات تبين لك أن البيْن سيقع.

١٤ – ضربت بيتاً: بنتْه. غالت وُدَها: ذهبت به. والغول: اسم ما اغتال.

١٥ – وخش : رذال الناس.

١٦ – تاريخ الطبري، ٣:٤١٢.

١٧ – المصدر ذاته، الصفحات ذاتها.

١٨ – سورة الفيل.

١٩ – قال عمر رضي الله عنه: «والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب فلم يدع رئيساً، ولا ذا رأي، ولا ذا شرف، ولا ذا سطة، ولا خطيباً، ولا شاعراً، إلا رماهم به» الطبري، ٣:٤٨٧.

٢٠ – سورة الأعراف، الآية ٩٨.

٢١ – أقامت خولة بالكوفة مع جيش سعد بن أبي وقاص بعد أن ارتحل بالناس من المدائن سنة سبع عشرة. وكان بين وقعة

المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران. ينظر: تاريخ الطبري، ٤:٢٤.

٢٢ – القيرواني، أبو إسحق إبراهيم بن علي الحصري (– ٤٥٣ هـ)، زهر الآداب وثمر الألباب، تـ محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٤ (بيروت : دار الجيل، ١٩٧٢) ٣:٦٥١.

٢٣ – الجسرة : الناقة الصلبة المتجاسرة. القَيْن: ههنا الحداد. العلاة: سندان الحداد شبهها به لصلابتها. الدَّوْسرة: الصلبة الضخمة. الأين: الإعياء. الإرقال: مشي فيه سرعة وجمز. التبغيل: أرفع من المشي ودون العدو وفيه هملجة.

٢٤ – العنس: الناقة الصلبة. القنوان: جمع قِنْو، وهو عذق النخلة. من خصبة: نوع من النخل. الشماليل: بقايا تبقى في العذق.

٢٥ – قرواء : طويلة القرا، وهو الظهر. النحص: اللحم. مقذوفه به: مرميّة من كل جانب. يشعفها: ينزع فؤادها ويستخفها. المراح: النشاط. وفرطه: ما تقدم منه. المراسيل: السراع السهلات في السير، جمع رسلة على غير قياس.

٢٦ – الشأو : الطلق. يوقره: يكف عنه. المحرَف: الزمام، والجديل له حرف من الضفر. الغرف: الجلد دبغ بالتمر والشعير، ويمتاز بلينه.

٢٧ – تجاهد : اشتد. الشرَك: الطريق المنقاد. الشطب: سعف النخل. السرو: موضع باليمن. منسوج: يريد كأن هذا الطريق حصير منسوج من سعف النخيل لاستوائه.

٢٨ – نهج : بيِّن، يريد الطريق. القُبَص: جمع قبصة، وهي ما أخذ بأطراف الأصابع. الأفاحيص: جمع أفحوص، وهو الموضع الذي تبيض فيه القطا. الحواجيل: القوارير، الواحدة حوجلةٌ. شبّه البيض بقوارير صغار، يريد أن هذا الطريق تبيض حوله القطا لقلة طروقه.

٢٩ – مجردة : ليس عليها غُلُف. السواجيل: جمع ساجول وسوجل وهو الغلاف.

٣٠ – الأساقي : جمع سقاء كالأسقية. انجردوا: جدّوا في سيرهم، أسرعوا لقلة مائهم. الأداوى: جمع إداوة، وهي إناء من جلد للماء. الصلاليل: البقايا من الماء القليلة.

٣١ – العيس : الإبل البيض. تدلك: تحتُّ في السير. ذخائرها: ما تدخر من سيرها. ينحزن: يضربن بالأعقاب. المحجون: المضروب بالمحجن، وهو قضيب معوج. مركول: مضروب بالرجل. وفي البيت إقواء.

٣٢ – المزجيات : الإبل تساق سوقاً ليناً لكلالها. الأكوار: جمع كُور، وهو الرحل بأدواته. محملة: حملت أكوار الإبل التي عَيت وحسرت. الشوار: متاع البيت، وأراد به الرحال بأدواتها.

٣٣ – تهدي الركاب : تتقدم الإبل. السلوف: المتقدمة لما سايرها. الحزان: جمع حزن وهو الغليظ المنقاد من الأرض. الميل من الأرض: منتهى مد البصر.

٣٤ – الرعشاء : التي تهتز في سيرها لنشاطها. الذفرى: عظم خلف الأذن. تنهض بالذفرى: يريد أنها سامية الطرف تنهض صعداً. الدفان: الجنبان. تفتيل: من الفتَل، وهو تباعد ما بين المرفقين عن جنبي البعير لاندماجهما.

٣٥ – العيهمة : الشديدة التامة الخلق. ينتحي: يعتمد. المنسم: طرف خفّ البعير. أديم الصرف: الجلد دبغ بالصرف، وهو صبغ أحمر. الإزميل: الشفرة يقطع بها الجلد.

٣٦ – تخدي به : تسير مسرعةً بمنسمها. قدماً: متقدمة. ترجعه: ترده، يريد تقبضه. حد: حد المنسم. الولاف: المتابعة. القبض: النزو. المفلول: المتثلم.

٣٧ – المشفتر : المتفرق. تجلجل به: تحركه فيذهب دقاقه ويبقى جلاله. الوغل: الرديء.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣٨ – يوزبكي، مؤيد، الرمز في الشعر العربي قبل الإسلام (أطروحة دكتوراه)، (الموصل : كلية الآداب، ١٩٩٢) ص ٢١٦.

٣٩ – ينظر تاريخ الطبري، ٣: ٤٠٨ – ٤١٠.

٤٠ – المصدر ذاته، ٣: ٤١٥ – ٤١٦.

٤١ – الوِرْد : إتيان الماء. خامسة: وردت الخمس، أي اليوم الخامس من شربها الأول. المسافر: أراد به هنا ثوراً خرج من أرض إلى أخرى. الروقان: القرنان. أشعب: انشعب قرناه أي تفرّقا.

٤٢ – المجتاب : اللابس. النصع: الأبيض. شبّه الثور لبياضه بلابس ثوب أبيض. نقبته: لونه. الخال: برود فيها خطوط سود وحمر. وهكذا الثور، أعلاه أبيض وفي قوائمه وشوم.

٤٣ – السفعة، بضم السين: سواد يضرب إلى حمرة. الخدم: جمع خدمة، بالتحريك، وهي الخلخال، وأراد بالخدم البياض. التحجيل: أصله البياض في القوائم، وأراد به هنا السواد.

٤٤ – صلاء الشمس: مقاساة حرّها مصدر «صلي يصلى». مملول من «الملّة» وهي الرماد الحار، يقال: خبز مملول.

٤٥ – يأوي الصائد إلى امرأته. السلفع: الجريئة البذيئة. الشعثاء: المتلبدة الشعر لا تدهنه. التولب: ولد الحمار، شبّه ولدها به.

٤٦ – يُشلي : يدعو، وكل ما دعوته باسمه من فرس أو كلب أو بعير أو شاة فقد أشليته. الضواري: التي تعوّدت الأخذ، أراد كلاب الصائد. أشباهاً: يشبه بعضها بعضاً. أُمكِنَّ: أمكنها الصيد. التهليل: الفرار والنكوص. هلّل عن الشيء: نكل.

٤٧ – أشعث : عنى به الصائد، وأن كلابه تتبعه. السرحان: الذئب، شبّه به الصائد. منصلتاً: ماضياً منجرداً. قيد الرمح: قدره. التمهيل: تفعيل من المهل.

٤٨ – ضمّ الصائد الكلاب وجمعهن إليه ثم صاح بها وأغراها بالثور. السفع: السود. بآذانها شين: آذانها مقطعات بمخالبها من سرعة العدو. وثمة عادة عند أهل قرى العراق فهم يقطعون آذان الكلاب وأذنابها بها ويطعمونها إياها لتكون شرسة جريئة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٤٩ – إنسان : إنسان العين. صادقة: صحيحة النظر. الملاميل: المراود. يريد لم يكن الثور أرمد.

٥٠ – انصاع : أخذ ناحية اجتهد فيها العدو. يهفو: يسرع كأنه يطير فوق الأرض من سرعته. السدك: اللازم للشيء. يقول كل الكلاب ملازم للثور لا يفارقه. المزاجيل: جمع مزجال وهو الرمح الصغير يزجل به، أي يقذف.

٥١ – فاهتز الثور حميّة وأنفاً من الفرار من الكلاب. المدريّان: القرنان. عتقاً: صلباً وأملاساً.

٥٢ – شروى الشيء : مثله. شبيهين: يعني رمحين متماثلين، شبّه بهما القرنين. المكروب: الشديد الفتل، وأصله في الحبل، أراد شدة كعوبهما. أراد بالجنبتين الجنبين. التأسيل: استواء وطول.

٥٣ – كلاهما : كلا القرنين. يبتغي: أي الثور. النهك: الشدة والاستقصاء.

٥٤ – الإيشاغ : القليل الخفيف. السلهب: الطويل، أراد القرن. السنخ: الأصل. الشأن: ملتقى كل عظمين من عظام الرأس. ممطول: ممدود.

٥٥ – مضّ : أوجع وأحرق. الجوشن: الصدر. الروق: القرن. المعلول الذي سقي مرة بعد مرة.

٥٦ – أي ولّى الثور وصرعت الكلاب. التبسن: اختلطن. الأجراح: جمع جرح.

٥٧ – النجاء : السرعة. الأصْناع: جمع صنع بفتحتين، وهو الرجل الحاذق الرفيق الكف، المرأة صناع.

٥٨ – مستقبل الريح : يستروح بها من حرارة التعب وجهد العدو. المبترك: المعتمد في سيره لا يترك جهداً. معدول همال. يريد أنه قد دلع لسانه يلهث من الإعياء.

٨٣ – رومية، وهب، الرحلة في القصيدة الجاهلية (اتحاد الكتّاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٧٥، د. م.) ص ٩٨.

٨٤ – أبو سويلم، أنور، المطر في الشعر الجاهلي (عمان : دار عمان. بيروت : دار الجيل، ١٩٨٧) ص ١٥٣.

٨٥ – الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (– ٢٥٥هـ)، الحيوان، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، ط ٣ (بيروت : دار الكتاب العربي، ١٩٦٩) ٢:٢٠.

٨٦ – الآجن : المتغير الريح لقلة الورود، لأنه في مكان مخوف. جمّه: كثرته. المجلول: ما ألقته الريح عليه وأدخلته فيه، من قولهم جَلَّ البعر يجله إذا التقطه.

٨٧ – كأنه : يعني البعر. نَهَزوا: جذبوا. الحَمُّ: ما بقي من الإلية بعد الإذابة، وما ذاب فهو الودك. مجمول: مذاب.

٨٨ – ران النعاس بهم: غلب عليهم. النَهل: الشرب الأول. قيلوا: من القيلولة.

٨٩ – حَد الظهيرة: شدّتها وصعوبتها. أُصُلاً: عشياً. رم: إصلاح. تبليل: من بلله بالماء.

٩٠ – المراجيل : جمع مِرجَل، وهو القدر.

٩١ – شبّه ما أخذ فيه النضج بالورد وما لم ينضج بالأشقر. لم ينهئه: لم ينضجه. مأكول: يريد أنهم يأكلونه قبل تمام نضوجه لتعجلهم بالسفر.

٩٢ – الجرد : القصار الشعر. المسومة: المعلمة. مناديل: يريد أنهم يمسحون أيديهم من وضر الطعام بأعرافها.

٩٣ – العيس : الإبل البيض. مخدّمة: ذات خدم، وهي الخلاليل، وسموا سيور نعال الإبل (خدماً) لأنها تجعل في موضع الخلاليل. يزجي: يسوق سوقاً رفيقاً. رواكع الإبل: ما لحقه الإعياء منها فكأنها تركع. المرن: الدلك بالسمن والبَعْر إذا حفيت. التنعيل: إلباسها النعال. يقول: إذا أنعلت ودلكت تحاملت فمضت.

٩٤ – الدلح : سير المثقل بحمله. الوُفر: جمع وفراء، وهي المزادة التامة. مخربة: لها خرب، والخُربة: العروة. حقائب: يحتقبها الركبان خلفهم. معدول: ما عَدلوه بأخرى فكانت اثنتان على جانبي البعير.

٩٥ – السيب : العطاء الكثير.

٩٦ – تخويل : تمليك.

٩٧ – سورة آل عمران، الآية ٢٦.

٩٨ – العازب : البعيد، يريد الكلأ. الوسمي: المطر الذي يسم الأرض بشيء من النبت. جاده: أصابه بجوده. الذِهاب: جمع ذِهْبَة، وهي الدفعة من المطر. موبول: أصابه الوبْل، وهو مطر عظيم القطر شديد الوقع.

٩٩ – الأوابد : الوحش تسكن البيداء. الربد: النعام. العين: البقر. المطافيل: التي معها أطفالها.

١٠٠ – الخيطان : جمع خيط، وهو جماعة النعام. البهْمَ: أولاد الغنم. الحفان: أولاد النعام. الحول: جمع حائل.

١٠١ – منه: من العازب. النعم: الإبل. المشلول: المطرود.

١٠٢ – ساهم الوجه: قليل لحمه، وأراد به الفرس. السرحان: الذئب. المنصلت: المنجرد الماضي. الطرف: الكريم.

١٠٣ – الخاظي : الكثير اللحم. الطريقة: طريقة ظهره. شفّه: أضمره وأهزله. ركوب البرد: يريد أنه يركب في البردين: الغداة والعشي. التذبيل: التضمير.

١٠٤ – القُرحة : الغرّة الصغيرة. يلوّحْ: يغير بياضه إلى حمرة.

١٠٥ – أُبسَّ به : دُعي باسمه. الألف: من الخيل. برّزه: قدّمه قدامها. العوج: قوائمه. البراطيل: الحجارة المستطيلة، الواحد برطيل،

شبّه حوافره بها لصلابتها.

١٠٦ – يغلو : يعلو ويرتفع في العدو بقوائمه. يثني: يقصر عن قدره. كفتهن: قبضهن وضمهن.

١٠٧ – سورة الحج، من الآيتين ٥ و٦.

١٠٨ – تجليل : إلباس، كأنه مُتغطٍ بجلال من سواد الليل.

١٠٩ – المعازيل : العزَّل من السلاح.

١١٠ – التِّجار : الخمارون، غدا إليهم. أعداني: أعانني. رخو الإزار: يجرّ إزاره من الخيلاء. كصدر السيف: في مضائه أو في حسنه. مشمول: تصيبه كأنها ريح الشمال. أو: حلو الشمائل.

١١١ – الخِرق : المتخرِّق في فنون الخير والمعروف. الضِلّيل: الذي لا يرعوي لعاذل.

١١٢ – الرَّقم : ضرب من الوشي. الأزواج: الأنماط، وهي البسط. التهاويل: الألوان المختلفة واحدها تهوال. أراد أن فيها صوراً.

١١٣ – مُخْدِرَة : في خدرها، وهو أجمتها.

١١٤ – الكعبة : بيت مربع. شادها: رفعها. الذبال: الفتائل.

١١٥ – أصيص : دن مقطوع الرأس، كأنه جذم الحوض، قد هدمه عراك الإبل عليه، وهو ازدحامها فبقيت منه بقية.

١١٦ – أزهر : أبيض. قلة كل شيء أعلاه. السياع: كل ما طلي به من طين أو جص أو نحوه. أراد بالكوب هنا إبريق الخمر، وأنه قد عقد فوق ختامه إكليل من الريحان.

١١٧ – بينهما : بين الأصيص والكوب. الحُب بالضم: الجرّة الضخمة. الجوز: الوسط. مبزول: مثقوب.

١١٨ – طاف : قد طفا الزبد فوقه. طابق الكبش: ربعه، أو قطعة منه. فخلول: مشكوك في السفود، وهو حديدة معقفة يشوى بها اللحم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١١٩ – المنصف : الخادم. الصاع: صفحة فيها خل وأبزار مخلوط. التوابيل: الأبازير، واحدها تابل.

١٢٠ – الكميت: الخمر، سميت بها للونها. القرقف: التي تصيب شاربها رعدة. أُنُف: مستأنفة، يريد أنه لم يبزلها أحد قبله ولم يشربها.

١٢١ – صرفاً مزاجاً : نشربها صرفاً لطيبها، وكأنها ممزوجة بالماء لسهولتها. يعللنا: يلهينا غناء القيان به. السمان: وشي مقارب، مأخوذ من سم الابرة، والسمان: الأصباغ التي تزوق بها السقوف.

١٢٢ – حواشيه : أطرافه. تذريه: ترفعه، من الذروة. الجيداء: الطويلة الجيد. الشَّرب: الشاربون.

١٢٣ – نصفدها : نعطيها، يقال أصفدت الرجل: أعطيته. البرود: جمع بُرد. السرابيل: الثياب.

١٢٤ – ينظر : العصر الإسلامي، ٦٤، ٦٥، ٨٢. وقد ذهب إلى هذا الرأي من القدماء ابن عبد البر (– ٤٦٣هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تـ علي محمد البجاوي (القاهرة : مطبعة نهضة مصر، د. ت.) ١٤٤:١.

١٢٥ – شعر الفتوح الاسلامي، ص ١٨٤.

١٢٦ – تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، ط ٥ (بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٥٩) ص ٢٦٢.

١٢٧ – ينظر: الأمالي في الأدب الإسلامي (الموصل : دار الحكمة للطباعة والنشر، ١٩٩١) ص ٦٦.

١٢٨ – سورة الشعراء، من الآية ٢٢٥.

١٢٩ – ينظر : في الشعر الإسلامي والأموي، ص ٤٣ – ٤٥.

١٣٠ – ينظر : كتاب تعبير الرؤيا، ص ٤٨.

١٣١ – الذهبي، شمس الدين محمد (–٧٤٨هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: عهد الخلفاء الراشدين، تـ عمر عبدالسلام تدمري (بيروت : دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م) ص ٢٧٦.

١٣٢ – كتاب تعبير الرؤيا، ص ٤٤.

١٣٣ – تعطير الأنام، حاشية ٢:٢٨٧.

١٣٤ – المصدر ذاته، حاشية ٢:٢٨٨.

١٣٥ – ينظر الرسالة التي كتبها هرمز جاذويه إلى سعد بن أبي وقاص، ص ٣ من البحث.

١٣٦ – ينظر السور والآيات الآتية: البقرة، ٢٥ و٨٢. آل عمران، ١٣٣. النساء، ١٢٤. الأعراف، ٤٢. الرعد، ٣٥. الشعراء، ٨٥. محمد، ١٥. الواقعة، ٨٩. الرحمن، ٥٤. الدخان، ٥٤. الطور، ٢٠. الرحمن، ٧٢. الواقعة، ٢٢ و١٨. الإنسان، ٥ و٢١ و١٥. الصافات، ٤٦ ص، ٥١. النبأ، ٣٣. الزخرف، ٧١. الغاشية، ١٤.

المصادر والمراجع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

– ابن عبد البر، أبو يوسف بن عبدالله بن محمد (– ٤٦٣هـ) . الاستيعاب في معرفة الأصحاب . تـ علي محمد البجاوي . القاهرة : مطبعة نهضة مصر، ب. ت.

– الأمالي في الأدب الإسلامي . الموصل : دار الحكمة للطباعة والنشر، ١٩٩١.

– الذهبي، شمس الدين محمد (– ٧٤٨هـ) . تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: عهد الخلفاء الراشدين . تـ عمر عبدالسلام تدمري (بيروت : دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م).

– الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (– ٣١٠هـ) . تاريخ الرسل والملوك . تـ محمد أبي الفضل إبراهيم . القاهرة : دار المعارف، ١٩٦٢.

– فيصل، شكري . تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام . ـ ط ٥ . بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٥٩.

– النابلسي، عبد الغني . تعطير الأنام في تعبير المنام . وبهامشه منتخب الكلام في تفسير الأحلام . القاهرة : مطبعة الاستقامة، ب. ت.

– الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (– ٢٥٥هـ) . الحيوان . تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون . ـ ط ٣ . بيروت : دار الكتاب العربي، ١٣٨٨هـ = ١٩٦٩م.

– رومية، وهب . الرحلة في القصيدة الجاهلية . اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٧٥، ب. م.

– اليوزبكي، مؤيد محمد صالح . الرمز في الشعر العربي قبل الإسلام (أطروحة دكتوراه) . ـ الموصل : كلية الآداب، ١٩٩٢.

– القيرواني، أبو إسحق إبراهيم بن علي (– ٤٥٣هـ) . زهر الآداب وثمر الألباب . تـ محمد محيي الدين عبدالحميد . شرح زكي مبارك . ـ ط ٤ . بيروت : دار الجيل، ١٩٧٢.

– العوادي، عدنان حسين . الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي . بغداد : دار الرشيد، ١٩٧٩.

– الجبوري، يحيى . شعر عبدة بن الطبيب . بغداد : دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧١.

– القاضي، النعمان عبدالمتعال . شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام . القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر، ١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م.

– الجبوري، يحيى . شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه . ـ ط ٢ . بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م.

– الجوهري، إسماعيل بن حمّاد (– ٣٩٣هـ) . الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية . تـ أحمد عبدالغفور عطّار، ب. ت.

– الضامن، حاتم صالح . عشرة شعراء مقلّون . الموصل : دار الحكمة للطباعة والنشر، ١٩٩٠.

– ضيف، شوقي . العصر الإسلامي . ـ ط ٧ . القاهرة : دار المعارف، ١٩٦٣.

– القط، عبد القادر . في الشعر الإسلامي والأموي . بيروت : دار النهضة العربية، ١٩٧٩.

– ابن سيرين . كتاب تعبير الرؤيا . بيروت : دار العلوم الحديثة، ١٩٨٢.

– أبو سويلم، أنور . المطر في الشعر الجاهلي . بيروت : دار الجيل، ١٩٨٧.

– الضبّي، أبو العباس بن محمد . المفضليات (– ١٦٨هـ) . تـ أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون . ـ ط ٥ . القاهرة : دار المعارف، ١٩٧٦.



مقالات

صورة العالم ووظائفها

هذه الدراسة محاولة للكشف عن الجذور التاريخية للصورة المثالية للعالم ووظائفها للجماعة العلمية. يعتمد التحليل على جولات تاريخية في مراحل مهمة من تطور العلم. تكشف الأدلة عن الوسائل والطرق المحددة لجعل صورة العالم مثالية وأهمية هذا للاعتراف الاجتماعي بالعلم، وتأسيس الجماعة العلمية وأدائها لوظائفها. واتضحت الصورة أيضاً من نتائج عملية عن طريق تحليل محتوى مقالات كتبتها شريحة من طلبة الثانوية في بلغاريا. يتكون التصوير المشترك الذي قدمه الطلبة من عناصر مثالية. يُظهر كل من التحليل التاريخي والنتائج العملية بأن الصورة المثالية للعالم قد غدت وسيلة للحث على الالتحاق بالجماعة العلمية ولتنظيم علاقاتها مع شرائح المجتمع الأخرى.

د. كريستينا بيتكوفا بيبكابوياديفا
بلغاريا

ترجمة د.
شذى سلمان الدركزلي
بريطانيا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أشار العديد من أبرز علماء الاجتماع المتخصصين بالعلوم بأن المجتمع يصور العالم بشكل يكاد يكون أسطورياً[1]. فالعالم يُنظر إليه وكأنه «مثال للعقل والموضوعية، وعبقرياً نزيهاً ذا رؤى وبصيرة لا يضاهيهما إلا تواضعه الهادئ»[2]. لقد جذبت هذه المقولات الاستفزازية انتباهنا إلى تصوير المجتمع للعالم. ومع ذلك فإن البحث في صورة العالم ليست حالة فضول صرف فحسب، بل إنها مهمة لفهم كلٍّ من النشاط

العلمي ومفهوم العامة عن العلم[٣]. إن تصور المجتمع عن نشاط معين وعن القائمين به يحدد إلى مدى بعيد احتمال وجود ذلك النشاط: تجنيده للعناصر الجديدة للالتحاق به ودرجة استقلاله النسبي والاعتراف بنتائج نشاطه وتطبيقها بأخذ هذه الأمور بنظر الاعتبار وباهتمام علمي «حيادي» قمنا بدراسة صورة العالم بين طلبة الدراسة الثانوية، والذين هم المصدر الرئيسي لتجنيد العلماء.

كان الإطار النظري لبحثنا هو مفهوم التمثيلات الاجتماعية. لقد وُصفت التمثيلات الاجتماعية بأنها وسائل محددة لإدراك العالم وكمخططات معرفية ذات لغات ومنطق خاصين. ويمكن تحليل التمثيلات الاجتماعية هذه على المستويين الفردي والجماعي للجماعة الاجتماعية. يصبح التمثيل اجتماعياً فقط عندما يكون مشتركاً، أي عندما يكون هناك إجماع في المجتمع على عناصره[٤].

يمكن للناس أن تكون لديهم تمثيلات اجتماعية لأشياء وظواهر وأحداث وأفراد وجماعات. بالنسبة للأفراد والجماعات، تقترب هذه الرؤية النظرية من الاتجاه الأوربي المتميز الآخر في البحث في علم النفس الاجتماعي: القالب أو التقولب الاجتماعي، الذي يعرّف بدوره: «مجموعة أفكار ومعتقدات ثابتة يحملها أفراد مجموعة أو أكثر عن أفراد جماعات أخرى»[٥]. إن العنصر المميز في هذا التفسير هو لهجة الاجماع المشتركة في طبيعة التقولب. لذلك يمكن النظر إلى التقولب الاجتماعي على أنه لا يختلف كثيرا عن التمثيل الاجتماعي. لقد كانت هناك محاولة مؤخرا لتوحيد المبدأين[٦]. وهذه المحاولة للتوحيد يمكن أن تكون ملائمة لحالة دراسة صورة العالم، من نطاق إمكانية تحليلها، ليس فقط بالنسبة للتحديد الاجتماعي وإنما ضمن إطار المعرفة الأصيلة المتطورة في علم النفس ذاته. في هذا المفهوم يمكن دراسة صورة العالم من وجهة نظر المثاليات المشتركة للمعارف العلمية في مراحل التاريخ المختلفة. في هذه المقالة - مع ذلك - نركز أساسا على التحديد الاجتماعي لصورة العالم ووظائفها وتعزيزها المتعمد.

بدراسة وظائف صورة العالم نستند على أساس علم النماذج الشخصية لوظائف التمثيل الاجتماعي والتقولبات الاجتماعية. إذ ميّزت هذه الوظائف لكل من العلاقات بين المجموعات ومنظمات المعرفة الفردية. ركزنا اهتمامنا على وظائف التقولبات الاجتماعية والتمثيلات الاجتماعية التي تعزى إلى العلاقات بين المجموعات. لقد نوقشت في الأدبيات الوظائف التوقعية والمختارة والمبررة للتمثيلات الاجتماعية، كما نوقشت الهوية الاجتماعية والمبررة للتقولب الاجتماعي[٧]. في ضوء الاعتبارات التي أشرنا إليها نقترح ما يلي:

١ - وجوب تحليل وظائف التمثيل الاجتماعي والتقولب الاجتماعي بمنظومة مشتركة.

٢ - إمكانية جمعها حسب اتجاهها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أ) نحو الوجود الفعلي للمجموعة العلمية.

ب) نحو تنظيم العلاقات مع المجموعات الأخرى.

إن الهدف من هذه الدراسة بحث الاعتقادات المشتركة بين الطلبة عن خصائص العالم. كما نناقش صورة العالم في المنظور الاجتماعي التاريخي ونوضح أن كل اعتبار في هذه الصورة المشتركة يمكن فهمه تقريباً في إطار الوجود الاجتماعي والمعرفة العلمية في تاريخ اليونان القديم وأوربا القرن السابع عشر، وهما الفترتان المهمتان في تطور العلوم. أخيراً نبين كيف أن وظائف صورة العالم تعمل من خلال الجماعة العلمية ولها.

الدراسة

إن السمة المشتركة اليومية، غير الرسمية وذات التركيب غير المتماسك، للتمثيلات الاجتماعية تفترض مسبقاً منهجاً يوفر بشكل رئيس بيانات نوعية. وغالباً ما يطبق المؤلفون تقنيات «غير متشددة» مثل المقابلات، الأسئلة المفتوحة، مقالات عن موضوع محدد..إلخ[8]. لقد استخدمنا في هذا البحث تحليل فحوى لمقالة.

في خلال نصف ساعة كتبت مجموعة من طلبة الدراسة الثانوية مقالاً عن «صورة العالم عندي» تراوحت أعمار المساهمين (١٢٠ طالباً و١٧٠ طالبة) بين ١٥ و١٧ سنة، من المنظومة التعليمية البلغارية في السنة ما قبل الأخيرة. اختيرت عشوائياً من بين طلبة ثلاثة أنواع من المدارس الثانوية التي تمثل الأنموذج الرئيسي للتعليم الثانوي في بلغاريا. وهي مدارس اللغات والمدارس المهنية والمدارس الثانوية الاعتيادية. احتوت الشريحة على طلبة من خلفيات اجتماعية متنوعة: عمالية ووظيفية وأكاديمية. وزعت المقالات على ستة مقيمين مستقلين. كل مقيم قرأ حوالي خمسين مقالاً. معدل طول المقال حوالي صفحتين. كان المطلب الوحيد للتقييم هو أن يبين المقيم التمييز بين مدلولات الكلمات المستخدمة لوصف العالم. وهكذا كانت مهمة المقيم هي كتابة كل كلمة أو جملة تحتوي أو تتضمن صفات العالم، وتسجيل عدد مرات ظهورها وتبيان أهي إيجابية أم سلبية أم حيادية في معناها. وكان على المقيم بعد ذلك تقديم تصنيف أكثر عمومية لكل الكلمات أو الجمل المتشابهة التي تصف ميزة معينة، وإضافة إلى ذلك كتابة قائمة بعدد مرات ظهورها. أخيراً، ولأن المقيمين استخدموا أصنافاً وظيفية متشابهة، قمنا بتفريغ التصنيفات الأصلية.

وبمعالجة المعلومات بهذه الطريقة يمكن أن نبين كلاً من تنوع الصفات المنسوبة للعالم وعدد مرات تكرارها.

النتائج

كانت أول ملاحظة هي استعداد جميع الطلبة (٢٩٠ طالباً وطالبة) للمساهمة في هذه الدراسة. جميع الطلبة الذين فوتحوا في موضوع الدراسة أبدوا استعدادهم للمساهمة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالرغم من أنها لا تحمل أية إضافة إلى درجات تحصيلهم. وهذا هو أمر مهم بحد ذاته، حيث يبين أن للطلبة تصوراً واضحاً للعالم بحيث يمكنهم أن يعبروا عنه بسهولة.

الملاحظة الثانية أن التمثيل الاجتماعي للعالم كان إيجابياً بصورة إجماعية، خمسة مقالات فقط أشارت إلى مواقف سلبية تجاه العالم. كتب الطلبة عن العالم بصورة متعاطفة وحتى بصيغة تبجيلية.

الملاحظة الثالثة : كشف محتوى التحليل ثلاثة مستويات للتمثيل الاجتماعي للعالم

١ - **المركزي** : ويشمل الصفات التي ذكرها أكثر من ٥٠٪ من الشريحة. من هذه الصفات مثلاً حكيم، نبيل، ذكي، نزيه، موضوعي، منفتح العقل، مشغول، أمين، مستقل في حكمه، واهب حياته للعلم، ناكر لذاته.

٢ - **مركبات مستقرة نسبياً** : وهي الصفات التي سجلها ٢٠ - ٥٠٪ من الأفراد.

٣ - **عناصر عشوائية** : وهي التي ذكرت أقل من ٢٠٪ من الطلبة، مثل جاد، طيب القلب.

وباتباع أسلوب ميد و ماترو Mead and Matraux حصلنا على صورة مركبة للعالم كما قدمتها مقالات الطلبة[٩]. كل كلمة وتعبير استخدما في الوصف المدرج أدناه هو أنموذج للنمط المقدم من الصفات المركزية الأساسية في المقالات. هذه الصورة المركبة تشير إلى مظهر العالم وشخصيته ومحيط عمله.

من كلمات الطلبة يتبين بأن العالم هو «رجل كبير السن ذو لحية رمادية وشارب وقليل من الشعر الأبيض.. وجه مجعد، عينان كبيرتان حيويتان، ذقن صغير ومدبب، طويل ونحيل، قد يتوكأ على عصا... يلبس عادة بدلة غامقة اللون، وربطة عنق وحذاء أسود مدبب». أما شخصيته فـ«هو إنسان ذو شخصية قوية، مخلص في عمله... شخصية مطورة بصورة متجانسة»... «جيد في كل مجال»... «يجمع بين المعرفة والنبل»... و«هو أمين، غير متحين، ناكر للذات، رجل مبادىء». «العالم تجسيد للأفكار الأكثر تقدمية في عصره». هناك مشاكل وإحباطات في حياة العالم لأن العلم الحقيقي لا يعرف المساومات. فهي ليست مرفأ هادئاً ولا شيئاً يجلب المال والشهرة - إنها تتطلب الإخلاص التام والنزاهة. بالنسبة للطلبة فإن محيط العمل للعالم هو المختبر والمكتب، «غرفة ليست جد كبيرة، ولكنها مضاءة وتوحي بشعور من الحرية.. على الحائط صورة مفضلة.. الطاولة الكبيرة مملوءة بالمسودات والأنابيق وأكوام كثيرة من الكتب ومنفضة سكائر مملوءة وكوب من القهوة الباردة..».

لا يبدو أن هذه الصورة للعالم منفردة في بلغاريا فحسب. ففي دراسة مشابهة فإن الجانب الإيجابي لهذه الصورة وصف من قبل الطلبة الأمريكيين والفرنسيين وبالكلمات المتقاربة ذاتها[٩].

تثير النتائج العملية مجموعة أسئلة أساسية. أولها لماذا هذه الصورة جدّ المثالية للعالم؟ ما هي الميكانيكية التي أنتجت هذه الصورة وأدت إلى المحافظة عليها؟ ما هي وظائفها؟ للبحث عن إجابات هذه الأسئلة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عدنا إلى التاريخ الاجتماعي للعلم.

التحديد الاجتماعي لصورة العالم

يقدر ديريك دي سولا برايس Derek de Solla Price تاريخ ظهور الصورة المثالية وشبه الأسطورية للعالم بأنه كان قرب نهاية القرن التاسع عشر[١٠]. مع ذلك فإن هناك أسباباً كافية تدعم فرضية أن هذه الصورة بدأت في زمان أقدم من ذلك، ففي اليونان القديم كانت محاولة تفسير العالم «كما هو» لإعطاء صورة عقلية متماسكة للطبيعة دون الرجوع إلى القوى الفوقية[١١]. وهذا التفسير كان مقاداً بمبادىء مشتركة ومحددة للبحث.

كان العلم قد اعتُني به حديثاً ولغرض تغيير التسلسل الهرمي للقيم بالاتفاق مع موضوعيتها كان العلم بحاجة لاستحصال القبول الاجتماعي والاعتراف بتفوقه والتأكيد على هيبته. ولكن كاهتمام «جديد» لم يمتلك العلم الوسائل الملائمة للحصول على هذه المتطلبات. والأكثر من ذلك، فإن تطوره كان يتم بمواجهات مع التقاليد الثقافية السائدة. فأصبح تشكيل صورة العالم إحدى الوسائل لجعل العلم شرعياً في اليونان القديم.

صار على عموم الناس أن يتعرفوا تقليداً روحياً جديداً كلياً، وفي كثير من الأحيان كان الانبهار والإعجاب هما العاملان الأكثر تأثيراً. كما كان يجب على الاهتمام الجديد أن يحيط نفسه بالغموض. وكان هذا الغموض في ثلاثة مواقف:

١ – غموض مصدر المعرفة.

٢ – غموض من يمتلك المعرفة.

٣ – غموض المجموعة التي تملك حرية الوصول إليها[١٢].

غموض مصدر المعرفة

عُرضت المعرفة إما على أنها رسالة سماوية أو أنها حكمة قديمة استخلصت من دول بعيدة الوصول.. وفي بعض الحالات يكون العالم هو ببساطة الوسيط للحقيقة غير الممكنة الحصول للإدراك البشري. وفي حالات أخرى يكون قد حصل على معرفته من الشرق الأقصى. الافتتان بالحياة في هذه الدول كان لليونانيين مصدراً للتأكيد على الطبيعة السرية أو المختصة بفئة محدودة للمعرفة الجديدة. في تاريخ سير الفلاسفة القدماء نجد تكرر دافع الدراسات من الشرق. وهكذا فإن فيثاغورس يدعي أنه تعلم الرياضيات من المصريين[١٣]، وديموقريطس درس الفلك مع المجوس[١٤] واناكساغوراس تنبأ بسقوط شهاب، فقط لأنه عرف الكتب المصرية القديمة[١٥]. كانت هناك أسباب لهذا الرجوع المستمر للشرق. وكان على الاهتمام الجديد أن يجد له مكاناً في المجتمع. وهذا يمكن الحصول عليه ليس بالمواجهة القاسية مع التقاليد الموجودة حينذاك، ولكن بالربط الرمزي مع شيء خيالي. هذا من جهة، أما الجهة الثانية فإن الغموض أو السرية كان ضروريا «للصحة النفسية» للعلماء أنفسهم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالنسبة لهم كان الافتراض بأن الطبيعة يمكن فهمها بالعقل لم يكن العامل المشترك في حياتهم. كانت أعجوبة لم يكونوا قد تعودوا عليها بعد. احتاجوا لرؤية الحقيقة ليست كشيء طارىء - اكتشفته الآن أنا وبقابلياتي المحدودة - ولكن لحكمة قديمة غير معلومة لم تعرف إلى الآن لأنها اكتشفت في مكان بعيد واحتفظ بها من امتلكها بسرية.

والشيئان المهمان لتحليلنا هما الطريقان الآخران اللذان كافح العلماء من خلالهما للحصول على الاعتراف الاجتماعي.

غموض الشخص الذي يمتلك المعرفة العلمية

لما كان مصدر المعرفة هو في مكان ما هناك، تجريدي ومقصور على فئة قليلة، يتبع ذلك أن الشخص الذي يمتلكه لا بد أن يكون غريباً وغير اعتيادي ومختلفاً عن الناس الآخرين. ويجب أن يحظى لانتمائه على تقييم اجتماعي إيجابي. القصة بكاملها تقريباً لا تهدف لوصف حياة العالم وحسب ولكن لتقييم غير مألوفيته أيضاً. فهو يشارك بالحكمة السماوية التي لا يفهمها الآخرون. هذه تجعله متفوقاً على جميع الأصعدة. وبسبب تكريسه نفسه لهذه التأملات فهو لا يهتم بالمال أو الشهرة: يقول ديمقريطس: إن معرفة سبب ما، هي أكثر ربحاً من أن تصبح ملك الفرس[١٦]. وضع العالم أعلى من موقعه الاجتماعي الحالي. وهكذا فلاناكساغوراس: كانت السماء هي الوطن[١٧]. انجرف الآخرون عن الحياة اليومية بأساليب مختلفة: هيراقليطس في صمته الكئيب[١٨]، ديموقريطس في ضحكه[١٩]. على العالم أن يضحي بكل شيء للوصول للحقيقة، «وبدلا من أن يكون عبد الجسد ورغباته، كما هو الإنسان في الطبيعة، يجب أن يصبح عبدا للمعرفة»[٩]. هو يمتلك حتى صفات سماوية. يمكنه أن يعيد إلى الحياة امرأة ماتت منذ ثلاثين يوماً (امبيدوكليس)[٢٠] ويمكنه الاستماع إلى موسيقى القبة السماوية أو يمكنه التحدث مع الحيوانات (فيثاغورس)[١٣].

غموض الجماعة العلمية

إن الأنموذج المثالي لغموض الجماعة العلمية هو مدرسة فيثاغورس. كان على كل من يطمح أن يُقبل فيها أن يعبر امتحان قبول قاس. أولاً كان فيثاغورس يريد أن يعرف كيف يتصرف المتقدم للقبول تجاه والديه، وما هي اهتماماته وولعه. ومن هم أصدقاؤه.. وهكذا. لذلك ينظر فيثاغورس بعد ذلك إلى الطلبة مدة ثلاث سنوات باحتقار لغرض معرفة إن كانوا راغبين حقيقيين بالدراسة. يلي ذلك خمس سنوات من الصمت لكي يتمكنوا من إظهار السيطرة على النفس. بعد عبور هذه الصعاب يصبح الطلبة زاهدين بقية عمرهم كله، ويعني ذلك أن من حقهم رؤية فيثاغورث والتكلم معه. قبل ذلك يمكنهم فقط الاستماع إليه من خلف ستارة[٢١].

هذا هو مجتمع النخبة، وأعضاؤه فقط يمكنهم تحقيق الهدف الأصيل للعلم الذي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان بالنسبة للقدماء ليس بأقل من فهم الحياة – الحياة ليست في مظاهرها الطارئة اليومية، ولكن في شرعيتها وانسجامها وفي معناها العميق المقدس.

كانت المعرفة العلمية لأوائل الفيثاغوريين ليست فقط وسيلة لكشف طبيعة الأشياء: فوق كل شيء كانت لها قيمة معنوية عميقة، وكانت طريقة للخلاص. وللحصول على ذلك كله كان على العالم أن ينسحب من عبث الحياة وتفاهتها، أن يسحب نفسه من القيم الدارجة ويكرس كل جهده لتأملات تجريبية. سبب ذلك أن العلماء هم فوق الناس العاديين ويختلفون عنهم، والنشاط العلمي، كما كتب أرسطوطاليس، هو أفضل تحقيق للطبيعة الإنسانية ومصدر السعادة الكاملة[٢٢].

من وجهة النظر المؤسساتية فإن ارتقاء العلم الحديث في القرن السابع عشر ظهر مع تكونه كمنظومة اجتماعية. مرة أخرى كانت هناك حاجة للحرية والاستقلال، مرة ثانية على العلم أن يناضل للحصول على الدعم والتقييم الاجتماعي والاعتراف، مرة أخرى ولغرض البقاء يجب أن يجذب اهتمام الناس، لأن هناك مهناً أخرى «تسحب ميول الرجال من متابعة الحقيقة العارية النزيهة»... لأن البحث عن معرفة أكثر صرامة، يُنظر إليه كدراسة خارجة عن الطريق، ملائمة لفكه كئيب، أو لروح ضعيفة متقاعدة. [هؤلاء] الذين ينقبون في منجم الحياة ينظر إليهم على أن سوء حالتهم يشابه سوء حالة عبيد ملك إسبانيا في بيرو[٢٣].

أعلنت أهداف هذه المحاولة الجديدة في تاريخ أول منظمة علمية مؤسسية: الجمعية الملكية في لندن، الذي كتبه توماس سبرات. هناك نقرأ أنه عندما يتطور العلم فإنه سيخلِّص عقول الرجال من الغموض واللادقة والرق[٢٤].

أي نوع من الرجال يجب أن يكون من يكرس وقته وفنه في الكشف عن هذه الأسرار للإنسانية.. عندما يغفل عن جميع المكافئات التي يمكن أن تحيي صناعته؟؟ الأرواح القوية والآلام العظيمة ضرورية إذا رغبت في تكريس نفسك إلى المصلحة العامة[٢٣]. ويكتب سبرات أنه إذا كان يريد أن يشكل شخصية الفيلسوف الحقيقي فإن الأساس يجب أن يكون البراءة والفضيلة. فقط هؤلاء الرجال ذوو العقل الليِّن المستسلم المطيع الكبير الذي لا يغفل شيئاً، بواسطة ذلك يمكنهم أن يتعلموا: إنهم مستعدون دائماً للتلقي، ولتوصيل الملاحظات.. سيفرحون لرؤية فائدة البشرية[٢٥]. لغرض فهم عمل الطبيعة على العالم أن يمتلك نشاط الصناعة وفكاهة المتقصي.. أن يكون بارداً.. حذراً.. بمزاج يقظ[٢٦].

يا للعالم الذي يعيشه العالم! هناك يتمكن المرء من تنفس الهواء الحر ودون أن يكون مرتبطاً بأهواء العصر الموحش الكئيب وجنونه..[٢٧]. يمكن تأمل تناسق الطبيعة الذي يذهل العقول عن محن الماضي أو الحاضر[٢٨]. هذا العالم يعطي الناس مجالاً للاختلاف دون معاداة، ويسمح لهم بإعلان تخيلات معاكسة من دون أي خطر لحرب أهلية[٢٨]. كل واحد في هذه المجموعة يمكنه الدفاع عن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

موقعه، لأن ذلك يجب أن يكون المختبر الحقيقي وليس المدرسة حيث يكون بعض الناس فيها مديرين والآخرون تلاميذ، وحيث أحدهم يفرض والآخرون يستسلمون بصمت[٢٩]. أعضاء هذه المجموعة لا يحتفظون بمعرفتهم لأنفسهم فقط، بدلاً من ذلك فإنهم يوجزون ملاحظاتهم الرئيسية في مفهوم عام ويضعونها في مكتب التسجيل العمومي لكي تنقل بتجرد ووضوح إلى الأجيال القادمة من الرجال ومنهم إلى أخلافهم[٣٠]. وفي هذا العالم أي «رجل خارق»[٣١] من الأديان المختلفة أو البلدان أو المهن الأخرى مقبول وبدون تحفظ[٣٢].

بعد هذا الوصف من الصعب الشك في أن «الرجال الحكماء سيكون لهم دينان، الأول هو المعلن العام للانسجام مع الناس والآخر خاص ليحفظوه في صدورهم»، وكل شخص ما دام قد اطلع على العلم لا يمكنه تفادي اختياره كدينه الثاني[٣٣].

الآن يجب أن ننظر إلى ما وراء الحقائق التجريبية المتماسكة ونحاول كشف معناها الاجتماعي. فبعد تنوع الشخوص والحوادث التاريخية، تطوّر التمثيل الاجتماعي للعالم في طريقين رئيسيين (أ) أنه تعين بوساطة المضمون الاجتماعي لوجود العلم بحد ذاته (ب) تطور بتعمد من قبل الجماعة العلمية.

وجرى أيضاً مؤخراً تطوير ومحافظة على صورة العالم. علم الاجتماع العلمي نفسه هو مثال معاصر. أحد منجزات هذا الفرع في الخمسينات والستينات هو تطور المنظومة المعيارية للعلم[٣٣]. إنها تتضمن المبادىء التي تنظم عمليات البحث العلمي (الموضوعية، العقلانية، الثبات المنطقي، المصداقية التجريبية)[٣٤]، كما تتضمن مبادىء تركز على الحالة النفسية العاطفية للعالم (النزاهة العاطفية) إضافة إلى المجتمع العلمي وعلاقاته مع المحيط الاجتماعي الأوسع (التشكيكية المنظمة، الجماعية، النزاهة، العالمية). بعد تطوير هذه الفكرة مباشرة ظهرت بسرعة أول الاعتبارات الانتقادية[٣٥]. والكثير منها ذو قاعدة أو خلفية جيدة. يشير المؤلفون إلى عدم إمكان التطبيق الواضح لهذه المواصفات المبدئية للتعامل العلمي اليومي، الذي غالباً ما يقاد بعكس هذه المبادىء. التحليل التاريخي مع ذلك، يكشف ولو بطرق مختلفة، أن هذه المتطلبات أدخلت عمْداً من قبل العلماء أنفسهم. هذه، وكما أوضحنا، كانت لها نتائج مؤثرة لتطوير التمثيل الاجتماعي للعالم.

عند هذه النقطة نعود إلى مشكلة كيف تؤدي صورة العالم وظيفتها.

وظائف صورة العالم

أول مجموعة وظائف لصورة العالم موجهة نحو المجموعة العلمية نفسها - نحو تجنيدها كمجموعة اجتماعية مستقلة - أن يكون المرء عالماً هي مهمة صعبة ومجازفة ما دام النجاح، أي اكتشاف معلومات أصلية جديدة، لا يحققه إلا القليل. لذلك فللحصول على التجنيد الكمي والنوعي تستخدم المجموعة العلمية وسائل مختلفة لجعل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

النشاط العلمي جذاباً للأجيال الجديدة. الوظيفة المختارة لصورة العالم تتكون من تأكيد الصفات الإيجابية للمجموعة العلمية وترسيخ تمييزها الإيجابي. عالم العلم يُصور على أنه مختلف تماماً عن العالم اليومي، ويُعرض مجتمع العلماء كمجموعة مختارة. فالعلم والعلماء لهم قيمهم وأهدافهم الخاصة. العلماء بدون شك على المدى الطويل مرتبطون بالحياة والتطبيق بصورة عامة، ولكن لا يمكن أن ينحدروا إليها بأي حال من الأحوال. روح العلم تؤكد على أنه لكي تكون عالماً يعني التعلق بالحقيقة وبالتالي بالتاريخ. كل ذلك يعطي العلماء الحق ليكونوا مختلفين في طريقة حياتهم وموقفهم تجاه العالم، وتبرر وحتى تفترض الأصالة والتطرف.

الوظيفة المختارة لصورة العالم، أي التأكيد على الإيجابية والصفات المرغوبة للعالم، مع ذلك لها مظهر آخر. صورة العالم هذه ليست فقط لتجذب. إنها مصممة أيضاً للتمييز، بفرض متطلبات محددة على الذين سيكونون علماء. وبذلك تصبح الوظيفة المختارة نوعاً من المرشّح الطبيعي لهؤلاء الذين يأملون بالانتماء إلى مملكة العلم. إذا كان هدفك هو الحصول على النجاح السريع، أو إذا كنت تُقيِّم المال والسيطرة فمكانك إذن ليس في العلم. يمكن للعلم طبعاً أن يجلب لك النجاح والشهرة، ولكن الاحتمالات ضعيفة والمنافسة كبيرة والنجاح يعتمد على العمل المضني والمخاطر والإخفاق المحتمل. بتشجيع نوع معين من المعيشة، صورة العالم يمكن أن تكون لها وظيفة اجتماعية أكثر عموما.

الوظيفة الأخرى لصورة العالم موجهة أيضا إلى المجموعة العلمية نفسها. وهي مكشوفة في الدور الذي تلعبه هذه الصورة في الهوية الاجتماعية لأعضاء المجموعة، أي في معرفة الفرد أنه ينتمي إلى مجموعة خاصة مع بعض الأهمية للعواطف والقيم لعضويته[٣٦]. بينما الوظيفة المختارة توفر التمييز الإيجابي للمجموعة العلمية كافة، في هذه الحالة فإن وظيفة الصورة هي لدعم الهوية الاجتماعية لأفراد المجموعة، أي للمحافظة عليها ككيان. على المستوى الفردي فإن تعيين الهوية ضمن المجموعة هو من المتطلبات الأولية لتحقيق الذات الناجحة بالتوفيق مع الأهداف.

يزداد بسرعة في هذه الأيام عدد الأدوار الاجتماعية التي يلعبها العلماء. إذ غالباً ما يكون العلماء في الوقت نفسه، مديرين، إداريين وسياسيين. وتصبح الصورة التقليدية نوعاً من الميكانيكية الوقائية التي تساعد العلماء للمحافظة على استقامتهم بوصفهم علماء بالرغم من اختلاف الدور الذي يلعبونه.

المجموعة الثانية من الوظائف لصورة العالم مرتبطة بتنظيم العلاقات بين المجموعة العلمية وباقي المجموعات الاجتماعية الأخرى. وهي الوظائف التبريرية والتوقعية. تعزيز الصورة الإيجابية للمجموعة العلمية، والتأكيد على الرفعة الفكرية والصفات غير الاعتيادية للعلماء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

«تبرر» مطالبهم للاستقلال والاحتفاظ بالمسافة الاجتماعية بينهم وبين باقي المجموعات الاجتماعية. فالعلماء كما يذكر مولكي ٌّ فد، تعودوا استعمال الوصف القياسي للعلم لتبرير مطالبهم السياسية.. ووصف القيم المفترضة للعلم.. لتبرير استمرار الاستقلال[٣٧].

ومن جهة أخرى، فإن المواصفات النوعية للعلماء تسبق صفات العلاقة بين المجموعة العلمية والمنظومة الاجتماعية الأوسع. العلم الصرف يجب أن يدعم كفرع من الثقافة الراقية لأنه لا يوجد غير العلماء من يمتلك المستوى الكافي للتمكن من تقرير الأهداف لأنفسهم وطرق البحث العلمي أو تقييم النتائج.

الاستنتاج

الاستنتاج الرئيسي الذي يمكن استخلاصه من الدراسة العملية هو أن صورة العالم أصبحت توصف بطرق رفيعة مع عناصر من المثالية. بتطوير هذه النتائج ركزنا على الجذور التاريخية للتحديد الاجتماعي للصورة المثالية، وميكانيكية المحافظة عليها ووظائفها. لقد أصبحت هذه الصورة للجماعة العلمية وسيلة للتجنيد وطريقاً لتنظيم العلاقات مع المجموعات الاجتماعية الأخرى ومع عموم الناس.

لقد تغيرت مؤخراً العلاقات بين العلم والناس. هذه التغيرات تعود أولاً إلى بروز العلم الكبير. وهذا العلم الكبير مميز بنمو أسي لعدد الناس الذين يعملون في منظومة العلم، وبزيادة كلفة الدراسات والبحوث العلمية. هذا من جهة يزيد احتمال أن العلم سيغزى من قبل أناس ليسوا مخلصين لفكرة توسيع المعرفة المضمونة. ومن جهة أخرى يمكن جعلها معتمدة بشدة على قوة خارجية. السبب الثاني للميل نحو إزالة أسطورة صورة العالم يمكن أن يقتفى أثرها إلى نمو تأثير صورة العالم من خلال قنوات البث خارج نطاق العلوم (مثل الصحافة، والقصص العلمية وغيرها). إذ يمكن تبيين ميزات سلبية تميز في صورة العالم، وحتى الصفات التقليدية أيضاً تميل إلى أن تصوَّر على أنها سلبية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لدينا أيضاً سبب للتوقع بأنه في المستقبل ستطور الحضارة تفسيراً أعمق للتداخل بين العلم والحياة الاجتماعية بحيث يلغي حاجة العلماء لطلب الاستقلال والمكانة الخاصة. هذه العمليات قد تقود إلى تغيير وظائف صورة العالم وتغير أيضاً مركبات الصورة نفسها.

بتذكر الأبعاد العديدة لهذه المشكلة، فإن المشاعر تتمزق بين الشك في عصرنا والاهتمام بالقيم الإنسانية الثابتة، ومع ذلك لا يمكننا تفادي السؤال: نعم، صورة العالم يجب وبالنهاية أن تزال أسطورتها، ولكن هل نحن واعون تماماً إلى نتائج هذه العملية، وهل يجب أن نساهم بذلك عمداً؟

References

مراجع

1 - Metron, R., 1965, The ambivalence of science. Science and Society, edited by N. Kaplan (Chicago: Rand McNally), P. 144' de Solla Price, D. J., 1963, Little Science, Big Science (New York: Columbia University Press)' Motroshilova, A., 1974, Metodologicheskie problemi i urovni issledovaniya nauki i nauchnogo znaniya, Sociologicheckie Problemi Nauki (Moscow), p. 58.

2 - Mahoney, M., 1976, Scientists as Subjects. The Psychological Imperative (Cambridge, MA: Ballinger), p.3.

3 - Durant, J. R., Evans, G. A., and Thomas, G. P., 1992, Public understanding of science in Britain: the role of the medicine in the popular representation of science. Public Understanding of Science, 1: 161 - 182.

4 - Moscovici, S., 1976, La Psychoanalyse. Son Image et Son Publique (Paris: Presses Universitaires de France)' Moscovici, S., 1981, On social representations. Social Cognition: Perspectives On Everyday Understanding, edited by J. Forgas (London: Academic Press).

5 - Tajfel, H., 1978, Intergroup Behaviour . Introducing Social Psychology, edited by H. Tajfel and C. Fraser (Middlesex: Penguin Books), p.427.

6 - Hewston, M., Jaspars, J., and Lalljee, M., 1982, Social representations, social attribution and social identity: the intergroup images of public and comprehensive schoolboys. European Journal of Social Psychology, 3: 241 - 268.

7 - Doise, W., 1972, Relations et representations intergroupes. Introduction a psychologie sociale, edited by S. Moscovici (Paris: Librairie Larouse), Vol. 2, pp. 195 - 211' Tajfel, H., 1981, Social categorization, cognitive values and group. Social Cognition: Perspectives On Everyday Understanding, edited by J. Forgas (London: Academic Press).

8 - Herzlich, C., 1973, Health and Illness (London: Academic Press): Moscovici, 1976, La psychoanalyse, son image et son public (Paris: Presses Universitaires de France)' Hewston, M., Jaspars, J., and Lalljee, M., 1983, Social attribution and social identity: the intergroup images of public and comprehensive schoolboys. European Journal of Social Psychology, 3: 241 - 268.

9 - Mead, M. and Metraux, R., 1986, The image of the scientist among high-school students: a pilot study. The Sociology of Science, edited by B. Barber and W. Hirsch (New York: Free Press), pp. 230 - 246.

10 - de Solla Price, D. J., 1963, Little Science, Big Science (New York: Columbia University Press).

11 - Edelstein, L., 1963, Motives and incentives for science in Antiquity. Scientific Change, edited by A. Crombie (London: Heinemann), pp. 23 - 45.

12 - For a detailed analysis of these lines of mystification, see: Bojadjiev, Tz., and Bojadgieva, p., 1983, Sotzialnoto samoutvarzhdavane na rannogratzkata philosophia. Philosophska Misal, 9.

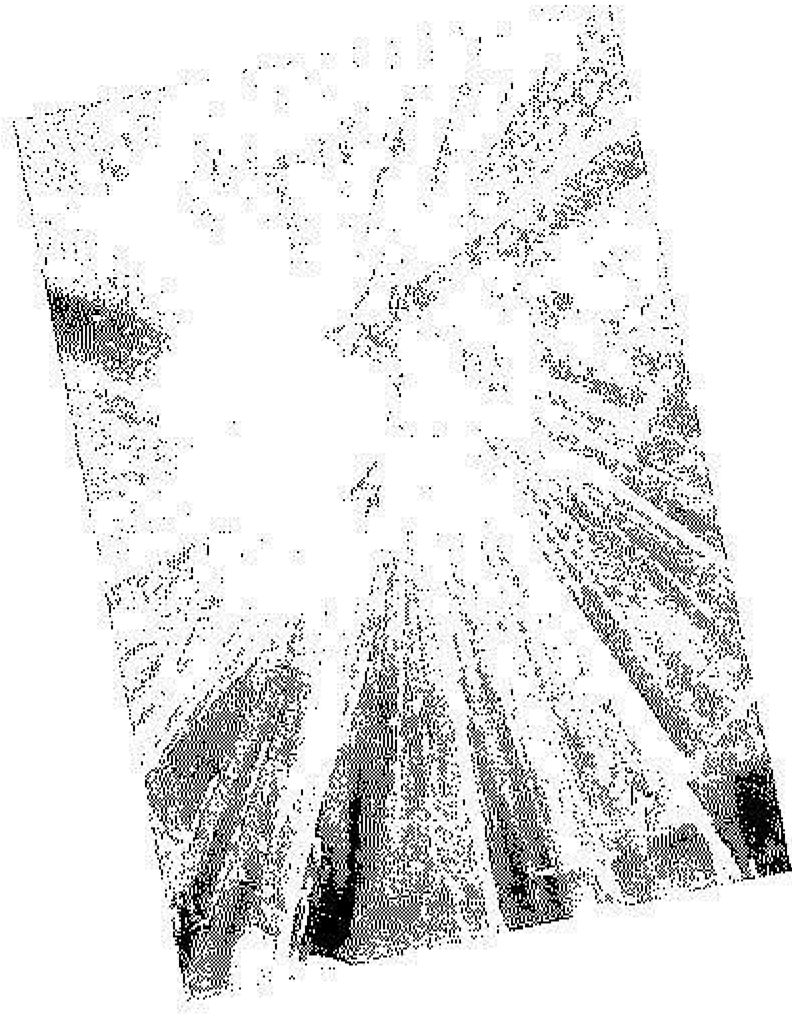
13 - Porphyrij vita Pytagori,12.

14 - Diels, H., and Kranz, W., 1989, Die Fragmente der Forsokratiker (17 aufl.) (Weidmann: Zurich-Hildesheim), 86, A1.

15 - Diels, H., and Kranz, W., 1989, Die Fragmente der Forsokratiker (17 aufl.)

(Weidmann: Zurich-Hildesheim), 59, A 10.
16 - Diels, H., and Kranz, W., 1989, Die Fragmente der Forsokratiker (17 aufl.) (Weidmann: Zurich-Hildesheim) 68, B 118 partim.
17 - Diels, H., and Kranz, W., 1989, Die Fragmente der Forsokratiker (17 aufl.) (Weidmann: Zurich-Hildeheim), 59, A 30.
18 - Diels, H., and Kranz, W., 1989, Die Fragmente der Forsokratiker (17 aufl.) (Weidmann: Zurich-Hildesneim), 22, A1.
19 - Lurie, S., 1970, Democrites. Teksti (Leningrad: Nauka), LXI-LXVIII.
20 - Diogenes Laertius, VIII 60 - 61.
21 - Jamblichus, De vita Pythagorica, XVII 71 - 73.
22 - Aristoteles, Ethica Nicomochea, 1077 b 1 - 35.
23 - Sprat, T., 1966, History of The Royal Society (3rd eden) (London: Routledge and Kegan Paul), pp.26 - 27.
24 - Sprat, T., 1966, History of The Royal Society (3rd eden) (London: Routledge and Kegan Paul), P. 58.
25 - Sprat, T., 1966, History of The Royal Society (3rd eden) (Longon: Routlege and Kegan Paul), p.34.
26 - Sprat, T., 1966, History of The Royal Society (3rd eden) (London: Routled and Kegan Paul), p.64.
27 - Sprat, T., 1966, History of The Royal Society (3rd eden) (London: Routlege and Kegan Paul), p.53.
28 - Sprat, T., 1966, History of The Royal Society (3rd eden) (London: Routlege and Kegan Paul), p.56.
29 - Sprat, T., 1966, History of The Royal Society (3rd eden) (London: Routlege and Kegan Paul), p.68.
30 - Sprat, T., 1966, History of The Royal Society (3rd eden) (London: Routlege and Kegan Paul), p.115.
31 - Sprat, T., 1966, History of The Royal Society (3rd eden) (London: Routlege and Kegan Paul), p.67.
32 - Sprat, T., 1966, History of The Royal Society (3rd eden) (London: Routlege and Kegan Paul), p.63.
33 - Merton, R., 1957,, Priorities in scientific discovery: a chapter in the sociology in science. American Sociological Review, 22, 635 - 659' Hagstrom, W., 1965, The Scientific Community (New York: Basic Books)' Storer, N., 1966, The Social System of Science (New York: Holt, Rinehart and Winston).
34 - Parson, T., 1962, The institutionalization of investigation. The Sociology of Science, edited by B. Barder and W. Hirsch (New York: The Free Press), pp. 7 - 15.
35 - Mitroff, I., 1974, The Subjective Side of Science (Amsterdam: Elsevier)' Mulkay, M., 1976, Norms and ideology of science. Social Science Information. 15, 637 - 656.
36 - Tajfel, H., 1981, Social categorization, cognitive values and groups. Social Cognition: Perspectives on Everyday Understanding, edited by J. Forgas (London: Academic Press), p. 124.
37 - Mulkay, M., 1979, Science and The Sociology of Knowledge (London: Allen and Unwin), p. 113.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



السيكوسوماتيك في تراث ابن سينا

الدكتور محمد أحمد النابلسي
طرابلس الشام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن موقف الإنسان من الموت، والمرض لم يتغير كثيراً منذ فجر الإنسانية حتى اليوم. فالمرض هو مقدمة اختلال الصحة المؤدي للموت المخيف في حال استمراره وتطوره، والمريض يبحث عن الشفاء أينما وجد.

هذه النظرة الواقعية هي عماد الانتقال بعلوم الشفاء من الميدان النظري إلي الميدان التجريبي. هذا الميدان الذي اكتشفه العرب، فكانوا أول من أوجد طريقة التجربة والملاحظة، ووضعوا لها القواعد والأصول. وانعكس هذا الجمع بين المادي والعقلي على النهضة العلمية العربية التي كرّست حضارتنا كمحطة حضارية في تراث الإنسانية. ومع ميل ابن سينا إلى المفهوم اليوناني للعلم فإنه لم يبعد عن المنهج التجريبي. بل جهد لابتكار أسلوب منطقي جديد لصياغة تعريفات تتصل بالمنهج التجريبي. من هنا تقول الباحثة غواشون[1] : «إلى جانب كون ابن سينا فيلسوفاً راسخ القدم فهو أيضاً عالم له شغف بالدراسات التجريبية وحرص على استخدام المنهج العلمي في بحوثه».

وهذا الجمع بين النظري والتجريبي هو السبب في أننا لا نكاد نجد كتاباً من كتبه يخلو من ذكر النفس وقواها والبرهنة على وجودها وخلودها وبيان طبيعتها حتى عدّه الباحثون أهم محطة في التراث النفسي العربي.

من مجمل تراث ابن سينا يهمنا تحديداً ملامسته لعلم السيكوسوماتيك أو الطب النفسي – الجسدي الذي يُعنى بدراسة الأمراض العضوية الناشئة عن الاضطرابات النفسية وعلاجها. وهذا الجانب من الفكر الطبي لدى ابن سينا غير معروف بصورة واسعة. كما أنه لم يلقَ الاهتمام الكافي لقراءته قراءة معاصرة.

كتب القانون في الطب

لابو علي الشيخ الرئيس

ابن سينا

مع بعض تاليفه وهو علم المنطق وعلم الطبيعي وعلم الكلام



ROMAE,
In Typographia Medicea.
M D.XCIII
Cum licentia Superiorum.

١ - الخوف والموت

هل يمكن للانفعالات النفسية أن تؤدي لأعراض جسدية، وهل يمكن لهذه الأعراض أن تتطور لتؤدي إلى الموت؟ سؤالان يطرحهما أي ممارس لعلوم الشفاء والإجابة عنهما. إن لها مستويين لدى المعالجين: الأول **نظري حدسي**، تؤدي الإجابة عنه إلى الإيجاب **والثاني تجريبي** يحتاج إلى القرائن والبراهين العملية ليؤكد بدوره هذه الإيجابية. فأما على الصعيد النظري الحدسي فقد قام أفلاطون بتقديم أولى الإجابات إذ قال: «إن الخطأ الكبير لأطباء عصرنا هو أنهم يفصلون النفس عن الجسد لدى معالجتهم للجسم البشري». وبقيت هذه الحدسية تحتاج إلى برهان تجريبي ملموس حتى قيام ابن سينا بتجربته على الذئب والحمل[٢].

فقد قام ابن سينا بربط ذئب وحمل في غرفة واحدة بحيث لا يمكن للذئب بلوغ الحمل وكان يقدم لهما طعاماً كافياً. وكان من الطبيعي أن تتصرف هذه الحيوانات وفق غرائزها الأصلية، فيبذل الذئب كل جهد للوصول إلى الحمل، ويبذل الحمل كل جهد ممكن للهرب من الذئب والابتعاد عنه. فلما استمرت التجربة لاحظ ابن سينا انخفاض شهية الحمل للطعام بصورة تدريجية. مما استتبع هزاله التدريجي حتى الموت.

هذه التجربة على بساطتها وافتقارها لأدوات الفحص والبحث مكنت ابن سينا من إعطاء البرهان العلمي على العلاقة بين النفس والجسد وعلى كون الصحة العامة نتاج للتوازن بين صحة النفس وصحة الجسد. وبهذا فإننا لا نبالغ إذا ما اعتبرنا ابن سينا رائداً في مجال السيكوسوماتيك التجريبي دون أن نطرح إمكانية نقل السيكوسوماتيين المحدثين عنه. فمثل هذه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التجربة حاضرة في ذهن أي عيادي وهي تحتاج فقط للاستبصار كي يضعها موضع التنفيذ. ولكننا نذكر على سبيل المقارنة أن هذه الفكرة المستبصرة لدى ابن سينا عادت لترى النور في عام ١٩٦٤ على يد الباحث راب وفريقه[٣] الذين قاموا بإسماع مجموعة من الفئران لشريط صوتي مسجل عليه صوت قط وهو يهاجم فأر، فكان نتيجة التجربة موت بعض الفئّران. ولدى قيام الفريق بتشريح هذه الفئران تبين أن موتها يعود إلى موت عضلة قلبية.

قلنا: **إننا لا نطرح** مسألة النقل عن ابن سينا، **كما أننا لا نود** أن نطرح ابن سينا **بوصفه أول مؤسس فعلي** لهذا الفرع من العلوم الطبية. لكن ما نود مناقشته بهذه **المناسبة هو إشكالية علاقتنا بتراثنا فهذا التراث لا ينفعنا بشيء إذا نحن اكتفينا بتقليده، وهو كذلك عديم النفع إذا نحن تجاهلناه وتخلينا عنه.** فعلاقتنا بهذا التراث يجب أن تكون علاقة متجددة، بحيث نقرؤه قراءة تنطلق من سيرورة تعقلية، تنظر للأحداث الماضية وتقومها بناءً على الظروف التي عاصرتها، ومن ثم نحاول استبصارها على ضوء ما نملكه من أدوات معاصرة. فلو حدثت مثل هذه القراءة لهذه التجربة من تجارب ابن سينا لكان أحد أطبائنا العرب هو السباق في التأسيس للسيكوسوماتيك التجريبي المعاصر. وهذا مجرد مثال.

ومع إيقاننا لهذه التجربة في إطارها التاريخي فإن أحدا لا ينكر علينا معاصرتها للبحوث النفسية الحديثة. فهي لا تنتمي إلى ميدان السيكوسوماتيك فحسب، بل تنتمي إلى ميادين أخرى للبحوث المعاصرة. فهذه التجربة على علاقة بالميادين التالية:

١ - دراسات العصاب الصدمي أو اضطراب الشدة عقب الصدمية (.D.S.T.P).

٢ - دراسات علم النفس الحيواني.

٣ - دراسات علم النفس الإحيائي.

فعلى صعيد الاضطراب الصدمي تبرهن تجربة ابن سينا أن التعرض للصدمة وللشدة النفسية تنعكس باضطرابات فيزيولوجية يمكنها أن تتحول إلى أمراضية حقيقية تسبب الموت. أما على صعيد علم النفس الحيواني فإن هذه التجربة تثبت أن للحيوان انفعالاته النفسية المنسجمة مع درجة رقيه في سلَم الذكاء. كما تبرهن هذه التجربة على الصعيد الإحيائي بأن الاضطرابات الوظيفية والفيزيولوجية قابلة للتحول إلى أمراض عضوية.

ولقد كان من الممكن وصف هذه القراءة المعاصرة للتجربة بالمبالغة لولا أن ابن سينا قد اعتمدها في أسلوبه العلاجي اعتماداً مبدئياً يبيَن إدراكه ووعيه لكافة هذه الجوانب مبرهناً استيعابه لها من خلال الحالات العيادية التي عالجها وذكرها في مؤلفاته. ومن هذه الحالات حالة «الأمير العاشق»، كما برهن ابن سينا على هذا الاستيعاب من خلال تصنيفه للأمراض الخلقية ومن خلال موقفه التجريبي من الأدوية والعلاج الدوائي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢ - الأمير العاشق [٤]

نختصر هذه الحالة التي تكرر عرضها لدى غالبية دارسي ابن سينا، بأن الأمير كان يعاني من علائم نفسية وجسدية تنطبق عليها علائم العشق بحسب رسالة ابن سينا في العشق. من هنا اعتمد ابن سينا مبدأ السيكوسوماتيك في فحصه لحالة هذا الأمير. أي أنه عدَّ اضطرابه ذا منشأ نفسي أو بالتحديد منشأ عاطفي. فقام بجسِّ نبضه وراح يذكر له أسماء المواضع ومن أسماء النساء ملاحظاً تسارع نبضه حتى وصل إلى تحديد اسم المعشوقة والموضع الذي تسكنه. فكان هذا الفحص أشبه بجهاز فحص الكذب الحديث ونموذجاً عيادياً للفحص السيكوسوماتي الحديث، إذ يقوم جهاز البيوفيدباك بمقياس المتغيرات الفيزيولوجية للمريض أثناء انفعالاته.

٣ - تصنيف ابن سينا للأمراض الخلقية [٥]

يقسم ابن سينا هذه الأمراض تقسيماً سببياً يتخطى التصنيف الظاهري باعتماده أسباب هذه الأمراض فيقول بوجود الفئات التالية:

أ - أسباب وقعت في الخلقة الأولى فقصرت القوة المصورة أو المغيرة التي في المني عن تتميم فعلها (وهذا ما يعادل الأسباب الكروموزومية[٦] في التصنيفات الحديثة).

ب - أسباب تقع عند الانفصال عن الرحم (وهذا ما يعادل الإصابات الناجمة عن ظروف الوضع في التصنيفات الحديثة)[٧].

ج - أسباب تقع من الخارج كسقطة أو ضربة (وهذا ما يعادل الرضوض والعوامل بحسب التصنيفات الحديثة).

د - أسباب تتعلق بالمبادرة إلى الحركة قبل تطلب الأعضاء (وهذا ما يعادل عدم تأمين الأجواء الصحية الملائمة لنمو الطفل وفق التصنيفات الحديثة).

هـ - كثرة المادة وشدة القوة الجاذبة.

و - قلة المادة أو خطأ القوة الحائلة (والبندان الأخيران يعادلان ما تسميه التصنيفات الحديثة بالاضطرابات الأيضية)[٨].

ز - آفات طارئة من الخارج (وتعادل ما يعرف اليوم بالأمراض الالتهابية والفيروسية والرضية وغيرها من الآفات الطارئة من الخارج بحسب التصنيفات الحديثة)[٩].

إن تطبيق هذا التصنيف على الأمراض النفسية يردنا إلى قول البروفسورة موسون[١٠]:

أوجه تحياتي واعتباري إلى مدرسة الطب العربي - ما بين القرنين التاسع والثاني عشر من الرازي إلى ابن سينا فإلى ابن رشد وتلامذتهم. إذ تابع هؤلاء متابعة انتقائية تعاليم جالينوس وأبوقراط وتوصلوا - بعيداً عن المعتقدات السحرية من اكتشاف الآثار

الفيزيولوجية للانفعال النفسي. إن تاريخ الطب النفسي ينظر إلى هؤلاء بوصفهم مؤسسي النظرة العضوية للاضطراب النفسي. ولكن هذا يجب أن لا يصرفنا عن أثر العلماء العرب ومساهماتهم في مجال العلاج النفسي المرتكز على منطلقات فلسفية وإنسانية».

بهذا التصنيف تتضح لنا مساهمة ابن سينا في إرساء مبدأ النظرة العضوية للاضطراب النفسي. ويتأكد لنا أن التوازن النفسي - الجسدي كان مزدوج الاتجاه في فكر ابن سينا. إذ يمكن للانفعال (الخوف والعشق) أن يؤدي لظهور المرض العضوي. كما يمكن للاضطراب العضوي أن يقود للاضطراب النفسي.

٤ - التجارب الدوائية

يذكر ابن سينا في أحد نصوص قانونه سبع قواعد تنبغي مراعاتها لاستخلاص قوى الأدوية عن طريق التجربة الطبية. ثلاث من هذه القواعد لا تزال معتمدة في التجارب الصيدلانية الحديثة وهي:

- الاتفاق Concordance.
- الاختلاف Différence
- التغيرات المصاحبة concomittantes Variations.

وترد في نص ابن سينا القواعد التالية:

أ - أن يكون الدواء نقياً خالياً من أي كيفية مكتسبة أو عارضة.

ب - يجب عزل فعل الدواء عن الشرائط الأخرى للتأكد من أنه هو السبب الوحيد للنتيجة التي تمَ الوصول إليها.

ج - يجب تجربة الدواء في أمزجة متضادة وأحوال متباينة وتتبع فعله فيها.

د - قوة الدواء يجب أن يقابلها ما يساويها من قوة العلة.

هـ - أن يراعى الزمان الذي يظهر فيه أثره وفعله. فإن كان أول استعماله كان ذلك دليلاً على أنه إنما فعل ذلك بالذات، وإن تأخر فهو موضع اشتباه حسن أن يكون قد فعل بالعرض أي أسباب خارجة عنه طارئة لا جوهرية فيه.

و - أن يراعى استمرار فعله على الدوام أو على الأكثر، وإلا فصدور الفعل عنه إنما يكون بالعرض.

ز - يجب أن تكون التجربة على يد الإنسان، فما يصلح للإنسان لا يصلح لغيره.

أما عن الجوانب السيكوسوماتية في هذه القواعد التجريبية فإننا نلاحظ ما يلي:

أ - يؤكد على اختلاف مفعول الدواء في الأمزجة المتضادة. أي الأنماط الجسدية المختلفة. حيث تشير الملاحظات السيكوسوماتية إلى خصائص عضوية مميزة لكل نمط من هذه الأنماط وأيضاً قابليته للاصابة بأمراض معينة.

ب - إضافة لتمييزه بين الأمزجة فهو يؤكد أيضاً على اختلاف مفعول الدواء في الأحوال المتباينة. أي في الحالات النفسية - الانفعالية. حيث تشير الأبحاث الحديثة إلى العلاقة المباشرة بين هذه الحالات وبين جهاز المناعة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ج – يرى أن الجرعة الدوائية يجب أن تحدد وفقاً لحدة الحالة. فيلمح بذلك إلى وجوب عدم المبالغة في التدخل الدوائي لأثره على التوازن الصحي. كما يلمح إلى الآثار الجانبية للدواء[11].

بعد هذه المحطات السيكوسوماتية في الفكر الطبي لابن سينا يمكننا ملاحظة النواحي الإبداعية في هذا الفكر. إذ تمكن ابن سينا من صهر استيعابه للفكر اليوناني بصورة إبداعية تطورية بمبدأ التجربة. فإذا ما راجعنا الأمثلة أعلاه وجدنا أنها تنتمي إلى الفروع التجريبية التالية: الحيوانية والفيزيولوجية والسيكوسوماتية والإحيائية والصيدلانية. لكن هذا الانهماك التجريبي لم يخرج ابن سينا من إطار الطب الفلسفي بما يشرح لنا إمكانية التوصل إلى هذه التجارب، واستخلاص نتائجها، في غياب المعارف والأدوات الطبية اللازمة في ذلك العصر.

هكذا فتح ابن سينا الباب على مصراعيه ليقين خصب مليء بالمفاجآت والعناصر الجديدة، وتخلى عن تخمين لا يغني عن الحق شيئاً. وهكذا ساهم ابن سينا في إتمام الانتقال من مرحلة العلم القديم إلى مرحلة العلم الحديث. كما تقول غواشون[12].



الحواشي

١ – غواشون، م. بحث منشور في الكتاب الذهبي للمهرجان الألفي لابن سينا (بالفرنسية) ص ٤١ – ٥٨ مع ملخص بالعربية ص ٢٤٦.

٢ – عمار، سليم. ابن سينا ملك الطب في المجلة الفرنسية «الطب والصحة».

٣ – راب وآخرون. الشدة والأيسكيميا، ذكره النابلسي في كتاب أمراض القلب النفسية (الرسالة، الإيمان، ب. ت) ص ٣٢.

٤ – عرقوسي وعثمان. ابن سينا والنفس الإنسانية (منشورات الرسالة، ١٩٨٢).

٥ – ابن سينا. القانون في الطب، الكتاب الأول، التعليم الخامس، الفصل الأول (دمشق: دار الفكر) ص ١٩ – ٢٤.

٦ – النابلسي، محمد أحمد. ذكاء الجنين (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٨).

٧ – المرجع السابق.

٨ – المرجع السابق.

٩ – المرجع السابق.

١٠ – موسون، أليزابيت. الطب النفسي عبر الحضاري، محاضرة في «مؤتمر نحو علم نفس عربي» (بيروت، ١٩٩٢) منشورة في مجلة الثقافة النفسية، العدد العاشر، أبريل، ١٩٩٢، ص ٧٧ – ٨٠.

١١ – ابن سينا. القانون في الطب، طبعة روما (١٥٩٣) نقلاً عن المرجع المذكور في الحاشية رقم (١).

١٢ – غواشون، م. مرجع سابق.

مقالات

أضواء على الصناعة الطبية

وأجور الأطباء في القرن السابع الهجري

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مع تقدم المعلومات الطبية عند العرب في الحضارة الإسلامية، تقدمت أيضاً وسائل العلاج، وظهرت المشافي العامة (البيمارستانات) وانتشرت في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

وتحفل بعض المصادر التاريخية بمعلومات دقيقة، فيما يتعلق بإدارة تلك المؤسسات الطبية (المشافي أو البيمارستانات) بما فيها مخصصات الأطباء والجراحين وأطباء العيون والعاملين فيها، للعناية بالمرضى وتدبير أمورهم.

الدكتور
محمد فؤاد الذاكري
حلب

وفيما يتعلق بالوثيقة التي نحن بصددها، فمصدرها مجموعة (وثائق الجنيزة القاهرية)[1]. وتمتلك النسخة الأصلية لهذه الوثيقة مكتبة جامعة كمبريدج، ويتضمن فحوى الوثيقة التماساً أو عريضة من أحد الأطباء وهو مكارم بن إسحق المتطبب للحصول على وظيفة بأجر شهري في بيمارستان القاهرة[2].

والوثيقة مكتوبة على ورقة صغيرة أبعادها ٩ × ١٢سم، ولا تحمل تاريخاً وليس

عليها – ما عدا نص الالتماس – أي علامة أو تأشيرة أو موافقة على وجه الورقة أو ظهرها، تُبين لنا بالدقة ماهية الشخص المقصود بتقديم هذا الطلب، أو الجهة الرسمية المعروضة عليها، ولكن تفاصيل الأجر الشهري الذي يطلبه الطبيب الملتمس، والأشخاص الواردة أسماؤهم ضمن الوثيقة، يجعلها واضحة ودقيقة ومميزة ومصدراً مهماً لاستجلاء بعض المعلومات وكشفها، وهي بالتأكيد أكثر من رسالة عادية مدبجة. والعادة في العرائض المقدمة، بحسب تلك الفترة التاريخية، أنها لا تؤرخ. ولذا فليس على هذه العريضة ما يشير إلى زمن كتابتها، وهي ليست استثناء كما يبدو. ومع هذا فيمكن تحديد تاريخها تقريباً من خلال المعلومات الواردة ضمنها، وبالاعتماد على المصادر التاريخية المتوافرة. وهكذا يُرجّح أنها تعود إلى القرن السابع الهجري[3] استناداً إلى مجموعة من الأدلة بينها: أسلوب الكتابة، وتحديد الفترة الزمنية التي عاش ضمنها الأفراد المسمَّوْن في الوثيقة. وفيما يلي نصّها:

١ – المملوك مكارم بن إسحق المتطبب

٢ – بسم الله الرحمن الرحيم

٣ – يقبل الأرض وينهي أنه ممن نشأ طبيباً ماهراً في صناعة

٤ – الطب وحكيماً مولانا السلطان الرشيد الدمشقي والرشيد

٥ – أبو حليقة يعلمون جودة علم المملوك بهذه الصناعة وهو

٦ – يسل من [إحسان] مولانا السلطان أعز الله نصره صرفه

٧ – الباقي من جامكية الأسعد الطبيب ببيمارستان القاهرة

٨ – وهي ثلاثة دنانير في كل شهر على المملوك ليكون ملازم (كذا)

٩ – لعلاج المرضى [لينسب] الدعاء إلى [مولانا] السلطان والرأي أعلاه

١٠ – والحمد لله وحده وصلواته على [سيدنا]محمد وآله وسلم تسليما

وتبقى التساؤلات حول تحديد اسم السلطان غير المحدد بالاسم، وإليه تتوجه العريضة بطلب واضح، فهل السلطان هو الشخص المطلوب والمقصود، الذي تتوجه إليه العريضة بالطلب والرجاء؟؟؟ وقد تكون هذه العريضة، مقدمة لشخص آخر ذي سلطة أو منصب رسمي، كأن يكون رئيس الأطباء في البيمارستان المذكور، ويدخل ضمن مهامه أن يحدّث السلطان بهذا الموضوع ويحصل منه على قرار بالموافقة.

أما صاحب العريضة، المعني بالأمر مكارم بن إسحق المتطبب فإن المصادر المعنية لا تفيد أية معلومات أو إشارة تنير لنا الضوء لمعرفة حياته.

ومن المعلوم، أن منح تراخيص العمل للأطباء المؤهلين كان من اختصاص المحتسب الذي كان يقوم بامتحان الأطباء للتأكد من قدراتهم الطبية (مقدّم من أهل الصناعة الطبية)، وهو بمثابة رئيس للأطباء، من المشهود لهم بغزارة العلم وسعة الاطلاع، ويوصف بالحكيم المشهور، ومن ضمن مهامه تزويد الأطباء الذين امتحنهم، أو تلقوا

العلوم الطبية على يديه بشهادات تزكية، ليتمكنوا من إبرازها لدى الجهات المعنية للعمل بموجبها[٤].

وهذا ما لجأ إليه الطبيب مكارم بن إسحق، فهو يذكر في نص الالتماس أسماء اثنين من الأطباء المشهورين المعروفين في زمانه وتزكيتهم بكفاءته الطبية ضرورية لدى ذوي الشأن لكي يتمكن من الحصول على الوظيفة التي يتوقعها في بيمارستان القاهرة.

رشيد الدين أبو حليقة
٥٩١ - ٦٧٦هـ / ١١٩٥ - ١٢٦٧م

أحد هؤلاء الأطباء هو رشيد الدين أبو الوحش بن الفارس أبي الخير بن أبي سليمان داود بن أبي المُنى بن أبي فانة، ويُعرف بأبي حليقة ومولده بقلعة جعبر، بدأ بدراسة العلوم الطبية في دمشق وهو في الثامنة من عمره، ثم انتقل بعدها إلى القاهرة، فأقام بها، وخدم بصناعة الطب، الملك الكامل الأيوبي ومن بعده الملك الصالح نجم الدين أيوب ثم الملك المعظّم توران شاه آخر السلالة الأيوبية، وانتقل بعدئذٍ إلى خدمة الحكام المماليك، ومنهم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس. له عدة مصنفات منها مقالة في حفظ الصحة، كتاب في الأدوية المفردة، سماه المختار في الألف عقار وغيرها[٥].

الرشيد الدمشقي

والطبيب الآخر المذكور في نص الوثيقة هو الرشيد الدمشقي. وهناك اثنان من الأطباء يحملون اللقب نفسه - بحسب ما عند المؤرخ ابن أبي أصيبعة - أحدهما أبو الحسن علي بن خليفة بن يونس بن أبي القاسم بن خليفة، مولده بحلب سنة ٥٧٩هـ وهو عم المؤرخ الذي يصفه بقوله: «لم يكن لعمي دأبٌ في سائر أوقاته من صغره، إلا النظر في العلوم والاشتغال، وتكميل نفسه بالفضائل»[٦]. وفي سنة ٥٩٧هـ استقر رشيد الدين في دمشق، وباشر العمل في البيمارستان النوري، وظهر نبوغه، وتفجرت مواهبه الخاصة بعد إتقانه عدة أنواع من العلوم، فصار شيخاً يُقتدى به في صناعة الطب، واشتهر بالكِحالة وبرع فيها، وكان يتميز بأنه ناجح في مداواة وأمراض العين مهما كانت وبالأدوية فقط، دون اللجوء إلى الجراحة. وتوفي رشيد الدين خليفة سنة ٦١٦هـ = ١٢١٩م في سن الشباب عن عمرٍ يناهز الثامنة والثلاثين عاماً[٧].

أما الطبيب الآخر الذي ذكره ابن أبي أصيبعة ويحمل اللقب ذاته فهو رشيد الدين أبو سعيد موفق الدين يعقوب من نصارى القدس، ويوصف بأنه كان متميزاً في صناعة الطب، خبيراً بعلمها وعملها، حاد الذهن، بليغ اللسان، حسن اللفظ[٨]. توفي بدمشق سنة ٦٤٦هـ = ١٢٤٩م.

ومن استعراض التواريخ الزمنية لحياة هذين الطبيبين، يتبين لنا صعوبة ترجيح أحدهما على الآخر، كونه الشخص المطلوب والمذكور في الوثيقة موضع الدراسة.

الأسعد الطبيب

وهو الطبيب الذي يرغب صاحب الالتماس

مكارم بن إسحق بأن يشغل منصبه في المشفى، فقد ذكر ابن أبي أصيبعة أيضاً، أسماء اثنين من الأطباء يحملان اللقب ذاته، أحدهما هو الأسعد المُحلي واسمه الكامل أسعد الدين يعقوب بن إسحق، وفي عام ٥٩٨هـ = ١٢٠٢م انتقل من القاهرة إلى دمشق وأقام فيها مدة، ثم عاد بعدها إلى القاهرة فمات بها[٩].

والآخر هو الطبيب إسحق الدين عبدالعزيز بن أبي الحسن علي، ومولده في الديار المصرية سنة ٥٧٠هـ = ١١٧٥م. وقد ورث مهنة الطب عن والده، ودخل في خدمة الملك الكامل الأيوبي، الذي قرر له كل شهر مائة دينار مصري، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٣٥هـ = ١٢٣٨م.

أجور الأطباء

لو استعرضنا بعض الأمثلة الواردة حول أجور الأطباء ومكافآتهم لوجدنا بأن مبلغ ثلاثة دنانير الذي يطلبه مكارم بن إسحق يبدو متواضعاً بالقياس إلى ما كان يتقاضاه زملاءٌ له، يشاركونه المهنة.

فقد كان الأطباء في العصر الفاطمي على سبيل المثال يتقاضون مرتبات لقاء قيامهم بالخدمة داخل القصر تتراوح ما بين عشرة إلى خمسين ديناراً شهرياً[١١].

وأنشأ السلطان نور الدين محمود بن زنكي، البيمارستان الشهير المعروف باسمه في عاصمته دمشق، الذي زاره الرحالة الأندلسي الشهير ابن جبير سنة ٥٨٠هـ = ١١٨٤م فوصف نظام العمل به قائلاً: «جرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً، وله قومة بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك، والأطباء يبكّرون إليه في كل يوم، ويتفقدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يُصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم»[١٢]

ويمكن الاستنتاج بأن الطبيب العامل في البيمارستان يتقاضى أجراً شهرياً، يتحدد بأغلب الأحوال حسب سمعته الطبية ومهارته العلمية، وهي التي تُعرف بالجامكية[١٣] مع جراية قمحٍ أو نحوه.

فالطبيب رضي الدين الرحبي (٥٣٤ - ٦٣١هـ) كان يتقاضى خمسة عشر ديناراً، ليتردد إلى البيمارستان النوري ويقوم بمعالجة المرضى.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبحسب ما نجد عند ابن أبي أصيبعة فإن الأطباء في بلاد الشام في العهدين الزنكي والأيوبي، كانوا يتقاضون أجوراً شهرية تتراوح ما بين خمسة عشر ديناراً إلى ثلاثين. وقد أجرى الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي ثلاثين ديناراً كل شهر للطبيب عبد اللطيف البغدادي، ما لبث أن زادها حتى وصل ما رتبه له إلى ما يعادل مائة دينار[١٤].

بيمارستان القاهرة

يُرجح أن يكون بيمارستان القاهرة هو بيمارستان القشاشين[١٥]؛ فإن الإشارات القليلة التي تدل على إنشائه في العصر الفاطمي تُظهر بأنه كان قريباً من الجامع الأزهر، كما يذكر ذلك القلقشندي نقلاً عن

القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر (٦٠٨ – ٦٩١هـ) فيقول: «بلغني أن البيمارستان كان أولاً بالقشاشين يعني المكان المعروف الآن – أي في زمن ابن عبد الظاهر – بالخراطين على القرب من الجامع الأزهر، وهناك كانت دار الضرب، بناها مأمون البطائحي وزير الآمر بأحكام الله قُبالة البيمارستان»[١٦].

ويؤكد ذلك تقي الدين المقريزي بقوله: «هذا الدرب على يُسرة، من سلك من أول الخراطين إلى الجامع الأزهر كان موضعه في القديم مارستاناً ثم صار مساكن، وعُرف بخربة صالح»[١٧].

غير أن هناك احتمالاً قوياً بأن يكون البيمارستان الناصري أو الصلاحي هو البيمارستان المقصود في تلك الوثيقة.

وقد أنشأه السلطان صلاح الدين عندما ملك الديار المصرية سنة ٥٦٧هـ = ١١٧١م، وجعله في قاعةٍ ضمن قصر الفاطميين، وهي القاعة التي بناها الخليفة الفاطمي العزيز بالله سنة ٣٨٤هـ = ٩٩٤م. يقول القاضي الفاضل في متجددات سنة ٥٧٧هـ = ١١٨١م: «أمر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بفتح مارستان للمرضى والضعفاء، فاختير مكان بالقصر، وأفرد برسم من جملة الرباع الديوانية مشاهرة، مبلغها مائتا دينار وغلاّت جهتها الفيوم، واستخدم له أطباء وكحالين وجرائحيين وشارفاً وعاملاً وخُدّاماً ووجد الناس به رِفقاً وبه نفعاً»(١٨).

تُظهر لنا الوثيقة التنظيم الدقيق الذي اتسمت به الصناعة الطبية في بلاد الشام والديار المصرية في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وانعكس ذلك على المستوى الصحي والخدمات الطبية المتنوعة لعامة الشعب، فكانت في وضعٍ مرموق لا يضاهيه أي مكان.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحواشي

١ – وثائق الجنيزة: مجموعة من الوثائق المهمة، لدراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، لمنطقة الشرق الأدنى في العصور الوسطى، اكتُشفت تلك الوثائق منذ قرن تقريباً، وكلمة (جنيزة) كلمة عبرية مشتقة من الكلمة الفارسية (جنك) بمعنى (خزانة)، وفي العصور الوسطى أطلقت كلمة (جنيزة) على تلك الحجرة التي كان اليهود يخزنون فيها أوراقهم الخاصة من خطابات وعقود وإيصالات، وما أشبه ذلك حتى لا تُدنس كلمة (الله) التي قد تكون مكتوبة في هذه الوثائق. وأطلق الباحثون مصطلح (وثائق الجنيزة القاهرية) على مجموعة الوثائق التي عُثر عليها في حجرة مظلمة في سيناغوغ ـ معبد اليهود بالفسطاط قريباً من القاهرة، وكذلك على مجموعة وثائق عُثر عليها في مقبرة بالبساتين قرب القاهرة. وقد تنافست دور الكتب والجامعات في أوربا والولايات المتحدة الأمريكية في الحصول على هذه الوثائق، وقد نُقلت إلى مختلف أنحاء العالم.

المصدر : ربيع، حسنين، وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي لموانىء الحجاز واليمن في العصور الوسطى، بحث منشور في موسوعة «دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الأول، مصادر تاريخ الجزيرة العربية (الرياض، ١٩٧٩) ٢، ١٣٢.

2 - D. S. RICHARDS, A DOCTOR'S PETITION FOR A SALARIED POST IN SALADIN'S HOSPITAL] THE JOURNAL OF THE SOCIETY FOR THE SOCIAL HISTORY OF MEDICINE - OXFORD UNIVERSITY PRESS, 1992, 5: 297 - 306.

٣ – يُخصص غوتين GOITEN في كتابه «مجتمع متوسطي» فصلاً ممتعاً حول الصناعة الطبية في القرون الوسطى الإسلامية، ويقدم بهذا الصدد تفاصيل عدة، تتناول الأجور والمكافآت والتعويضات التي يتقاضاها الأطباء في ذلك الحين، انظر:

S. D. GOINTEN, A MEDITER-RANEAN SOCIETY, P.257.

٤ – الذاكري، محمد فؤاد، آداب الطبيب والتزاماته في قوانين الحسبة، مجلة الفيصل، عدد ٢١٧ رجب ١٤١٥ هـ، ص ٩٢ – ٩٣.

٥ – ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء (بيروت : دار الحياة، ١٩٦٥) ص ٥٩٠.

٦ – المصدر السابق، ص ٧٣٧.

٧ – المصدر السابق، ص ٧٣٨.

٨ – المصدر السابق، ص ٥٩٩.

٩ – المصدر السابق، ص ٥٨٣.

١٠ – المصدر السابق، ص ٦٠٠.

١١ – عيسى، أحمد، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط ٢ (بيروت : دار الرائد العربي، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م) ص ٢٨.

١٢ – ابن جُبير، رحلة ابن جُبير (بيروت : دار صادر) ص ٢٥٥.

١٣ – الجامكية : وجمعها جوامك، ما يُرتب من مال ومطعم وملبس وغير ذلك لمماليك السلطان، ويقال أيضاً لرواتب الموظفين والمدرسين، ويقال لمن يستحقها: أصحاب الجوامك.

المصدر : الجوهري، الخطيب، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تـ حسن حبشي (القاهرة : دار الكتب بمصر، ١٩٧٠) ١: ٣٥٠.

١٤ – ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦٨٨.

١٥ – عيسى، أحمد، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص ٧٥.

١٦ – القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة : المطبعة الأميرية، ١٣٣١هـ = ١٩١٣م) ٣: ٣٦٩.

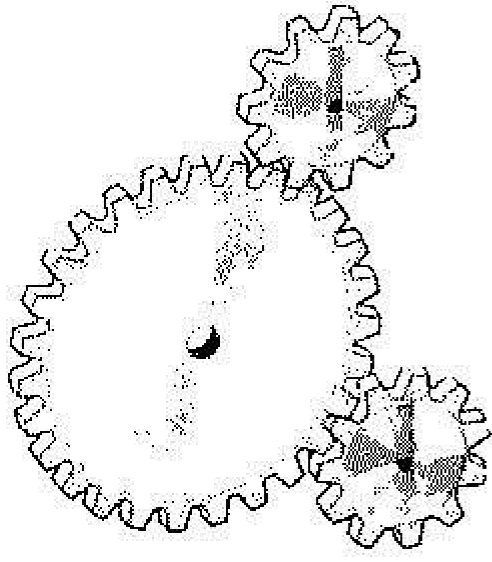
١٧ – عيسى، أحمد، تاريخ البيمارستانات، ص ٧٥.

١٨ – المصدر السابق، ص ٧٧.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رأي

توظيف الاقتصاد لنشر التراث



الدكتور المنجي الصيادي
تونس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن الوسيلة المثلى الناجعة للنهوض بالأمة العربية في عصر الاقتصاد ونظام السوق والتنافس، لا مراء في أنها تعتمد حالياً ولاحقاً على الجهاز الاقتصادي المصرفي والمؤسسات الاقتصادية بصفة عامة. لعل هيئات المصارف أصبحت تجد رتابة ومللاً في الاحتفاء بحلول المناسبات السنوية والأعياد. إذ كانت التقاليد المرعية تعمل على طبع الرزنامات والكناشات وهدايا أخرى متنوعة تنشد الطرافة وتتسابق إلى رصد أموال مهمة لبلوغ هذه الغاية. كما يبدو أن بعض هذه المؤسسات أضحت تروم الفكاك من هذا الوضع والاتجاه إلى توظيف تلك المبالغ في منجزات ثقافية منها نشر كتب التراث وتبليغ رسالتها الحضارية باللغات الأجنبية خدمة لإشعاع الفكر الإسلامي العربي.

هذا ما توخته إحدى المؤسسات المعرفية. وقد تكفل بالمشروع أستاذان مختصان، الأول في الفلسفة لسبر أبعاد القضية وإبراز الخلفية الحضارية، والثاني في التاريخ[1].

وهكذا انطلقت العملية[2] فأنجبت كتابين متأصلين في التراث، أحدهما تأليف أبي

الفصل الدمشقي في امتداح التجارة، والثاني بعنوان: التدبير للشيخ الرئيس ابن سينا. وسارت العملية على منوال يرفع من شأن النشر العربي. إذ تمثل الابتكار في تصنيف الكتابين تصنيفاً مزدوجاً يشمل النص العربي والترجمة باللغة الفرنسية التي تتجه أولاً إلى الطلاب العرب المقيمين بفرنسا ممن لا يملكون قدرات لاستغلال النص العربي دون الاستنجاد باللغة التي يتقنون، أي الفرنسية. أضف إلى ذلك أن الدراستين موشحتان بجهاز نقدي شامل ومقدمة تمهد للموضوع، مما يجعلهما أداتين مثاليتين للبحث العلمي فضلاً عن المطالعة «الحرة» لمحتوى يزيد من معلوماتنا بخصوص تدبير الحياة المنزلية والتجارية خدمة لتحذير الشباب في هويته التراثية.

الباعث على إصدار مثل هذه الأعمال يخدم الناشر صاحب المؤسسة خدمات جُلّى مستمرة استمرار الكتاب وخلوده على مر الأجيال والعصور. وهو نابع من دوافع الباحث الذي ما أن يشرع في عمله التنقيبي حتى يبحر في آفاق فكرية لا تحد، تجعله يصرّ على استكمال عدة مشاريع ترتبط بمشروعه الأصلي، لأنه يشعر بحرمان لا يوصف ما دام لم يعمل على إخراج مثل هذه المؤلفات إلى النور. أي إذاعة الفكر التراثي الخالد وتمكين الراغبين من الاطلاع عليه واستيعابه وتوظيفه للرقي وتنوير الفكر العربي المعاصر. ومع ذلك فلا يمكنه إلا القيام بعمل جد محدود، نظراً لكثرة النصوص ذات الطابع الاقتصادي، وعلى رأسها تآليف الإمام مالك الذي يدين له المغرب العربي بانتسابه إلى المذهب السني الحنيف.

الفصل الأول من كتاب التدبير الموسوم: كتاب البيوع (القرن الثاني الهجري) ثري بمستوى التفكير والابتكارات المنطقية لمؤلفه، للتوفيق بين أطماع البشر ورغائبهم ونقائصهم وجشعهم، وهو مدعم باستشهادات قرآنية. فحتى في مجال تبادل العبيد تبرز مكونات التصور الذي كان يخضع له مبدأ التبادل في التجارة، وهو نظام تقدمي بالنظر لما كان سائداً في العصور القديمة. كان النقاش مثمراً بين أصحاب النظرية (منهم عبدالجبار) بحيث إذا بلغ بنا المطاف إلى تآليف ابن تيمية، نجد أن الخطاب الاقتصادي أصبح يتصف بالنضج والاتزان.

وإذا ما تحولنا إلى الدمشقي (القرن السادس الهجري) نجد الخطاب نفسه قد تخلص من الممحصات النظرية التي كانت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تجعل منه نصاً فقهياً بحتاً. ويبدو أن مفهوم (التدبير) بدأ يظهر عند مؤلف يوناني يدعى بريزون لعله أثر بفكره أيّما تأثير على التصورات الاقتصادية التي راجت عند العرب. كان الموضوع يشمل قضاء المبادلات وتنظيم الذات أيضاً، بمعنى تنظيم الفكر العربي ضمن التفكير الكوني.

أما الاستنتاجات الواجب تثبيتها لتأكيد أنه لا وجود لانفصام حاسم نهائي بين الأفكار التي راجت في التراث الاقتصادي والفكر الاقتصادي السائد حالياً، فعند اليونان لم يكن يفصل بين الاقتصاد (Oikonomia) في المصطلح اليوناني والأخلاق والحياة المادية التي لم تكن مقطوعة عن الجانب الروحي. كانوا يعتقدون قديماً أن الإدارة والتصرف الجيد يرتبطان بالتنظيم الجيد بالكيفية التي بها يدير المسؤول، لأنه لا مفر لمن يروم التسيير أن يبدأ بالتحكم في ذاته وسلوك مسلك حياتي مطابق لمبادىء فضلى بالاعتدال والحلول الوسطى، فلا إفراط ولا تفريط بحيث إنّ تلك الفضيلة تصبح عادة راسخة تتحقق بالفعل والممارسة. فالمفهوم الاقتصادي كما نشأ عند اليونان يعني أول ما يعني إدارة البيت، وهو صالح لإدارة وإحياء أرض زراعية وإدارة الحرب وإدارة الشؤون العامة كذلك. إن إضفاء الطابع العقلاني على التسيير الإداري ضامن للنجاح، ومن المعلوم أن أرسطو لما كان يبحث في مبدأ التبادل، فهو يؤكد على الصيغة المعتدلة المتوازنة المتكافئة للمفهوم.

ولقد كان موضوع التدبير مجالاً للنظر الفلسفي عند الفلاسفة العرب الذين بحثوا في تصور الإنسان الاقتصادي الذي يجسم الحكمة كما روجت لها النصوص الأدبية والسمو الأخلاقي. ومع ذلك فهذه المقولات شكلت إضافة للمؤلفات الفقهية التي شرعت للمواضيع الاقتصادية الشائعة في العصور الإسلامية.

أما في عصرنا الحاضر والقادم فلا خير من فتح النوافذ بين الفروع العلمية، أي سنّ مجالات للتعاون والاحتكار بين المواد التي تشكل العلوم الإنسانية والاجتماعية. لا مناص من رفع الحواجز بين ما شكل على مرّ العصور حصوناً لا يمكن تخطيها، بين مادة علمية وأخرى بحيث إنّ كل عالم كان ينغلق في ميدانه ولا ينشغل بمواد أخرى.

لقد تصور اليونان ومن بعدهم العرب مفهوم الاقتصاد (التدبير) كموضوع عقلاني، يمر عبر تصرف ناجع للموارد البشرية والمادية. وعند اليونان خاصة لم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يكن لهذا النشاط أن ينتشر في فضاء ضيق يشمل اختصاصاً واحداً، لأن هذا المشروع لا يتحقق إلا بمساعدة أفكار مدبِّرة متنوعة كالفيلسوف والسياسي والمتصرف والأخلاقي، علماً أن تنظيم الحياة المادية في المجتمع العربي وغيره له من الأهمية ما يجعل واجب الاستنجاد بالخبرات كافة، لأن ذلك المشروع يستند إلى أرضية حضارية.

ولنتذكر ختاماً أن ما دوَّنه مالك في الموطأ بلغ شأواً عظيماً، ارتفع بالمجتمع العربي من نظام البداوة بعناصره الاقتصادية وغيرها مع نهاية العصر الأموي، وانتقل به مع فجر الدولة العباسية إلى العصر المديني، الأمر الذي جعل أبا جعفر المنصور يوصي الإمام مالك أن يتجنب شدة عبدالله بن عمر وتعميمات عبدالله بن عباس وتناقضات عبدالله بن مسعود، مشيراً عليه بأن «وطِّئه للناس» وبذا انطلق هذا العمل متوازناً، منشغلاً بالحفاظ على الاتزان الرهيف الدقيق وكأنه معادلة كيميائية يتوخى فيها العالم كل يقظة وحذر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحواشي

١ – هما يوسف الصديق أستاذ الفلسفة بإحدى جامعات باريس وياسين السيِّد أستاذ محاضر في التاريخ بتونس.

٢ – اعتمدنا في هذه البسطة على حوار أجرته جريدة La Presse في ٩/ ١/ ١٩٩٦ مع المؤلفين.

رأي

الإطراب في التراث النقدي العربي

المصطلح والقضية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدكتور علي لغزيوي
كلية الآداب - فاس

إن الحديث عن خصيصة الإطراب في الشعر - كما عالجها التراث النقدي العربي - يجعلنا نؤكد وعي نقادنا بالنواحي الجمالية التي تتحقق في الشعر حين تتضافر مكوناته على تحقيق التأثير المطلوب في المتلقي، ويدل حديثهم عن الاطراب أيضاً على إدراكهم لأهمية التجاوب بين المبدع والمتلقي لكي يحقق الشعر فاعليته.

وإذا كان الشاعر المبدع يحرص على تحقيق هذه الخصيصة، فلا شك أن ما ينتجه من نصوص يظل مُحققاً للتفاعل بينها وبين متلقيها المباشر، ثم بينها وبين المتلقي العام والقارىء بصفة عامة، وهذا ما يضفي على النصوص الشامخة الحياة والاستمرار، ويبعث فيها الحرارة التي تثير الوجدان، وبذلك يظهر واضحاً أنه حتى بالنسبة لأولئك الذين يدعون أنهم يكتبون لأنفسهم، فإن المتلقي في تصورهم ليس غائباً بالمرة، بل إن الشاعر

آفاق الثقافة والتراث - ع (١٥) رجب ١٤١٧ هـ = ديسمبر ١٩٩٦ م

المبدع يستحضره في عملية الإبداع. وبهذا لا تكون عملية التلقي سلبية فاقدة للانفعال، بل تغدو مشاركة وتجاوباً مع النص، وقد عبَروا عن رد الفعل لدى المتلقي بمصطلحات عديدة مثل: التعجيب، الاستغراب، القبض، البسط، الإطراب، الرقص...

ومن شأن تتبع هذه القضية ومثيلاتها في تراثنا الشعري، وتراثنا النقدي أن يبرز بعض إرهاصات النظرية الجمالية في النقد العربي، وهي نظرية لا تغرق في المنحى الفني، بل تخصص حيزاً مهماً للجانب الخلقي الذي يعكس طبيعة الحس الحضاري في هذا التراث، كما يفيد تتبع هذه القضية تنبُه النقد العربي إلى مكانة المتلقي، وحرصه على ضرورة التجاوب مع المبدع من خلال النص، سماعاً من منشده، أو قراءةً بعد تراخي الزمن، وذلك عن طريق إدراك المعقولات (الفهم)، والالتذاذ بالمسموعات معاً في آن واحد، لأن الطرب لا يتحقق إلا بتحققهما معاً، والطرب سبيل إلى التجاوب والتفاعل والمشاركة الوجدانية، وذلك بغض النظر عن مدى التطابق بين النص كما أنتجه وأراده المبدع، والنص كما تلقاه وفهمه المتلقي، سامعاً كان أم قارئاً، حسب ما تبيِّنه نظرية التلقي، ونظرية التجاوب في النقد المعاصر.

مصطلح الإطراب في النقد العربي

يمكن تتبع سيرة حياة هذا المصطلح منذ تبلور استعماله لدى النقاد، ورصد ما اعتراه من تطور وارتقاء، أو ضمور وتراجع بظهور بديل له.

وهكذا ترجع معاني مادة (طرب) إلى الحركة، لأن الطرب خفة تعتري الإنسان عند شدة الفرح أو الحزن والهم، وبذلك فهو من أسماء الأضداد، لأنهم قالوا: الطرب: الفرح والحزن، وذكروا أنه ينصرف إلى الفرح خاصة، وقيل: حلول الفرح وذهاب الحزن، وذلك ما يؤديه فعله المضعف، فيقال: طرَّب (بتشديد الراء) فلان في غنائه تطريباً: إذا رجَّع صوته وزينه، ومنه قول امرىء القيس:

كما طرَّب الطائر المستحر

ومنه: التطريب في الصوت: مده وتحسينه، فيقال: طرَّب في قراءته: مد ورجع، وطرَّب الطائر في صوته بمعناه كذلك[1].

وإذا كان الإطراب صفة للغناء الجيد، فإنهم قد وصفوا الشعر أيضاً بالإطراب، إذا حرك النفوس وهزها وبعثها على الارتياح، وبغضِّ النظر عن أيهما أسبق: الشعر أم الغناء، فإن الصفة المشتركة بينهما هي القدرة على الإطراب[2].

وذهب العرب إلى أن الطرب باعث من بواعث الشعر، فقد روى ابن رشيق أنهم

قالوا: «قواعد الشعر أربع: الرغبة والرهبة والطرب والغضب، فمع الرغبة يكون المدح والشكر، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع»[٣]، وهكذا فالطرب نوعان: خارجي، ويكون باعثاً على قول الشعر. وداخلي، وهو ناتج عن الشعر نفسه. والأخير هو الذي يهمنا هنا. غير أن الإطراب في الشعر ربما لا يقتصر على ما يعبر عن عاطفة الفرح والارتياح، فقد يُطرب شعر الرثاء، وشعر الهجاء، وكذلك غيرهما من الأغراض، وهي في مجملها مرتبطة بحكم طبيعتها بحالات الحزن والغضب والفرح...

ومن المؤكد أن ربط الشعر بالطرب، واعتبار ذلك شرطاً في جودته تركيز على فاعلية الشعر وتأثيره في المتلقي من ناحية، واعتداد بالذوق الفني المتمرس من ناحية أخرى.

وقد كانت هذه الفكرة متداولة في النقد العربي القديم قبل أن يؤلف ابن دحية كتابه «المطرب من أشعار أهل المغرب» وإن كانت إشارات النقاد لا تتجاوز التلميح والتنبيه على الأمر، على مستوى التنظير في الغالب، أو الحكم على بعض النماذج بالإطراب ضمن مصنفات عامة، وبطريقة عرضية في الأغلب، بينما جعل ابن دحية مصطلح «المطرب» في الواجهة، واتخذه جوهر اهتمامه، ومعيار اختياره، وضابط منهجه، واختاره عنواناً لكتابه.

وبذلك غدا المطرب من الشعر قضية لدى عدد من النقاد الذين حددوا مفهومه، وضبطوا معياره، وعللوا أثره، ومثلوا له بمجموعة من النماذج من مختلف الأغراض.

خصيصة الإطراب في الشعر عند ابن طباطبا

ولعل أقدم النقاد الذين تحدثوا عن خاصية الإطراب في الشعر، وعدّوها مظهراً للجودة، هو ابن طباطبا العلوي الذي علل الإطراب تعليلاً نفسياً وفنياً، وعلى الرغم مما يبدو من فصل بينهما، فإنهما يتكاملان في تحديد فاعلية الشعر والربط بواسطته بين الشاعر المبدع والمتلقي.

أما التعليل النفسي فيتجلى في قوله: «والنفس تسكن إلى كل ما وافق هواها، وتقلق مما يخالفه، ولها أحوال تتصرف بها، فإذا ورد عليها في حالة من حالاتها ما يوافقها اهتزت له وحدثت لها أريحية وطرب، وإذا ورد عليها ما يخالفها قلقت واستوحشت»[٤].

سر إطراب الشعر وعوامله

وإذا كان ابن طباطبا يركز في هذا النص

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على الحالة النفسية للمخاطب (المتلقي)، ومدى استعداده، أو موافقة ما يتلقاه لمزاجه وحاله، ليحدث التأثير، وتظهر الاستجابة، فإنه يتكلم أيضاً عن خاصية الإطراب في الشعر نفسه، ويرجعها إلى ما فيه من نظم وإيقاع، وحسن تركيب، واعتدال في أجزائه، مما يجعله مفهوماً مستعذباً، وعن هذا الجانب الفني يقول موضحاً: «وللشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه وما يَرِدُ عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه، فإذا اجتمع للفهم مع صحة وزن الشعر صحة وزن المعنى، وعذوبة اللفظ، فصفا مسموعه ومعقوله من الكدر، تَمَّ قبوله له، واشتماله عليه، وإن نقص جزء من أجزائه التي يكمل بها - وهي اعتدال الوزن، وصواب المعنى، وحسن الألفاظ - كان إنكار الفهم إياه على قدر نقصان أجزائه»[5].

يظهر من هذا النص أن ابن طباطبا يركز على مكامن الجمال، ويرجع السر في كل جمال إلى الاعتدال والانسجام، وإذا كان السبيل إلى الإحساس بهذا الجمال هو الذوق، فإن ابن طباطبا يرى أن تأثير الشعر عقليٌّ كذلك، لأنه المقصود بمخاطبة الفهم، وإن كانت وسيلته إلى هذه المخاطبة هي الجمال أو الحسن[6].

وهو يسعى إلى تجسيم الذوق الفني حين يقرنه بالأذواق الحسية، وإن كان يُقرُّ بأن الذوق الفني قد لا يُعلَّل، بما في ذلك خاصية الإطراب في الشعر: «وللأشعار الحسنة على اختلافها مواقع لطيفة عند الفهم لا تُحد كيفيتها، كمواقع الطعوم المركبة الخفية التركيب، اللذيذة المذاق، وكالأراييح الفائحة المختلفة الطيب والنسيم، وكالنقوش الملونة التقاسيم والأصباغ، وكالإيقاع المطرب المختلف التأليف، وكالملامس اللذيذة الشهية الحس، فهي تلائمه إذا وردت عليه، أعني الأشعار الحسنة للفهم، فيلتذها ويقبلها ويرتشفها كارتشاف الصديان للبارد الزلال...»[7].

ويلتقي هذا النص مع النص السابق في فكرة، وجدنا حازماً القرطاجني يتوسع فيها في مناهجه، وهي ضرورة تناسب المسموعات مع المفهومات في الشعر الجيد، من أجل أن يحدث التأثير المطلوب في المتلقي، وهو ما يسميه التعجيب والاستغراب[8] وهما مصطلحان اعتد بهما الجاحظ كثيراً في حديثه عن أثر الشعر وفاعليته في المتلقي، لأنهما مظهر لتجاوبه مع المبدع.

ويشترك الغناء والشعر في خاصية الإطراب عند ابن طباطبا الذي يشترط أيضاً ضرورة تفهم المستمع للمعنى ليتحقق الإطراب الكامل، وبسبب إلحاحه على قبول الفهم لما يتلقاه المستمع، فإن

الغناء المطرب هو الذي يجمع بين خاصية الإيقاع الموسيقي، واللفظ الموزون الذي يقع عليه اللحن[9]، ولذلك فهو حين يتحدث عما للشعر الموزون من إيقاع يطرب الفهم لصوابه، يقرنه بالغناء المطرب الذي يتضاعف له طرب مستمعه، المفهم لمعناه ولفظه، مع طيب ألحانه، فأما المقتصر على طيب اللحن منه دون ما سواه فهو ناقص الطرب في نظره[10]. ولعل هذا التصور في مجمله هو الذي دفعه إلى استحسان الوضوح واستهجان الغموض والتعقيد اللذين يفقدان الشعر القابلية للفهم والالتذاذ.

وإلحاح ابن طباطبا على فكرة المتعة الفنية المترتبة عن الجمال في الشعر، وإرجاعه العلة الجمالية إلى الاعتدال من أجل تحقيق الإطراب، يجعله واحداً من النقاد الجماليين على حد قول الدكتور إحسان عباس[11]، غير أنه يلاحظ أن ابن طباطبا لا يقف عند حدود الجمالية، أو أنه لا يعدها غاية في حد ذاتها، بل هي وسيلة لغاية خلقية، وحينذاك تصبح حالة اللذة التي تعتري المتلقي وتطربه غير مقتصرة على الاستمتاع بالجمال، بل تفعل فعل السحر، ذلك بأن ابن طباطبا يرى أنه إذا «ورد عليه الشعر اللطيف المعنى، الحلو اللفظ، التام البيان، المعتدل الوزن، مازج الروح ولاءم الفهم، وكان أنفذ من نفث السحر، وأخفى دبيباً من الرقى، وأشد إطراباً من الغناء، فسلَّ السخائم، وحلل العقد، وسخَّى الشحيح، وشجع الجبان...»[12].

عند ابن وكيع

إذا كان الطرب الذي يعكس المتعة الفنية وسيلة لغاية أبعد عند ابن طباطبا، فإن ابن وكيع ينظر إليه بوصفه غاية في ذاته، وكأنه يعتد بالفن من أجل الفن. وذلك ما يبدو من تتبع الدكتور مصطفى الجوزو لخصيصة الإطراب في الشعر عند مجموعة من النقاد بعد ابن طباطبا[13]، وإن كان يعتمد في ذلك على آراء الدكتور إحسان عباس في الغالب. ومنهم ابن وكيع التنيسي (-٣٩٣ هـ) الذي يضع الشاعر المحدث في منزلة صاحب الصوت المطرب، لأن غايته هي استمالة فئة من الناس للاستماع إليه، ذلك بأنه يرى أن «أشعار المحدثين لا يُراد منها استفادة علم، وإنما تُروى لعذوبة ألفاظها ورقتها، وحلاوة معانيها، وقرب مأخذها»[14].

ولأن الناس قد زهدوا في الأدب في عصر ابن وكيع، فإن أشعار المحدثين تُكتب لقربها من الأفهام، وسهولتها أو سطحيتها، حتى إن الخواص في معرفتها كالعوام[15]، ولذلك صار صاحب الأشعار التي في هذا المستوى بمنزلة صاحب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الصوت المطرب، يسعى إلى استمالة الناس وإن جهل الألحان وكسر الأوزان، بينما يجعل ابن وكيع قائل الشعر الحوشي بمنزلة المغني الحاذق بالنغم، ولكنه غير مطرب الصوت، فيُعرض عنه الناس إلا من عرف فضله[١٦]، فهو كالملحن الذي لا يحسن الغناء بصوته فلا يطرب الناس، ولا يحقق تجاوباً ولا تفاعلاً، ولا يحرك وجداناً لدى المتلقي إلا على نطاق محدود. ويرى الدكتور إحسان عباس أن هذا الحكم من ابن وكيع دليل على نزول الشاعر عند رغبة الجمهور، ويعدها أول دعوة من النقد تتطلب من الشاعر تلبية الذوق العام[١٧] إذا أراد تحقيق التأثير المطلوب ورغب في نَفَاق شعره.

والمهم أن الطرب يبدو عند ابن وكيع غاية في حد ذاته، والشاعر والمغني في تحقيقه سواء[١٨]، وفق الظروف التي ذكرها، بخلاف ما وجدناه عند ابن طباطبا الذي يعدُّ الطرب وسيلة لغاية خلقية.

عند المرزوقي : الطبع والفهم

أما أبو علي المرزوقي (- ٤٢١ هـ) فيضيف عنصراً آخر إلى ما ذكره ابن طباطبا، وهو (الطبع) بالإضافة إلى (الفهم)، وإن لم يقصر الأمر على الطبع وحده كما تصور الدكتور الجوزو حين استنتج أن موضوع الإطراب عند المرزوقي هو الطبع لا الفهم[١٩]، وإن كانا في الحقيقة غير متعارضين، بل يتكاملان ويتضافران إلى حد كبير: ذلك بأن المرزوقي حين تحدث عن عيار التحام أجزاء النظم والتئامه على تخير من لذيذ الوزن - وهو العنصر الخامس من عناصر عمود الشعر كما صاغها صياغتها النهائية - جعله متمثلاً في الطبع واللسان، وقد علل استعماله لعبارة «على تخير من لذيذ الوزن» بقوله: «لأن لذيذه يطرب الطبع لإيقاعه، ويمازجه بصفائه، كما يطرب الفهم لصواب تركيبه، واعتدال نظومه»[٢٠].

وبذلك يلتقي مع ابن طباطبا في جعل الطرب كامناً في المسموعات بواسطة (الإيقاع)، والمفهومات بواسطة (الفهم)، وهما العنصران اللذان ذكرهما ابن طباطبا قبله، وسيعود إليهما حازم القرطاجني بعده، وإن كان المرزوقي يستعمل مصطلح (الطبع) الذي استعمله ابن طباطبا في هذا المجال بالذات.

وليس الغرض هو الإحاطة بجميع النماذج على سبيل التاريخ، بل نكتفي بمجموعة من الشواهد لتتضح لنا طبيعة التصورات التي نعرضها في هذا الإطار، وتظهر للعيان مفاهيم المصطلحات، وطبيعة المعايير المعتمدة في كل منها، ولا سيّما مصطلح (الإطراب) ومشتقاته.

عند ابن دحية السبتي

عنوان كتابه هو «المطرب من أشعار أهل المغرب»، ويتضح من صيغته أنه قائم على الاختيار، وأن قمّة الاختيار عنده هو ما يطلق عليه مصطلح (المطرب)، وأنه مقتصر على المطرب من الشعر، أما (المغرب) فيعني به الغرب الإسلامي، وبصفة أدق: المغرب بمفهومه العام والأندلس، وهو ما تؤكده مادة الكتاب من أشعار وشعراء، وقد جعل ابن دحية خصيصة الإطراب في الشعر معياراً لاختيار معظم نماذجه، إلا ما جاء في إطار الاستطراد، وهو قليل.

وقد ألفه ابن دحية (– ٦٣٣ هـ) في مصر للملك محمد الكامل الأيوبي الذي حكم ما بين ٦١٥ و٦٣٥ هـ بطلب منه بعد توليه الملك، وبذلك فإن الهدف من تأليفه هو تعريف المشارقة بالشعر الأندلسي والمغربي في أرقى نماذجه، غير أن ابن دحية الذي عايش المشارقة، ورأى إزراءهم بأهل الأندلس، ولا سيّما أهل العراق منهم، قد اتخذ فيه موقفاً دفاعياً، وذلك ما يوضحه الأستاذ السيد مصطفى غازي بقوله: «وابن دحية في (المطرب) أندلسي قوي الشعور بأندلسيته، يعتز بشعراء قومه، ويندد بالمشارقة – وبخاصة أهل العراق – حين ينتقصون من أقدار أدباء المغرب، فيكشف بذلك عن مظهر مهم من مظاهر الاحتكاك الثقافي بين الشرق والغرب... وقد خبر اعتداد المشارقة في أثناء تنقلاته بالمشرق، وضاق بتهجمهم على أهل الأندلس ضيقاً تردد صداه في نقده الأدبي»[٢١].

وبذلك جمع في مطربه بين أمرين هما: تعريف المشارقة بأحسن النماذج الشعرية وأجودها في الأندلس والمغرب، وإبراز فضل أهل بلده والدفاع عنهم، وتنبيه المشارقة إلى فضلهم[٢٢]، وكلاهما يؤكد الدلالة النقدية لعنوان كتابه المطرب الذي صرح فيه ابن دحية بموقفه الدفاعي[٢٣]، واتخذ الشعر المطرب وسيلة لذلك. وقد وضّح مواصفات الشعر المطرب ومجالاته مما اختاره لشعراء الأندلس والمغرب، وتحدث عن دواعي تأثير الشعر بوصفه الأداة الفاعلة وصلة الوصل بين الشاعر والمتلقي فذكر أنه جمع من النماذج الشعرية «ما يؤكل بالضمير ويُشرب، ويُهتز عند سماعه ويُطرب، في الغزل والنسيب، والوصف والتشبيب، إلى غير ذلك من مستطرفات التشبيهات المستعذبة، ومبتكرات بدائع بدائه الخواطر المستغربة»[٢٤].

وهكذا يرى ابن دحية أن الشعر المطرب هو الذي يهتز المتلقي لسماعه، ويتأثر به فيحدث التجاوب المطلوب، وقد تمثلت في هذا المصطلح مقومات التجويد الفني بأعلى قممه في مختلف الأغراض

الشعرية، وبذلك أسهم بدوره في بلورة مقاييس الجمال كما يراها، ورفد النظرية النقدية بمجموعة من التصورات.

المطرب عند ابن سعيد

إذا كان الشعر (المطرب) يمثل عند ابن دحية قمة التجويد الفني، اعتماداً على المعايير والاعتبارات التي تتحقق الجودة على أساسها، فإن هذا المصطلح قد نزل من عليائه، وتراجع إلى الدرجة الثانية عند ابن سعيد الأندلسي الذي أطلق مصطلح (المرقص) على أعلى درجات التجويد في الشعر، وكذلك في النثر، كما يظهر في كتابه «عنوان المرقصات والمطربات».

أما الشعر المرقص فهو «ما كان مخترعاً أو مولداً، يكاد يلحق بطبقة الاختراع، لما يوجد فيه من السر الذي يمكّن أزِمَّة القلوب من يديه، ويلقي منها محبة عليه، وذلك راجع إلى الذوق والحسن، مغن بالإشارة عن العبارة»[٢٥] وبذلك يجعل الابتكار أو التوليد معياراً للشعر الجيد الرفيع المرقص، ويسمي ما دون ذلك مما عليه أثارة من الابتداع لا تبلغ بالمتلقي المتذوق حدّ الرقص، وإنما تثير في النفس هزة ارتياح ونشوة باسم: المطرب[٢٦]، وبهذا أضاف مستوى آخر في درجات الجودة هو مستوى المرقص، وهو مصطلح يؤكد الزيادة في درجة التجاوب أيضاً، لأنّ ما يُرقص أكثر تأثيراً مما يُطرب، ويظهر ذلك جلياً في مفهوم المطرب عنده بالقياس إلى المرقص، ذلك بأن المطرب عند ابن سعيد هو ما نقص فيه الغوص عن درجة الاختراع، إلا أن فيه مسحة من الابتداع[٢٧].

وهكذا نلاحظ أن (المطرب) كان هو المصطلح المتداول للدلالة على قمة الجودة في الشعر، وبلغ هذا المصطلح قمة السمو حين اتخذه ابن دحية السبتي عنواناً لكتابه ومعياراً لاختياره، ليُحله ابن سعيد الأندلسي المرتبة الثانية بعد (المرقص) في كتابه «عنوان المرقصات والمطربات»، قبل أن ينزله إلى الدرجة الثالثة بعد أن قدم مصطلحاً آخر لقمة التجويد الفني، وهو مصطلح (الهزاز) وهو الشعر الذي ينتمي إلى طبقة المرقص ولكنه يتبوأ قمتها، وعليه أدار كتابه «المقتطف من أزاهر الطرف».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحواشي

١ – لسان العرب، مادة طرب.

٢ – نظريات الشعر عند العرب، ص ٦٩.

٣ – العمدة، ١:٢٤٦.

٤ – عيار الشعر، ص ٢١. وقبله أشار الجاحظ إلى الأثر الجمالي والنفسي للشعر لما يتوافر له من إطراب؛ فقد جرى ذكر أرجوزة أبي العتاهية «ذات الأمثال» بحضرة الجاحظ، فلما سمع قول الشاعر:

يا للشباب المرح التصابي

روائح الجنة في الشباب

قال عن الشطر الثاني : إن له معنى كمعنى الطرب الذي لا يقدر على معرفته إلا القلوب، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير. وخير المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه. الأغاني، طبعة إحياء التراث العربي، ٤:٣٦.

٥ – عيار الشعر، ص ٢١.

٦ – عباس، إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ١٤١.

٧ – عيار الشعر، ص ٢٢.

٨ – منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص ١٢٦ – ١٢٧.

٩ – كان العرب يعدُّون اللحن والغناء كساء للشعر.

١٠ – عيار الشعر، ص ٢١ – ٢٢.

١١ – تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ١٤١.

١٢ – عيار الشعر، ص ٢٣.

١٣ – نظريات الشعر عند العرب، ص ٧٠.

١٤ – المنصف في نقد الشعر، تـ الداية، ص ١٧٤

١٥ – المصدر ذاته.

١٦ – المنصف في نقد الشعر، ص ١٧٤.

١٧ – تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ٣١١.

١٨ – نظريات الشعر عند العرب، ص ٧٠.

١٩ – المصدر ذاته.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢٠ – شرح ديوان الحماسة، ١:١٠.

٢١ – ابن دحية، المطرب: مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، العدد الأول، السنة الأولى، ١٣٧٢ هـ = ١٩٥٣ م، ص ١٦٧.

٢٢ – عرفت الأندلس مجموعة من المواقف الدفاعية، في مقدمتها دفاع ابن حزم (– ٤٥٦هـ) في رسالته عن: فضائل الأندلس، ورسالة أبي الوليد الشقندي (– ٦٢٩هـ) التي ألفها في المفاضلة بين الأندلس والمغرب بعد نزاعه مع أبي يحيى ابن المعلم الطنجي في مجلس أمير سبتة أبي يحيى ابن أبي زكريا.

٢٣ – وبعد ابن دحية يأتي دور ابن سعيد في مجموعة من مؤلفاته، وقد نحا فيها نحواً دفاعياً أيضاً.

٢٤ – المطرب، ص ١.

٢٥ – عنوان المرقصات والمطربات، ص ٧.

٢٦ – تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ٥٣٤. وعنوان المرقصات والمطربات، ص ٧.

٢٧ – عنوان المرقصات والمطربات، ص ٨.



«جمع من الكتب ما لا يوصف، وقَصد بها من الآفاق وكان لا يحب من الدنيا سواها، ولم تكن له دار ولا زوجة، وأوصى بكتبه للناصر صاحب حلب وكانت تساوي خمسين ألف دينار»

القفطي مؤرخاً للنحاة

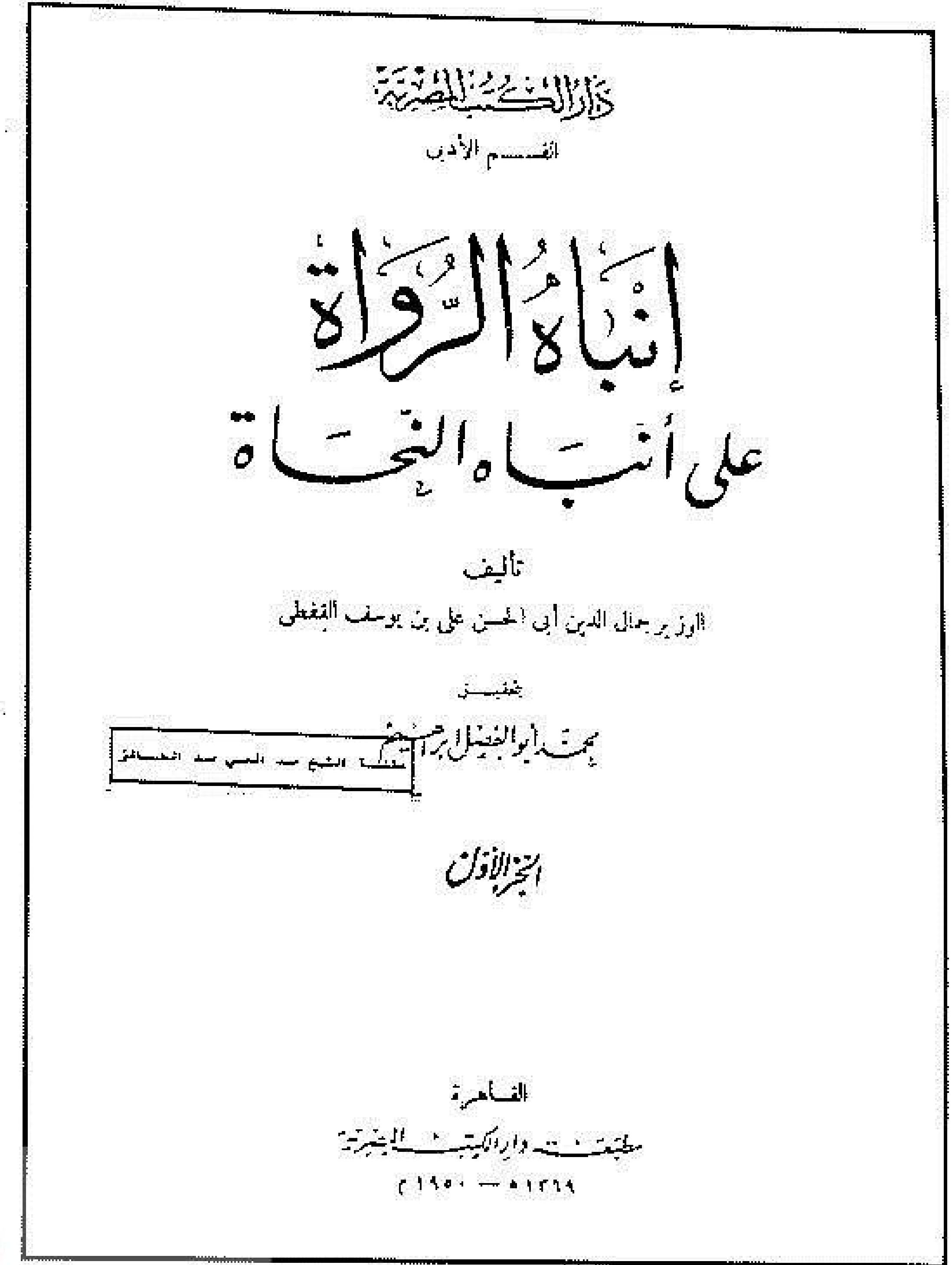
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدكتور السيد رزق الطويل
أستاذ اللغويات بجامعة الأزهر

هذا بحث موجز نجلي فيه بعض ظواهر العظمة في حياة أحد أعلام التراث الخالد، وهو الوزير القاضي الأكرم جمال الدين القفطي، عالم إقليم مديرية قنا. هكذا كانت تسمى، أو محافظة قنا كما ندعوها الآن، وهي جزء من الصعيد الأعلى الذي تميز منذ قديم بخصوبة أرضه في إنتاج العظماء من البشر قبل نتاج الزرع والثمر. وبرز من مدن هذا الإقليم مدينتا قفط وقوص، كانتا موئلاً لأعلام العلماء في كل درب من دروب العلم.

وقفط بخاصة تقع شمالي قوص كانت معروفة في التاريخ المصري القديم، ودارت حولها بعض القصص والأساطير، وعندما جاء الفتح الإسلامي وارتبطت مصر ببلاد

آفاق الثقافة والتراث - ع (١٥) رجب ١٤١٧ هـ = ديسمبر ١٩٩٦ م


دار الكتب المصرية
القسم الأدبي

إنباه الرواة
على أنباه النحاة

تأليف
الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الأول

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٦٩هـ — ١٩٥٠م

العرب صار لقفط شأن خاص، إذ صارت ممر التجار والرحالين والحجاج في طريقهم إلى عيذاب وجُدَّة، فبلاد العرب والهند، أو عائدين من هذه البلاد إلى مصر والمغرب وبلاد الأندلس[١].

وكان من نتيجة ذلك كله أن صعد نجمها، وأثرى أهلها، وراجت أسواقها، وكثر عمرانها، واجتذبت إليها جمهرة من العلماء ممن كان ذاهباً إلى مكة للحج، أو عائداً منها. وهكذا نشطت فيها الحركة العلمية وامتلأت مساجدها ونواديها بالفضلاء من العلماء والأدباء، وامتد هذا النشاط إلى قوص وقنا وادفون وأسوان وغيرها من بلاد الصعيد.

في هذه البيئة الزاهرة المزدهرة بثمار العلم والأدب ولد العلامة الوزير الصاحب جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد الشيباني، ونسب إليها، فقيل: القفطي، كما كان يلقب بالقاضي الأكرم.

ولو ألقينا نظرة على اسمه نجد أنه عربي صريح النسب كريم النبعة، ينتمي إلى قومه: إلى بني شيبان، الذين نزحوا من الكوفة مع القبائل العربية التي توافدت إلى مصر بعد الفتح أرسالاً، وانتشروا في جنوب الوادي وشماله وطاب لهم المقام.

وأما مولده فسندع القفطي نفسه يحدثنا عن ذلك من خلال ما رواه عنه صديقه أو تلميذه ياقوت الحموي في كتابه «معجم الأدباء»[٢] وفي حديثه عن مولده يتحدث عن قفط نفسها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يقول ياقوت الحموي: قال لي – أي القفطي – ولدت في أحد ربيعي سنة ٥٦٨ هـ بمدينة قفط من الصعيد الأعلى إحدى الجزائر الخالدات حيث الأرض الأربعة والعشرون في أول الإقليم الثاني، وبها قبر قبط بن مصر بن سام بن نوح[٣].

وخلال هذا النص – كما نرى – معلومات تحتاج إلى درس خاص، يتوافر على إبراز هذه المعالم. وأسرته أسرة علم وفضل وجاه، فأبوه يوسف بن إبراهيم الملقب بالقاضي الأشرف عرف ببيانه الرائع، ونبوغه في الإنشاء، كان حسن الترسل بديع الخط، كما كان نابه الذكر مرفوع المكانة، ناب عن القاضي الفاضل بحضرة صلاح الدين، واستوزره الملك الأشرف في بلاد الشام، كما

استوزره أتابك سنقر باليمن، ثم هجر السلطة وآثر العزلة إلى أن توفي سنة ٦٢٤ هـ. وأخوه إبراهيم بن يوسف القفطي، المعروف بمؤيد الدين، ولد بالقدس سنة ٥٩٤ هـ، سمع الحديث، وحدث بحلب ودمشق، وتولى الوزارة بحلب أيضاً[٤].

نشأته ورحلاته العلمية

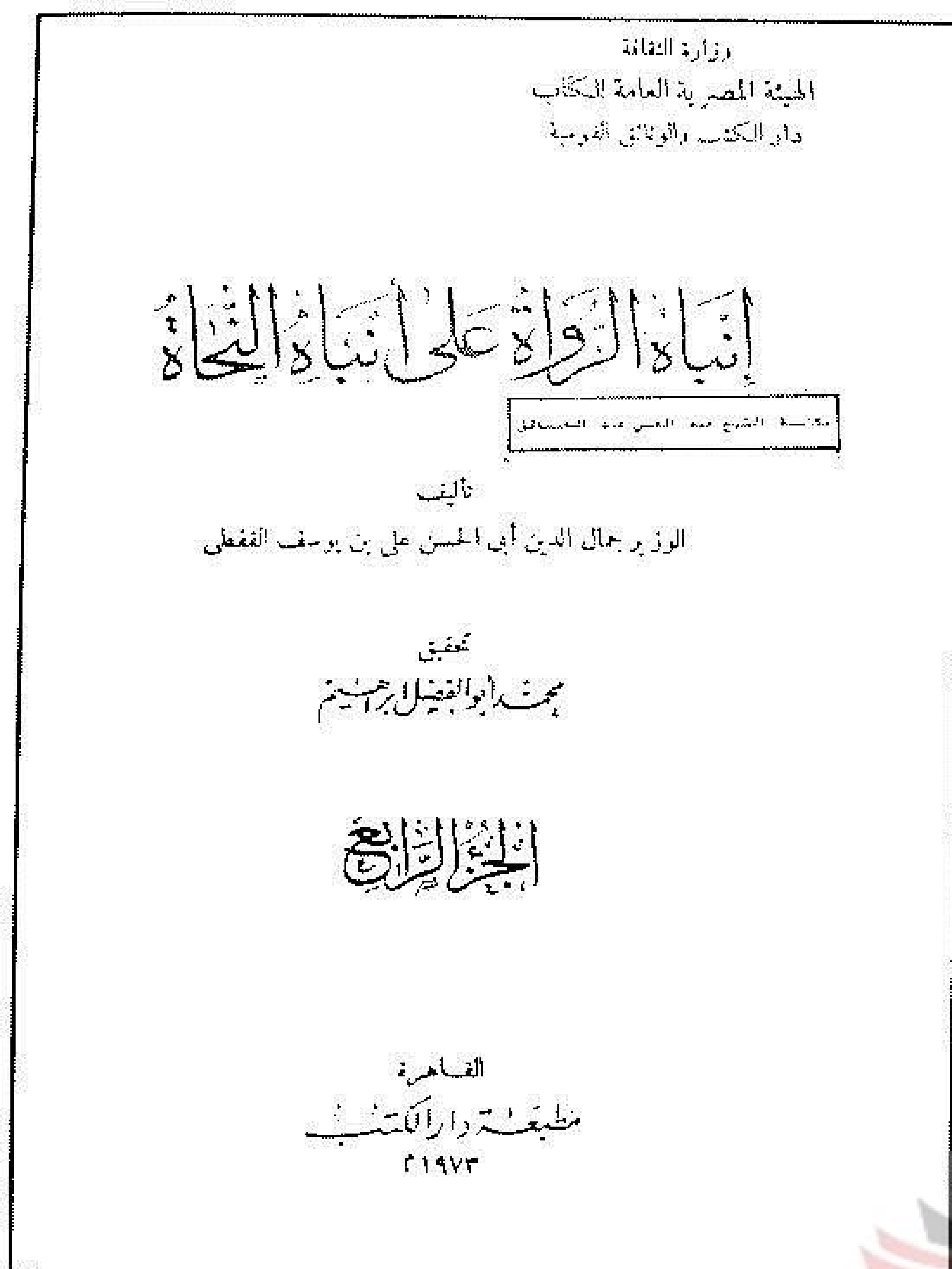
قضى طفولته الأولى في قفط، ثم تركها إلى القاهرة حيث قصر نفسه على طلب العلم، متنقلاً بين مدارسها الكثيرة باحثاً عن أفاضل العلماء، وممن لقيهم: محمد بن محمد بن بنان الأنباري، وكان شيخاً فاضلا، يتصدر للإقراء، فلزمه، وأخذ عنه سماعاته، وأجازه من في رواياته، وسمع منه كتاب «الصحاح» للجوهري.

ثم ترامت إليه أخبار أبي طاهر السِّلفي نزيل الإسكندرية، وعالمها في ذلك الحين فلزم حلقته واستفاد منه.

ثم عاوده الحنين إلى قفط فعاد إليها مكتمل العقل، وقد نهل من فنون العلم، وهناك خالط علماءها وناظر أدباءها.

وأتيحت له فرصة الالتقاء بصالح بن عادي العذري نزيلها، وكان ممن نبغ في النحو وتتبع مسائله، وجمع شتاتها، وأحاط بأصوله، وعرف مقيسه وشاذه، فلزمه واستفاد منه وحمل عنه علماً كثيراً.

ثم رجع إلى القاهرة للإقامة في رحابها فترة لكنها لم تطل، إذ سافر مع والده عام


وزارة الثقافة
الهيئة المصرية العامة للكتاب
دار الكتب والوثائق القومية

إنباه الرواة على أنباه النحاة

تأليف
الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي

تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الرابع

القاهرة
مطبعة دار الكتب
١٩٧٣م

٥٩١ هـ إلى بيت المقدس، حين ولي والده أمرها من قبل الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين. وهناك في رحاب القدس الشريف عشق مجالس أهل العلم والأدب، أحبه الناس وأحبهم، عزف عن السلطان برغم إغرائهم له، مؤثراً أندية العلم على دواوين الحكم.

ولما ترك والده الوزارة بالقدس بعد أن عصفت بها أحداث نبا به المنزل فيها فاتجه إلى حلب فوجد فيها مجالس زاخرة للعلم والأدب طابت بها نفسه، ووجد المكان الذي اطمأن له العيش فيه[٥].

وفي هذه الفترة التقى بجماعة من العلماء المقيمين في حلب، والوافدين عليها، واستفاد بمحاضراتهم، وفقه بمناظراتهم، وأخذ يقتني الكتب على اختلاف فنونها، وطارت شهرته

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في الآفاق، ووفد إليه العلماء في حلب، ومنهم ياقوت الحموي صاحب معجم الأدباء، فأنزله القفطي في داره، وأفرد له مكاناً في مجلسه، وعرف ياقوت منه الفضل والعلم فأذاع أمره في كل محفل، وروى عنه فيما صنف من كتب، وأهدى إلى خزانته كتابه «معجم البلدان».

ثم فُرض عليه الجاه والسلطان وهو يفر منهما، لكن صديق والده ألزمه أمر الديوان في حلب فقبله على مضض، فأحسن السياسة، ورفع الشكاية، واطمأن الناس، ولما مات ميمون سنة ٦١٠ هـ وتولى بعده ابنه العزيز أراد القفطي العزلة ليخلو للمطالعة والكتابة ولكن الجاه فرض عليه مرة أخرى، فتولى أمر الديوان.

ثم حاول مرة أخرى أن يخلع عن عنقه ربقة الإمارة ويعفي نفسه من تكاليف السلطان ليخلو للمطالعة والتأليف، وتمَّ له ذلك الأمر فترة أخرى من الزمن في رحاب حلب. لكن الملك العزيز كان حدثا، ثم شبَّ عن الطوق، واستقل بالملك ألقى بين يدي القفطي بزمام الوزارة، ولم يجد مناصا من قبول هذا التكليف الذي قام به أحسن القيام فأخلص النصيحة، واجتهد في المشورة، وتوخى الرشد، والتزم القصد حتى توفي العزيز، وتولى بعده ابنه الناصر[٦] صغير السن، فظل القفطي وزيراً له يدبر الأمر أحسن تدبير إلى أن توفي سنة ٦٤٦ هـ ودفن بحلب.

علمه ومصادر ثقافته

تعددت المناهج الثقافية التي استقى منها القفطي، وصار بها عالماً مبرزاً بين العلماء ووجيهاً بين الأمراء وأصحاب الجاه، ونستطيع أن نوجز ذلك فيما يلي:

١ - أسرته أسرة علم وفضل، وقفط مسقط رأسه مدينة علم، ومهوى علماء وأدباء وكانت أمه بدوية من عرب قضاعة، فصيحة مطبوعة تحفظ الشعر وترويه.

٢ - رحلاته بين بلده قفط والقاهرة والإسكندرية، والقدس الشريف، وحلب ولقياه العلماء في شتى العلوم والفنون، وحضوره مناظراتهم ومحاوراتهم والحديث في المعقول والمنقول مما فتق القريحة، وفجر ينابيع المعرفة، بجانب تيسر الكتب له فعب ونهل، وخلا للقراءة والتدوين خلوة محب عاشق، حتى إن الجاه عندما كان يأتيه بإغراءاته كان يقبله على مضض، وعلى استحياء أيضا



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فكان مبدعاً في وزارته كما كان مبدعاً في تصانيفه.

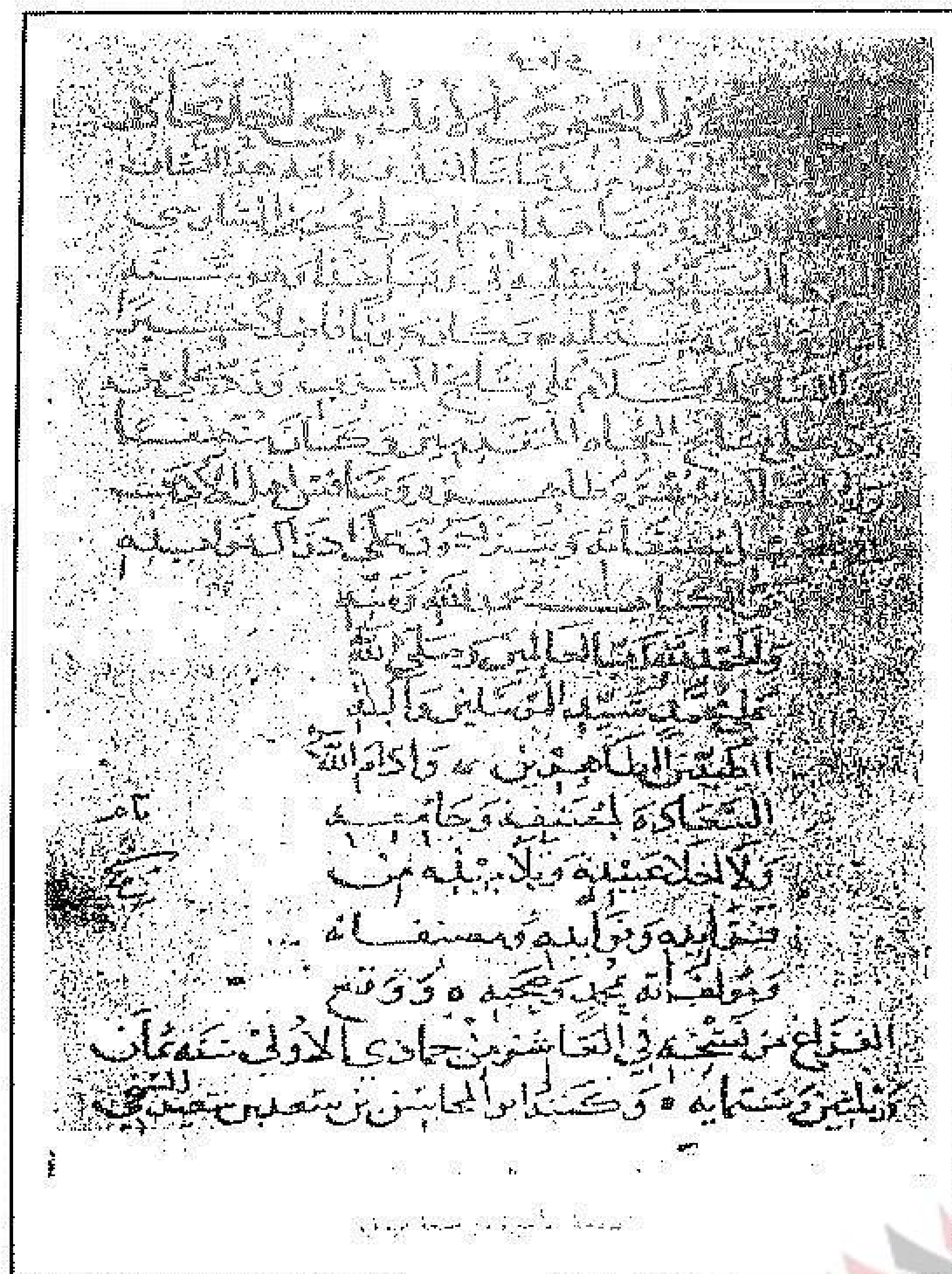
٣ - ولعه باقتناء الكتب، وقد يسرت له ظروف حياته إشباع هذه الرغبة، فاقتنى من الكتب نوادرها وفرائدها، واشتدت هذه الرغبة في فترة إقامته في حلب، وطارت شهرته بذلك، فتوافد عليه الوراقون، والنساخون، وباعة الكتب، وقد علمنا أن ياقوت زاره وأهداه كتابه «معجم البلدان».

لقد بذل ماله في شراء الكتب، وأنفق وقته في حفظها وترتيبها، حتى أصبحت داره قبلة للكتاب، إذ كان يضاعف الثمن، ويجزل العطاء حسب قيمة الكتاب.

ونلحظ في كتابه «إنباه الرواة» أنه كثيراً ما يفخر بأنه اقتنى كتاباً بخط مؤلف معروف أو ناسخ مشهور، أو عثر على نسخة فريدة من كتاب لا توجد عند سواه.

يقول ابن شاكر الكتبي عن القفطي: «جمع من الكتب ما لا يوصف، وقصد بها من الآفاق وكان لا يحب من الدنيا سواها، ولم تكن له دار ولا زوجة، وأوصى بكتبه للناصر صاحب حلب وكانت تساوي خمسين ألف دينار»[٧].

مثل هذا الإنسان المحب للكتب بهذه الصورة لا بد أن يكون علامة على طراز فريد، وأوجدت فيه هواية جمع التعليقات والفوائد والطرف التي تعوّد العلماء أن يضعوها على ظهور الكتب، ولما تجمّع له قدر كبير منها جعلها كتاباً سمّاه: «نهزة الخاطر، ونزهة الناظر في أحاسن ما نقل من ظهور الكتب».



من هذه المنابع كان القفطي مثقف عصره، متفرداً في التاريخ والأخبار، وإذا نظرت لمصنفاته وجدتها تخدم هذا الاتجاه مع تمكن من اللغة والأدب شعراً ونثراً.

وحسبنا في هذا الصدد أن نثبت مقالة صديقه ياقوت الذي سجل له سعة الثقافة وسمو الأدب.

قال : اجتمعت بخدمته في حلب، فوجدته جم الفضل كثير النبل عظيم القدر، سمح الكف طلق الوجه حلو البشاشة، وكنت ألازم منزله، يحضره أهل الفضل وأرباب العلم، فما رأيت أحداً فاتحه في فن من فنون العلم كالنحو واللغة والفقه والحديث وعلم القرآن والأصول والمنطق والرياضة والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل وجميع فنون

العلم على الإطلاق إلا قام به أحسن قيام، وانتظم في وسط عقدهم أحسن انتظام[٨] وبرهان ثقافته... هذه المصنفات.

١ - إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء (جـ ٢ ص ٨٧) واختصره الزوزني باسم: المنتخبات الملتقطات من كتاب تاريخ الحكماء. طبع بمطبعة السعادة ١٣٢٦هـ.

٢ - أخبار المتيمين. ذكره ياقوت، وابن شاكر في فوات الوفيات، وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب.

٣ - أخبار المحمدين من الشعراء. منه نسخة بدار الكتب رقم ٢٢١٧ تاريخ، واصل النسخة كان بالأزهر، وكتبت سنة ١١٥٦ هـ.

٤ - أخبار مصر من ابتدائها إلى أيام صلاح الدين. ذكره ياقوت والأدفوي في الطالع السعيد، والسيوطي في البغية.

٥ - أخبار المصنفين وما صنفوه. ذكره ياقوت، وابن شاكر.

٦ - إصلاح خلل الصحاح. ذكره ياقوت والسيوطي وابن العماد الحنبلي.

٧ - إنباه الرواة على أنباه النحاة. طبع وحقق.

٨ - شرح المفصل. ذكره صاحب كشف الظنون، ص ١٧٧٥.

٩ - شرح الضاد والظاء. ذكره ياقوت وابن شاكر والسيوطي في حسن المحاضرة وصاحب كشف الظنون.

١٠ - المحلى في استيعاب وجوه كلا ذكره ياقوت وابن شاكر والسيوطي في البغية.

١١ - نهزة الخاطر، ونزهة الناظر في أحاش ما نقل من ظهور الكتب. ذكره ياقوت وابن شاكر وابن العماد.

هذا عدا كتب كثيرة ذكرتها المراجع، وكلها تاريخ وتراجم. مما يدل على أن التاريخ شغل جانباً كبيراً من اهتماماته التصنيفية.

مقدرته الأدبية

عرف القفطي بأنه ناثر وشاعر

أما نثره فقد كان صاحب ديوان لأمير حلب، وأبوه كان رئيساً للديوان أيام صلاح الدين، وينوب في هذا الأمر عن القاضي الفاضل، وقد تخرج على أبيه في هذا الفن، وتمرّس به، وأثر عنه كثير من الرسائل، وأدبه المنثور يظهر في مواطن عدة من كتابه إنباه الرواة، حتى كتاباته التاريخية التي توفر عليها، فيها طلاوة أدبية.

وكان يسير على طريقة القاضي الفاضل في تنميق اللفظ، والاحتفال بالسجع، والاتجاه إلى التورية والجناس، يستوي في ذلك إخوانياته، وديوانياته، أو ما سال به قلمه من تراجم ورسائل.

ومن رسائله : «وإذا ركبت أشهب النهار لنيل مرام ركبوا أدهم الليل لنقض ذلك الإبرام، وإن سمعوا منى قولاً أذاعوا، وإن لم يسمعوا اختلقوا من الكذب ما استطاعوا، وقد

صرت كالمقيم مع أفاع لا يأمن لسعها، وكالمجاور لنار يتقي شرها، ويستكفي لذعتها، والله المسؤول عن توسيع الأمور إذا ضاقت مسالكها، وهو المرجو لإصلاح قلوب الملوك على مماليكهم إذ هو رب المملكة ومالكها...[٩].

وأما شعره ففيه ملامح الصنعة وسمات التكلف، ويبدو أن ولعه بالدرس اللغوي والنحوي كان واضح الأثر فيما قاله من شعر، يقول:

تعرب في الهيجاء أسيافه
عن حركات مثل لفظ اللسان

كسر وفتح ببلاد العدى
وبعده ضم لمال مهان[١٠]

لقد استخدم في هذين البيتين - كما نرى - عدداً من المصطلحات النحوية مثل: الإعراب والكسر والفتح والضم.

ويبدو أن هذا أمر تعشقه علماء الصعيد الأعلى، وذلك راجع إلى مزيد اهتمام بهذه الصناعة.

روى ابن هشام[١١] قال: من محاسن بعض الفضلاء أنه كتب من مدينة قوص إلى الشيخ العلامة بهاء الدين محمد بن النحاس الحلبي - رحمه الله - يتشوق إليه، ويشكو له نحوله فقال:

سلم على المولى البهاء وصف له
شوقي إليه وأنني مملوكه

أبداً يحركني إليه تشوقي
جسمي به مشطوره منهوكه

لكن نحلت لبعده فكأنني
ألف وليس بممكن تحريكه

فهنا تناول الرجل في رسالته للبهاء الحلبي عدة مصطلحات نحوية وعروضية تؤكد الاهتمام بالقضايا اللغوية.

القفطي نحوي ومؤرخ للنحاة

لقد كان القفطي مبرزاً في علوم شتى ما بين نظرية وتجريبية، وقد ذكر السيوطي[١٢] وغيره في ترجمته معرفته بالرياضة والفلك والهندسة بجانب معارف أخرى دينية ولسانية وتاريخية، وأجاد في ذلك كله، غير أن تميزه في الدرس النحوي واللغوي بارز من بين الفنون التي أحاط بها.

ومن دلائل ذلك تميزه في النثر الفني والإنشاء. ونظرة واعية لتصنيفاته تكشف لنا هذه الحقيقة.

فله مؤلف في إصلاح ما وقع في كتاب الصحاح للجوهري من خلل، وتتبع مؤلف في اللغة مثل الصحاح يدل على دراسة لغوية واعية، إذ لا يتصدى لمثل هذا الأمر إلا متمكن منه وكذلك كتاب الضاد والظاء، الذي يتناول قضية تعد من دقائق الدرس اللغوي. كما تشير المراجع إلى أنه شرح المفصل للزمخشري، وتصديه لشرح مثل هذا الكتاب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الذي يعد من أمهات الكتب النحوية وأجمعها يدل على علاقة وثيقة بهذه الصناعة، بل أكثر من هذا عند ما يفرد القفطي مصنفاً في استيعاب وجوه كلا – وهي قضية نحوية دقيقة – إنما يكشف لنا عن دراسة واعية متخصصة.

لكن الذي نأسف له أن هذه المؤلفات النحوية واللغوية لم يتيسر للباحثين العثور عليها، قد تكون حبيسة في بعض المكتبات، أو أنها تلفت مع مكتبته الزاخرة التي ضمت أنواع المصنفات في شتى العلوم عندما أغار التتار على حلب.

لكن بين أيدينا شاهد وأي شاهد على ارتباط الرجل بالدرس النحوي، وهذا يتمثل في أنه ألف موسوعة عظيمة شاملة في تاريخ النحاة، تعد من أوسع المصنفات في هذا الاتجاه، مما يجعلنا نعده بحق مؤرخاً للنحاة في عصره، ومدداً لمن كتب في هذا الموضوع بعد عصره.

إن القفطي في أعماقه فكر مؤرخ، والتاريخ يغلب على أكثر مصنفاته. فقد ذكرت له المراجع نحو سبعة وعشرين مصنفاً، منها نحو ستة عشر مصنفاً في تاريخ الأمم والأشخاص والأنساب.

أما مؤلفه الموسوعي في تراجم النحاة فهو: إنباه الرواة على أنباه النحاة وكان هذا المؤلف صورة للعصر الذي صنف فيه، أعني عصر الموسوعات التي تضم أشتاتاً من المعرفة من شرق البلاد وغربها أي من فارس شرقاً إلى الأندلس غربا فضم تراجم لكل من له صلة بالنحو واللغة. ولنترك القفطي يتحدث عما فعله في تصنيف هذا السفر القيم.

يقول: «وذكرت مشايخ علمي النحو واللغة ممن تصدر لإفادتهما تصنيفاً، وتدريساً ورواية في أرض الحجاز، واليمن، والبحرين، وعمان، واليمامة، والعراق، وأرض فارس، والجبال وخراسان، وكرم سير، وغزنة، وما وراء النهر، وأذربيجان، والمذار وأرمينية، والموصل، وديار بكر، وديار مضر، والجزيرة، والعواصم، والشام، والساحل ومصر، وعملها، ووسط المغرب وأقصاه وجزيرة الأندلس، وجزيرة صقلية»[١٣].

وقد تناول القفطي في هذا السفر القيم نحو ست وسبعين وتسعمائة ترجمة ضمنها حياة أعلام نحويين ولغويين.

وبين يدي هذا الكتاب تمهيد تحدث فيه عن نشأة النحو، وأول من تحدث فيه ووضع قواعده، وانتهى إلى ما انتهى إليه جمهور الباحثين من أن علي بن أبي طالب أول من تكلم في هذا الشأن، وأن أبا الأسود الدؤلي تصدى لوضع القواعد الأولى فيه. ولأجل ذلك بدأ كتابه بالترجمة لعلي بن أبي طالب، ثم بترجمة مستفيضة لأبي الأسود الدؤلي.

وأخذ بعد ذلك في الترجمة لمن أتى بعدهما من النحاة، مرتباً إياها على حروف المعجم، بادئاً بمن بدىء اسمه بالهمزة، ثم الباء، ثم التاء، وهكذا غير مراع الترتيب بين الأعلام حسب الحروف الثواني، والثوالث[١٤] إذا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اشتركت في البداية بحرف واحد.

كما أنه ترجم لكل من له أدنى صلة بالنحو واللغة حتى إنه ترجم للمعري، وابن طباطبا. وتراجمه لأكثر الأعلام مستفيضة، تضم معارف متعددة وأخباراً شتى.

وليس في هذه الموسوعة التاريخية للنحاة ما يشير لزمن تأليفها، إلا أنه من الثابت أن هذا الكتاب صنف قبل سنة ٦٢٦ هـ، وهي السنة التي توفي فيها ياقوت، وذلك لأن ياقوت أشار إلى هذه الموسوعة في تاريخ النحو في كتابه معجم الأدباء.

أما المصادر التي استمد منها القفطي معارفه عمن ترجم لهم فتتمثل في مصدرين:

أولهما : المصنفات التي صنفت قبله في الأخبار والسير والتاريخ وتراجم الشخصيات، ونذكر منها بعض ما أشار إليه القفطي في كتابه، مثل: تاريخ دمشق لابن عساكر، وتاريخ مصر لابن يونس، وتاريخ غرس النعمة للصابي، والمقتبس في تاريخ الأندلس لابن حيان والصلة لابن بشكوال، وأخبار النحويين لابن درستويه، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي، والمقتبس في أخبار النحويين واللغويين للمرزباني، والفهرست لابن النديم، وخريدة القصر للعماد الأصفهاني.

وأخذه من هذه المصادر جاء على صور عدة، فأحياناً يذكر صراحة أنه نقل منها، وفي أحيان أخرى ينقل دون أن يصرح بالمصدر، لعله اعتمد على شهرة النص في عصره، ونسبة ما فيه إلى أعلام معاصرين.

بقي الجانب الآخر، وهو معارفه الخاصة التي تلقاها عن شيوخه وأعلام عصره، أو أفادها من مجالسه في حلب، أو كاتبه بها العلماء من مختلف الأمصار.

وللقفطي من هذه المعارف عن الأعلام، ومصنفاتهم واتجاهاتهم العلمية مدد زاخر، أودعه في كتابه هذا.

ومما ينبغي لنا أن نعلمه أن كثيراً من الحقائق التي نثرها في كتابه كان متفرداً بها أو ناقلاً إياها من كتب لم تتيسر لسواه.

ومن هنا كان هذا الكتاب في تاريخ النحاة يعدّ قيمة علمية نادرة.

وطريقته في الترجمة لأعلام النحو أن يذكر المترجم له باسمه، ثم يتبعه بشهرته ويستطرد بعد ذلك بذكر أخباره، ويعدد كتبه إلى نحو ذلك من المعارف.

وأحياناً يترجم للشخص مرتين، مرة باسمه، وأخرى بكنيته.

وقد يتجاوز حد الرواية والنقل إلى التحليل والنقد، وقد يبدي رأيه في بعض معاصريه الذين ترجم لهم في صراحة لا تعرف التلميح.

ذلك هو القفطي... عالم موسوعي متمكن من لسانه، ومن آداب قومه، مُلِمٌّ بشتى المعارف، محب للكتاب يقتنيه، ويحتفي به، ويسخر سلطانه للحصول عليه، ويتعلم ويعلم ثم يقدمه للأمة مصنفات تشهد بغزارة علمه وسعة فضله.

والنحاة واللغويون يذكرون له أنه خير من أرّخ لهم.

رحمه الله رحمة واسعة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحواشي

١ – انظر معجم البلدان، ٣: ٥٥، ٥٦.

٢ – انظر معجم الأدباء، ص ١٧٨ وما بعدها.

٣ – انظر معجم البلدان، ٣:٥٥ وما بعدها.

٤ – انظر فوات الوفيات، ٢:١٢١.

٥ –المصدر ذاته.

٦ – هو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز بن غازي بن صلاح الدين الأيوبي، كان صاحب حلب، ثم صاحب الشام. ولي بعد موت أبيه سنة ٦٣٤ هـ، وانتهت حياته بمحنة؛ إذ قتل على يد هولاكو ملك التتار، انظر النجوم الزاهرة، ٧:٢٠٥.

٧ – فوات الوفيات، ٢:١٢١.

٨ – معجم الأدباء، ٥:١٧٨ وما بعدها.

٩ – معجم الأدباء، ٥:١٧٩.

١٠ – المرجع السابق، ص ١٨٤.

١١ – انظر شذور الذهب، ص ٦٥.

١٢ – بغية الوعاة، ٢:٢١٢.

١٣ – إنباه الرواة، ١:٣٦.

١٤ – صرح القفطي بأن الترتيب لم يكن من عمله وإنما كان من عمل الناسخ، انظر إنباه الرواة، ١:٢٧٦.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أهم مراجع البحث

– ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : دار الكتب المصرية، ١٣٤٨ هـ = ١٩٢٩ م.

– ابن هشام ، أبو محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف . شذور الذهب في معرفة كلام العرب . تـ محمد محيي الدين عبد الحميد. د. م، د. ت.

– الحموي ، ياقوت . معجم الأدباء : دار الكتب المصرية، ١٩٥٥.

– الحموي ، ياقوت . معجم البلدان . بيروت، ١٩٥٥.

– الحنبلي ، أبو الفلاح بن العماد . شذرات الذهب في أخبار من ذهب . القاهرة : مطبعة القدس، ١٣٥٠ هـ.

– خليفة ، حاجي . كشف الظنون من أسامي الكتب والفنون . بغداد : منشورات مكتبة المثنى . بيروت والقاهرة : دار الفكر، ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م.

– السيوطي ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن . بغية الوعاة من أخبار اللغويين والنحاة . تـ محمد أبو الفضل إبراهيم . بيروت : المكتبة العصرية، ١٩٦٤.

– السيوطي ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن . حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . القاهرة : مطبعة الموسوعات.

– القفطي ، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف . إنباه الرواة على أنباه النحاة . تـ محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة : دار الفكر العربي، ١٩٨٦.

– الكتبي ، محمد بن شاكر . فوات الوفيات . تـ محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة : مطبعة السعادة، ١٩٥١.

من أعلام المغرب العربي

ابن حبوس

(٥٠٠ - ٥٧٠ هـ / ١١٠٦ - ١١٧٤م)

الأستاذ عبد القادر زمامة
فاس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ابن حَبُوس شاعر مغربي، كانت له شهرة ومكانة في تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، وعرفته عدة أمصار في الأندلس، زيادة على أمصار المغرب العربي من فاس، ومراكش، وتلمسان، والمهدية. ورافق الخليفة عبد المؤمن بن علي الموحّد في حركاته الشهيرة في الأندلس والمغرب العربي.

فشهرة هذا الشاعر أمر واقع داخل بلاده وخارجها. لكننا إذا أردنا أن ندعم هذه الشهرة بمعلومات عن مراحل حياته. ونصوص من آثاره. وجدنا أنفسنا أمام الموقف المكرّر المعهود.

وإذا تخطينا هذا نجد أن الشاعر ابن حبوس كان بالنسبة لغيره من الشخصيات المحجوبة عنا آثارها وأخبارها محظوظاً - في الجملة - حيث إن حياته في الأندلس ومعرفة الأندلسيين به وتكراره لزيارة أمصارهم في عهدي المرابطين والموحدين جعلته يحظى باهتمامهم في بعض الكتب التي ألفوها والتي تهتم أساساً بتراجم أعلام الأندلسيين وأعلام الوافدين على الأندلس الذين كانوا يترجمون لهم تحت عنوان الغرباء.

وهذه الحظوة بالنسبة لابن حبوس الذي ترجمته بعض الكتب الأندلسية بوصفه من أهل العلم والرواية الوافدين على الأندلس كانت سبباً مباشراً في حظوة أخرى نالها ابن حبوس من المؤرخ المغربي الحافظ محمد بن عبد الملك المراكشي المتوفى سنة ٧٠٣ هـ =

١٣٠٣ م مؤلف كتاب «الذيل والتكملة» حيث أعطاه بعض ما يستحق من اهتمام. وجمع له بعض الآثار في ترجمة ما تزال إلى الآن أوفى ترجمة كتبها الأقدمون لابن حبوس. وذلك في الجزء الذي خصصه للغرباء، ومنها استمد الباحثون المعاصرون ما كتبوه عنه.

وشيء آخر حظي به ابن حبوس وهو أنه رزق ولداً باراً حريصاً على تراث أبيه، اسمه عبدالله، اتصل به المؤرخ عبد الواحد المراكشي مؤلف كتاب «المعجب» فأعطاه معلومات عن والده ابن حبوس. كما أطلعه على حكاية طريفة كتبها والده بخطه وأسلوبه، سجل فيها بعض ما صادفه في مدينة شِلْب غربي الأندلس من حظ سعيد أيام المرابطين.

والمراكشي كتب «المعجب» بالمشرق. وجمع كل ما أسعفته به ذاكرته من مآثر بلاده. وأخبار أعلامها فيه. ومن جملة ذلك أخبار الشاعر ابن حبوس. وقد صار هذا الكتاب في أمصار المشرق عمدة الدارسين ومصدر المؤلفين مدة طويلة من الزمن.

كل هذا جعلنا نقول - بعد البحث والاستقراء: إن ابن حبوس كان محظوظاً في الجملة. وهذا بطبيعة الحال لا يفيد أننا راضون مكتفون بهذا النزر من المعلومات حول شاعر مغربي كان في عصره ذا شهرة واسعة. وخلف ديواناً من الشعر. وقيل عن طريقته الشعرية إنها كانت شبيهة بطريقة الشاعر ابن هانىء الأندلسي المتوفى سنة ٣٦٢ هـ = ٩٧٣ م.

بل على العكس فإننا ندرس ما وصلنا من أخباره وآثاره حسب الإمكان متطلعين باستمرار إلى ما ستجود به علينا المصادر المحجوبة عنا من أخبار وآثار توسع دائرة البحث وتوجه الدراسة الوجهة المتوخاة من شمولية وعمق.

ضبط اسمه

هناك من ينطق باسم - ابن حبُّوس - بتشديد الباء المضمومة. كما أن هناك من ينطق به بتخفيفها.

وفي هذا الصدد ينبغي أن نشير إلى أن المؤرخ جمال الدين علي بن يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م نصّ في كتابه «المحمَّدون من الشعراء» الذي ترجم فيه لابن حَبُوس لكونه على شرطه... نص على ضبط اسمه فقال: «محمد بن حبوس بالحاء المهملة والباء ثانية الحروف المضمومة المخففة والسين المهملة.»[1].

وكذلك فعل المؤرخ ابن خلكان، المتوفى سنة ٦٨١ هـ = ١٢٨٢ م فأشار إلى ذلك في آخر ترجمة الشاعر الشامي أبي الفتيان محمد بن سلطان ابن حَيُّوس فقال في ضبط اسم الشاعر المغربي «وفي شعراء المغرب ابن حبوس مثل الأول. ولكن بالباء الموحدة المخففة.»[2].

ولم يشر المؤرخ ابن الأبّار البلنسي المتوفى سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م في ترجمته القصيرة التي كتبها لابن حبوس في كتابه «التكملة» حيث ترجم له مع «الغرباء» إلى ضبط اسمه بالحروف كما فعل المؤرخان

القفطي وابن خلكان. لكن الطابعين جعلوا شدة مع ضمة فوق الباء من كلمة حبوس[٣] ولعلهم كانوا يظنون أنهم صحّحوا هذا العلم المغربي لئلا يقع القراء في تصحيف. مع أن الأمر بخلاف ما ظنوا.

فهو ابن حبوس بتخفيف الباء لا بتشديدها... وقع هذا نفسه لمحققي كتاب «المطرب» لابن دحية الكلبي. ولمحققي كتاب «المعجب» للمراكشي.

وعند مراجعة معجم «تاج العروس» في مادة حاس نجد الشيخ مرتضى الزَّبيدي على عادته يشرح المادة التي كتبها الفيروزآبادي في «القاموس» ثم يستدرك عليها هذه الجمل: «وأبو عبدالله محمد بن الحيسي بن عبدالله بن حبُّوس كتنُّور الشاعر المفلق، روى شعره عبدالعزيز بن زيدان. توفي سنة ٥٨٠ هـ».

فالظاهر من هذا الاستدراك أن الشيخ مرتضى الزبيدي يريد أن يذكر الشاعر المغربي محمد بن حُسين ابن عبدالله ابن حَبُوس الفاسي المتوفى سنة ٥٧٠ هـ = ١١٧٥ م. ولكن وقع في هذا النص ما وقع. فكلمة الحُسَيْن صارت: الحيسي. وكلمة حبْوس، بالتخفيف = صارت حيّوس بالياء المشددة كتنُّور. وسنة ٥٧٠ هـ صارت سنة ٥٨٠ هـ. أما شخصية عبدالعزيز بن زيدان التي ذكرها الشيخ مرتضى فلا نعلم عنها شيئاً.



اشتهر ابن حبْوس شهرة واسعة في عصر خلافة الموحدين، ولا سيما في عهدي عبد المؤمن وابنه يوسف، حتى لقبه مؤلف كتاب «زاد المسافر» بشاعر الخلافة المهدية. ومن أجل هذه الشهرة وهذا اللقب نجد لابن حبوس أصداء في عدة كتب ألفت في عصره أو بعده بقليل أو كثير. وكان لبعض مؤلفي هذه الكتب صلة بدولة الموحدين. ويمكننا أن نستعرض هؤلاء المؤلفين كما يأتي:

١ - صفوان بن ادريس التجيبي المرسي المتوفى سنة ٥٩٨ هـ = ١٢٠٢ م أي بعد وفاة ابن حبوس بثمان وعشرين سنة؛ فقد ذكره في كتابه «زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر». وصدر به كتابه هذا ذاكراً له جملة من مقطعاته وأبياته المختارة. ولقد كان صفوان على صلة بالأمراء الموحدين، وهو أندلسي مرسي، ومشاعر الأندلسيين معروفة بالاعتزاز والفخر بكل ما هو من الأندلس. وتقديم الإنتاج الأندلسي على غيره. إلا أن صفوان بن إدريس الذي يعيش في ظلال خلافة الموحدين أيام عظمتها أراد أن يجامل الخلافة، فقدم في كتابه المذكور الشاعر ابن حبوس شاعر الخلافة المهدية... وإن كان في المقدمة قال: «ولم أتوخ بالتقديم فيهم ولا التأخير إشعاراً بمزية أو تنقص تعصب. بل ذكرتهم حسب ما يسر لي...»[٤].

٢ - عبدالملك بن صاحب الصلاة المتوفى أواخر القرن السادس الهجري «ظناً» فقد ذكره في كتابه أو على الأصح في القسم الذي بين أيدينا من كتابه، مرة واحدة بمناسبة فتح عبد المؤمن مدينة «المهدية» التونسية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكان ابن حبوس مصاحباً لعبد المؤمن. وحضر هذا الفتح وأنشد في ذلك شعراً.

إلا أننا نلاحظ باستغراب أن ابن صاحب الصلاة أهمل ذكر ابن حبوس في مناسبات أخرى كان ينبغي أن يذكره فيها، إذ إنه ذكر من كان معه من الشعراء الأندلسيين الذين أنشدوا عبد المؤمن. وأهمل ذكر ابن حبوس مع أن مصادر أخرى ذكرته وذكرت ما أنشده مع زملائه من الشعراء.

فهل ينبغي أن نفهم من ذلك أن ابن صاحب الصلاة غلبت عليه مشاعره الأندلسية فأهمل ذكر ابن حبوس لمغربيته[٥] كما أهمل ذكر الشاعر أبي العباس الجراوي شاعر الخلافة الموحدية المعروف. مع العلم أننا نتحدث عما نعرفه لحد الآن من تاريخ ابن صاحب الصلاة.

٣ - محمد بن علي بن حماد الصنهاجي القلعي المتوفى بمراكش سنة ٦٢٩ هـ = ١٢٣١ م. فقد ذكره في كتابه «أخبار ملوك بني عُبيد وسيرتهم» بمناسبة ما أنشده لما فتح عبد المؤمن مدينة المهدية التونسية. واستخلصها من يد الصليبيين وذلك سنة الأخماس المعروفة ٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م[٦].

٤ - عبد الواحد المراكشي الذي كان يؤلف كتاب «المعجب» في المشرق سنة ٦٢١ هـ = ١٢٢٤ م فقد ذكره بتقدير وإعجاب. ونقل بعض أخباره عن ولده عبدالله الذي أطلعه على بعض ما كتبه والده من ذكريات له في بلاد الأندلس[٧].

٥ - أبو الخطاب عمر بن حسن بن دحية الكلبي السبتي المتوفى سنة ٦٣٣ هـ = ١٢٣٥ م. فقد ذكره في كتابه «المطرب من أشعار أهل المغرب» بإعجاب، وعدّه من شيوخ العلم في المغرب في ذلك العصر. وتكرر اجتماعه به في كل من مراكش وفاس. وقد أفادنا ابن دحية بذلك إفادة سنشير إلى أهميتها فيما بعد[٨].

٦ - أبو علي حسين ابن القطان مؤلف كتاب «نظم الجمان» فقد ذكره في كتابه المذكور، وأفادنا بذكر قصيدة أنشدها في مدح عبد المؤمن ذاكراً فيها ما يحسنه من العلوم والمعارف الدينية والأدبية[٩].

٧ - أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي البلنسي المعروف بابن الأبار المتوفى سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م. فقد ترجم لابن حبوس بوصفه من شيوخ العلم والرواية ترجمة قصيرة مفيدة في كتابه «التكملة» وجعله ضمن «الغرباء» الوافدين على الأندلس[١٠].

٨ - محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي المتوفى سنة ٧٠٣ هـ = ١٣٠٣ م. فقد ترجم لابن حبوس في قسم «الغرباء» من كتابه «الذيل والتكملة» ترجمة حافلة هي - كما قلنا - لحد الآن أوفى ترجمة لابن حبوس وأفيدها فيما نعلم[١١].

وقد حصل في هذا القسم المخطوط من الغرباء ما أتى على بعض الجمل والكلمات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والأبيات. وشوَّه بعضها بحيث صرنا في ترجمة ابن حبوس وفي تراجم أخرى نقرأ بالحدس والتقدير. ولا نعلم أن هناك نسخة أخرى لهذا القسم المخطوط من الذيل والتكملة الذي يحمل رقم ٣٧٨٤ من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط... وهو الآن مطبوع بتحقيق الدكتور محمد ابن شريفة...

والمؤرخ ابن عذاري المراكشي الذي كان يكتب قسم الموحدين من تاريخه سنة ٧١٢ هـ = ١٣١٢ م[١٢] لم يذكر عن ابن حبوس شيئاً، مع أنه ذكر مناسبات ثبت تاريخياً أن ابن حبوس حضرها وأنشد فيها شعراً.

وكان من المنتظر أن يترجم أبو العباس ابن القاضي المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ = ١٦١٦ م لابن حبوس في كتابه «جذوة الاقتباس» إلا أنه لم يفعل، مع أنه على شرطه، وداخل في منهاج كتابه.

وإذا نحن تجاوزنا نطاق المصادر المغربية والأندلسية إلى نطاق المصادر الشرقية المهتمة بتراجم الأعلام فإننا نجد أمامنا معلوماتٍ لا بأس بها عن ابن حبوس عند مؤلفين مشرقيين هما:

١ - جمال الدين علي بن يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م الذي ألف كتاب «المحمدون من الشعراء» وذكر فيه ابن حبوس في ترجمة، نقل محتوياتها عن عالم أندلسي قرموني[١٣] رحل إلى المشرق. ويظهر أن هذا العالم الأندلسي كان على خبرة بسيرة ابن حبوس وأدبه. وإن كان قد أخطأ في روايته أن ابن حبوس أندلسي المولد[١٤].

[illegible] المتوفى سنة ٧٦٤ هـ = ١٣٦٣ م الذي ألف معجمه الكبير في الأعلام المسمى «الوافي بالوفيات»، وترجم فيه لابن حبوس ترجمة قصيرة[١٥].

هذه - حسب الاستقراء - هي أهم المصادر التي ينبغي الرجوع إليها في أثناء البحث عن الشاعر المغربي ابن حبوس الفاسي، ومنها تؤخذ المادة الأساسية لما أبقى عليه الزمن من أخباره وآثاره... وهناك عدة كتب ودراسات ومقالات تناولت شاعرنا هذا من عدة زوايا نذكر منها:

- مقال بالفرنسية كتبه Peras في موضوع شعراء فاس على عهدي المرابطين والموحدين نشر بمجلة Hesperis سنة ١٩٣٤.
- الترجمة التي كتبها القاضي عباس بن إبراهيم في كتابه «الإعلام» لابن حبوس ونقلها على ما فيها من نقص من كتاب «الذيل والتكملة» لابن عبد الملك المراكشي[١٦].
- مقال كتبه الأستاذ محمد الفاسي عن ابن حبوس بمجلة «الثقافة المغربية» في العددين ٤ و ٥ سلا، ١٩٤١.
- القسم رقم ٣٩ من سلسلة «ذكريات مشاهير رجال المغرب» للأستاذ عبدالله كنون، بيروت، ١٩٧٤. وكان هذا القسم قد نشر بمجلة «الثقافة المغربية»، العدد ٥ الرباط، ديسمبر ١٩٧١.
- مقال كتبه الأستاذ محمد ابن تاويت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بمجلة «الثقافة المغربية» العدد ٧، الرباط ١٩٧٢.

- بحث عن ابن حبوس نشرته مجلة كلية الآداب بالرباط لكاتبه عبدالقادر زمامة، العدد ٧ سنة ١٩٨٠.

وهناك ذكرٌ وإشارات وآثار لابن حبوس في الكتب المؤلفة في تاريخ الأدب العربي بالمغرب. وكذلك في الكتب المؤلفة في الأعلام... وليس من شأن تتبع ذلك أن يطلعنا على شيء جديد وأثر مكتشف فيه مصدر من المصادر المخطوطة أو المطبوعة، وقع الاطلاع عليه.

والمؤرخ ابن عبد الملك ينص على أن ابن حبوس نظم الشعر في صباه. وكان نظم الشعر وسيلة من وسائل الشهرة واكتساب التقدير عند الناس، ولا سيّما أهل العلم والمعرفة وأهل النفوذ والحكم.

كما ينص ابن عبد الملك أيضاً على شيخه الذي روى عنه. وهو أبو بكر الأبيض. وهذا الشيخ معروف في المصادر التاريخية بصفته الأدبية الشعرية أكثر مما هو معروف بصفات أخرى من أصناف الثقافة التي تروى وتؤخذ عن الشيوخ كالتفسير والحديث والفقه وغيرها. وهو إشبيلي ذكر له مؤلف كتاب «زاد المسافر» عدداً من المقطعات العشرية التي ينحو فيها منحى النقد الموجع والهجو المقذع في شخصيات أدبية وعلمية وسياسية وكأنه لا يحسن من أبواب الشعر إلا هذا الفن بالذات والمقطعات كلها على شرط المؤلف الذي وكل بجمع الأدب السافر. وقد نسب إليه الأبيات الشهيرة التي قيلت في نوع من الناس:

أهل الرياء لبستمُ ناموسكم
كالذئب يختل في الظلام العاتم

ولكتم الدنيا بمذهب مالك
وقسمتم الأموال بابن القاسم

وبأشهب شهب البغال ركبتم
وبأصبغ صبغت لكم في العالم[١٧]

كما ذكره العماد الأصبهاني في «الخريدة»[١٨] وابن دجية في «المطرب»[١٩] وابن سعيد في «المغرب»[٢٠]. وكانت نهاية هذا الشاعر الوشّاح الهجّاء الذي حبس نفسه في بيته ليحفظ كتاب «الغريب المصنف» على يد حاكم قرطبة الزبير المرابط الذي هجاه هجواً مقذعاً.

وبما أن هذا الشيخ قتل بعد الثلاثين وخمسمائة كما عند العماد الأصبهاني. وقاتله الزبير المرابط استشهد في معركة حربية سنة ٥٣٧ هـ كما يقول العماد أيضاً فإن شاعرنا ابن حبوس يكون قد أخذ عنه قبل هذا التاريخ. ويغلب على الظن أن ذلك كان بالأندلس أيام رحل إليها خوفاً على نفسه من المرابطين.

ومن سياق الترجمة التي أودعها المؤرخ الحافظ ابن عبدالملك المراكشي في سفر «الغرباء» من كتاب «الذيل والتكملة»، نجد أن شاعرنا رحل إلى مدينة تلمسان، ومكث بها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مدة قصيرة. ولا نستطيع أن نحدد زمن هذه الرحلة، بل لا نستطيع أن نعرف أسبابها وأهدافها ومدتها والرجال الذين لقيهم فيها.

كما أنه من سياق ترجمة ابن عبدالملك نجد شاعرنا يرحل إلى عاصمة مراكش. وأهداف هذه الرحلة واضحة في كلام ابن عبدالملك: فالشاعر تكاملت شخصيته، وذاعت شهرته، وأصبح له تطلّع إلى الاتصال برجال الدولة والحكام في العاصمة... ولكننا إذا فهما إجمال هذه القضية فإننا نجهل تفصيلها: فمن المؤكد - حسب قرائن الأحوال - أنه رحل إلى مراكش زمن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين... ومن المؤكد - حسب قرائن الأحوال - أيضاً أن ذلك قد تمّ والشاعر قد دخل في العقد الثالث من عمره أو كاد.

وهنا يأتي نص المؤرخ ابن عبد الملك:

«وكان في دولة لمتونة مقدماً في الشعراء حتى نقلت إليهم عنه حماقات، فهرب إلى الأندلس. ولم يزل مستخفياً ينتقل من بلد إلى بلد حتى انتقلت الدولة المرابطية».

ونحن نجهل طبيعة هذه الحماقات التي هرب ابن حبوس بسببها إلى الأندلس. كما أننا بصفة عامة لا نعرف تفصيلات أخرى عن حياة هذا الشاعر في عصر المرابطين، وقد عاش في ظل دولتهم ما يقرب من أربعين سنة.



عاش ابن حبوس نحو الثلاثين سنة في ظلال دولة الموحدين، واتصل بعبد المؤمن وابنه يوسف. والمصادر التي قدمناها تذكر مراجعة ابن حبوس لعبد المؤمن داخل المغرب وخارجه. كما تذكر بعض ما أنشده في بعض الأحداث. ومن أجل ذلك وغيره لقّب بشاعر الخلافة المهدية.

والنص الذي أتى به المؤرخ ابن القطان[٢١] وهو قصيدة يمدح بها شاعرنا عبد المؤمن ويذكر مزاياه العلمية والسياسية يدل على ثقافة ابن حبوس العلمية، كما يدل على المظهر العلمي والفكري الذي ظهر به عبد المؤمن أمام معاصريه بصفته خليفة المهدي وناشر علمه وأفكاره واتجاهاته الثقافية.

وابن حبوس كان من الشخصيات التي عرفت الوزير الشاعر أبا جعفر ابن عطية وله فيه شعر معروف في المصادر التي أشرنا إليها.

وحينما ودّع ابن حبوس هذه الحياة سنة ٥٧٠ هـ = ١١٧٤ م ترك دولة الموحدين في عصرها الذهبي سياسة وقوة وثقافة وأدباً.

وخلف ابن حبوس ديواناً من الشعر اطلع عليه صديقه ابن دحية السبتي، وصحبه معه إلى المشرق، وأهداه إلى بعض الأمراء[٢٢]، ولا نعلم - لحد الآن - عن هذا الديوان شيئاً...

والباقي لنا من شعر ابن حبوس في عصر الموحدين هو ما يوجد في المصادر التي ذكرنا.

وقد أفادنا ابن دحية أنه اتصل بابن حبوس في مراكش سنة ٥٦٤ هـ = ١١٦٨ م. كما أفادنا أنه اتصل به في مدينة فاس بداره بدرب السراجين منها...!

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المصادر والإحالات

١ - المحمدون من الشعراء . دمشق، ١٩٧٥، ص ٣٦٤.

٢ - وفيات الأعيان . تـ محيى الدين عبد الحميد. ٤:٧٠.

٣ - التكملة . القاهرة، ١٩٥٦. ٢:٦٧٧.

٤ - زاد المسافر . بيروت، ١٩٧٠، ص ٤٣.

٥ - المنُّ بالأمامة . بيروت، ١٩٦٤، ص ١٢٢ و١٧٠.

٦ - أخبار ملوك بني عُبيد وسيرتهم . الجزائر، ١٩٢٧، ص ١٠.

٧ - المعجب للمراكشي . القاهرة، ١٩٤٩، ص ٢١٣.

٨ - المطرب لابن دحية . القاهرة، ١٩٥٤، ص ٢٠٠.

٩ - نظم الجمان لابن القطان . تطوان، ص ١٣٤.



١٠ - التكملة . القاهرة، ١٩٥٦، ص ٦٧٧.

١١ - الذيل والتكملة . الرباط، ١٩٨٤، ٨:٢٤٣.

١٢ - البيان المغرب، عدة صفحات في أخبار الموحدين.

١٣ - قرمونة من مدن الأندلس، الروض المعطار . القاهرة، ١٩٣٧، ص ١٧٨.

١٤ - المحمدون من الشعراء . دمشق، ١٩٧٥، ص ٣٦٤.

١٥ - الوافي بالوفيات . بيروت، ٣:١٦.

١٦ - الإعلام . فاس، ١٩٣٧، ٣:٢٩.

١٧ - زاد المسافر، ص ١١٣ ونسبت في المعجب ص ١٧١ لغيره.

١٨ - الخريدة، قسم الأندلس والمغرب . تونس، ١٩٧١، ٢:٢٥٨.

١٩ - المطرب لابن دحية، ص ٧٦.

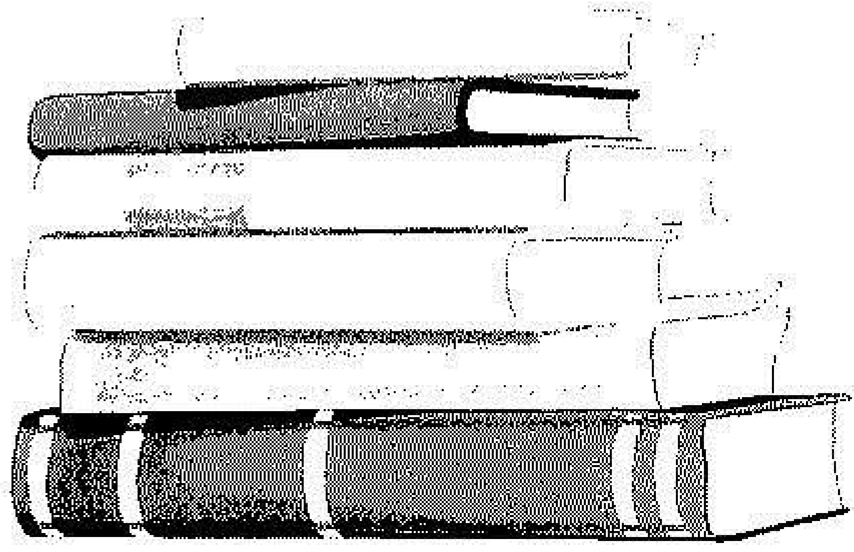
٢٠ - المغرب لابن سعيد، ٢:١٢٧.

٢١ - نظم الجمان، ص ١٣٤ - ١٣٦.

٢٢ - المطرب، ص ٢٠٠.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قراءة في لباب الآداب



الدكتور سمر روحي الفيصل
حمص



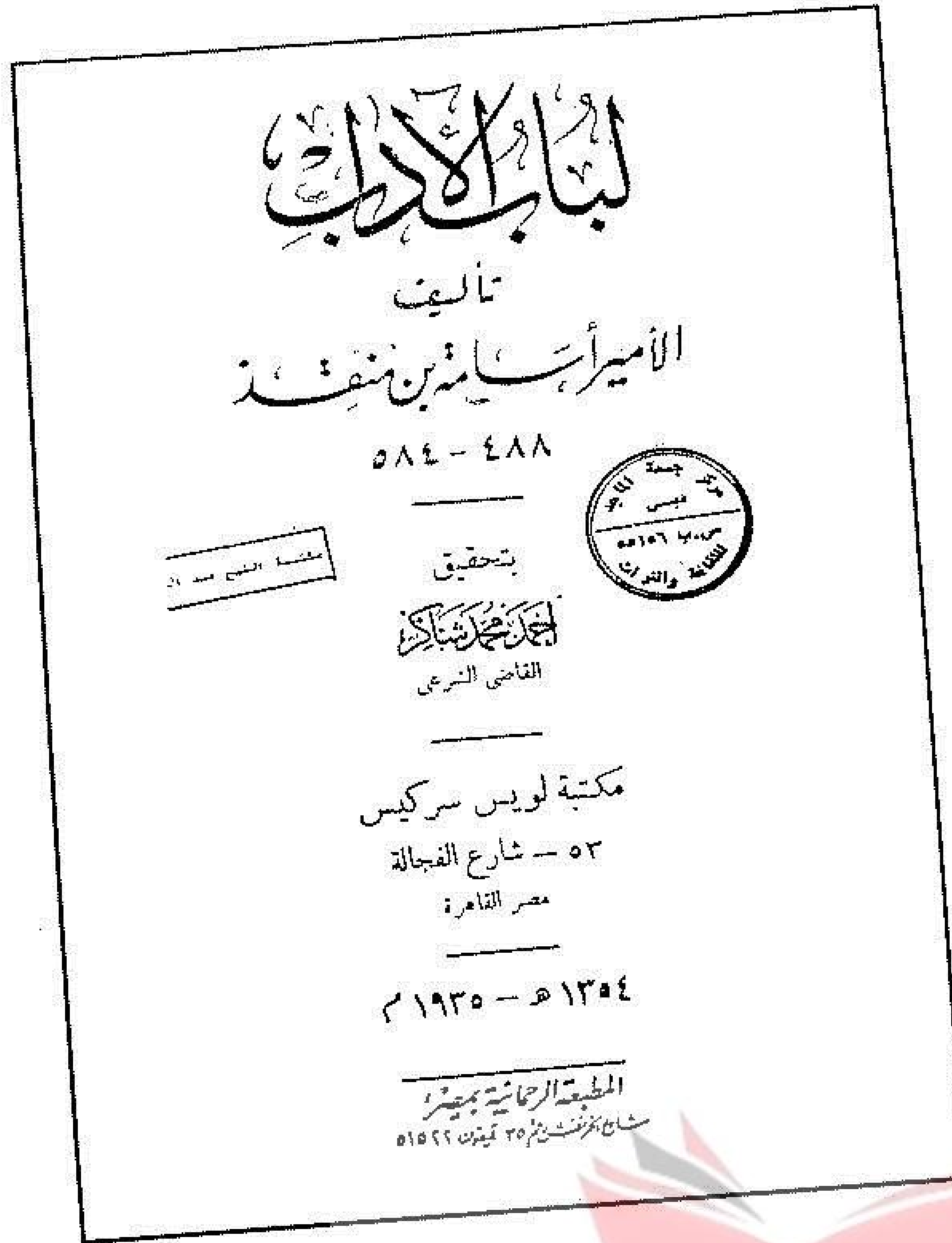
عني العرب بنوع جليل من التأليف، هو كتب الثقافة الأدبية العامة. وهذه الكتب لا تختصّ بفنّ واحد، ولا تهدف إلى الإحاطة بموضوعاتها، بل تأخذ من كلّ علم بطرف(1)، لأنها تفهم الأدب على أنه إلمام القارىء بطرف من التاريخ والفلسفة والحكمة والشعر والنثر. ولهذا السبب دُعيت بكتب الثقافة الأدبية العامة، كالحيوان والبيان والتبيين للجاحظ، والكامل للمبرّد، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والعقد الفريد لابن عبد ربه، والأمالي لأبي عليّ القالي، وغيرها. وقد أسهم أسامة بن منقذ (شيزر ٤٨٨ هـ - دمشق ٥٨٤ هـ) الفارس الشاعر الأديب في هذا النوع من التأليف، فقدّم للمكتبة العربية كتاب «لباب الآداب»، إضافة إلى كتب أخرى نملك بعضها كالاعتبار والديوان والبديع في نقد الشعر، ونعتقد أنّ بعضها الآخر مخطوط أو ضائع، كالتجائر المربحة والمساعي المنجحة، والتأسي والتسلّي، والتاريخ البدري، وأخبار البلدان...

أمّا «لباب الآداب»، وهو موضوع حديثنا، فقد حقّقه أحمد محمد شاكر عام ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م، وأُعيدت طباعة التحقيق نفسه ثانية عام ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م. في هذه الطبعة مقدّمتان لأحمد محمد شاكر،

وللدكتور يعقوب صروف الذي كان له فضل الكشف عن الكتاب وعرضه أول مرة في مجلة «المقتطف» عام ١٩٠٧ م. كما ضمَّ التحقيق فهارس للأبواب والأعلام وأيام العرب والأماكن والقوافي. وسأسعى هنا إلى تقديم

قراءة لهذا الكتاب، تنطلق من الرغبة في التعريف به، وتهدف إلى تقديم رأي فيه.

انتهى أسامة بن منقذ من تأليف كتاب «لباب الآداب» عام تسعة وسبعين وخمسمائة للهجرة قبل وفاته بخمس سنوات تقريباً، وهو ابن إحدى وتسعين سنة. أما بداية عمله في هذا الكتاب فترجع إلى عزلته في حصن «كيفا» التي امتدّت من خلافه مع نور الدين زنكي إلى قيام الدولة الأيوبية؛ أي أنها امتدت نحواً من عشر سنوات. وهذا أمر مقبول، لأن كتاب «لباب الآداب» ضخم (٤٦٨ صفحة من القطع الكبير)، يحتاج إنجازه إلى وقت وجهد لم يتوافرا لأسامة قبل عزلته في حصن كيفا. والظّنّ بأنه وضع في ذاك الحصن هيكل كتابه، وبدأ يملؤه بالاختيارات، ولكنه لم يفرغ منه، لأنه شغل عنه بالعودة إلى الحياة السياسية. وحين شارف على التسعين، وأصبح شيخاً يدبّ على عصاه، اضطر إلى ملازمة بيته واعتزال الحياة الرسمية، ومن ثمّ عاد إلى العمل في «لباب الآداب»، ولكنها عودة الشيخ الذي يملي على الناسخ، وليست عودة الشيخ القادر على الكتابة بيده. يعزّز ذلك ما ذكره يعقوب صرّوف من أنّ النسخة التي تحدّث عنها في مجلة المقتطف هي النسخة التي كُتبت في حياة أسامة عام ٥٧٩ هـ. وقد قُطعت الأوراق الأولى من أوائل أبوابها وأُبدلت بغيرها، وزيد فيها عدد من الآيات والأحاديث النبوية.



لباب الآداب
تأليف
الأمير أسامة بن منقذ
٤٨٨ - ٥٨٤
بتحقيق
أحمد محمد شاكر
القاضي الشرعي
مكتبة لويس سركيس
٥٣ - شارع الفجالة
مصر القاهرة
١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م
المطبعة الرحمانية بمصر

ورجّح صروف أن يكون أسامة نفسه نقّح كتابه بعد تبييضه ونسخه[٢]، وأنه أمر بقطع الأوراق الأولى من الأبواب، وأملى على الناسخ غيرها. وقضيّة إملاء كتاب «لباب الآداب» تُعلّل ما ذكرته من تأليف أسامة كتابه وهو ابن إحدى وتسعين سنة، وكان آنذاك ضعيفاً يدبّ على العصا، لا تسعفه ذاكرته على التدقيق في الاختيارات، وتصنيفها، وترتيبها داخل الأبواب. كما تُعلّل ما ذكره يعقوب صرّوف من أنّ الكتاب يضمّ مواضع من خطأ السّماع، أو تصحيف السّماع. وهذه المواضع ما كانت تخفى على أسامة لو نسخ كتابه بيده.

وليس لديّ ما يحدّد الحوافز التي دفعت إلى

تـألـيـف «لـبـاب الآداب» لأنَ أسـامـة لم يـمـهّد لكتـابـه بمقدمـة يـوضّح فيـهـا عمـلـه وهدفـه وخطّته. وربما ألقت حادثة السّفينة التي أقلّت أهل أسامة من مصر ضوءاً يعين على تحديد حافز من حوافز تأليف اللّباب، هو ضياع مكتبة أسامة، وفيها أربعة آلاف مجلد، في السفينـة بـعد أن أصابـهـا العطب في عكّا، واستولى الصّليبيّون على محتوياتها. وهناك ما يدلّ على أنّ أسامة حزن كثيراً على ضياع مكتبته، ولعلّ هذا الحدث حفزه على تأليف كتاب يجمع خلاصة ما كان قرأه في الكتب الضّائعة، إضافة إلى أنّ التأليف في كتب الأدب العامة كان سائداً في الحياة الأدبية العربية آنذاك، وهو - وحده - كافٍ لحفز أسامة على الإسهام في هذا الحقل من حقول التأليف.

ومن المفيد القول إن كتاب «لباب الآداب» يضمّ سبعة أبواب، هي: باب الوصايا - باب السياسة - باب الكرم - باب الشجاعة - باب الآداب - باب البلاغة - باب ألفاظ من الحكمة في معانٍ شتّى. وقد بنى أسامة الأبواب كلّها على نهج واحد، إذ كان يبدأ الباب بآيات من القرآن الكريم، فعدد من الأحاديث النبوية، ويختمه بطائفة من أقوال الكتّاب والشعراء. غير أنه لم يضع لكتابه مقدمة، ولم يذيّله بخاتمة، وأهمل الحديث عن الأسباب التي دعته إلى اختيار أبواب الكتاب. وهذا النقص يصعب تعليله وإن كانت أبواب الكتاب تدلّ على أنّ أسامة رغب في تقديم كتاب من كتب الثقافة العامة، يضمّ آيات وأحاديث وأقوالا مختارة من كتب التاريخ والبلاغة والأدب.

وإذا كان اختيار المرء وافد عقله كما ذكر ابن عبد ربّه في العقد الفريد[٣]، فإن أسامة بن منقذ قدّم اختيارات تنمّ على ثقافته الدينية والأدبية والفلسفية، بحيث أصبح «لباب الآداب» من أجود كتب الأدب وأحسنها[٤]، «غزير المادة في الموضوعات التي رُتّبت في تلك الكتب السبعة، يدلّ على اتّساع معرفة أسامة واطّلاعه على ما ورد عن الأقدمين من شعر ونثر، ومن مأثور قول وحكمة، إضافة إلى إعجاز القرآن وفنون البلاغة»[٥].

بل إن «لباب الآداب» يُعدّ من بين كتب أسامة الجياد، وهو يلي كتاب «الاعتبار» في الجودة والشهرة[٦] وحين نُنعِم النظر فيه نلاحظ الآتي:

أولاً :

تنمّ اختيارات أسامة في لباب الآداب على سعة مخزونه الثقافي. فهو يحفظ القرآن الكريم وقدراً كبيراً من الأحاديث النبوية والأقوال المأثورة وقصائد الشعراء. وقد أشار القدماء إلى هذا الأمر، وخصوصاً ما يتعلق بحفظه كثيراً من الشعر[٧] من ذلك ما نقله الحافظ الذهبي في «تاريخ الإسلام» عن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحافظ أبي سعد السمعاني، قال: «قال لي أبو المظفر [يعني أسامة]: أحْفَظُ أكثر من عشرين ألف بيت من شعر الجاهلية»[٨].

وإذا كان التشكيك في عدد الأبيات التي حفظها أسامة مقبولاً[٩] فإنَّ قدرته على الحفظ واستدعاء ما يحفظه لا مجال للشكِّ فيها. فكتاب «لباب الآداب» يدلّ على أنه كان يعتمد على ذاكرته اعتماداً كبيراً. إذ كان يذكر الأحاديث والأبيات الشعرية كما حفظها، دون أن يكلِّف نفسه عناء مراجعتها في مظانِّها. ومن ثَمَّ كثر لديه عدم تحديد أسماء الشعراء[١٠]، والاستشهاد بأحاديث ضعيفة[١١] أو منسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم[١٢]، وتكرار بعض ما سبق له ذكره في كتاب «الاعتبار»[١٣]، وتداخُل أبياتٍ من قصيدة بأبياتٍ من قصيدة أخرى للشاعر نفسه[١٤]. وهذه كلها صور من النقص في لباب الآداب، تدلّ على اعتماد أسامة على ذاكرته. ولو لم يكن يعتمد على هذه الذاكرة لاتَّضح له الضعف والتداخل والتكرار، ولما رأيته يقبل بذلك وهو الحريص على إفادة القارىء.

ثانياً :

إذا كان النقص دليل اعتماد أسامة على ذاكرته فإنّ كتاب لباب الآداب يضمّ مرويات كثيرة صحيحة، فكيف استوعبت ذاكرته هذا العدد الكبير من الأقوال والحكايات والقصائد والآيات القرآنية والأحاديث النبوية؟

أعتقد أن أسامة لم يكن يعتمد على ذاكرته وحدها، بل كان يضيف إليها النَّسخ من كتب الأدب والتاريخ. والملاحظ أنه لم يحدِّد المصادر التي نقل منها، اكتفاءً بذكر الرواة والقائلين. وهذه أمثلة من لباب الآداب توضِّح ذلك:

عن سليمان بن عياش قال:... (ص٩١).

قال مصعب الزّبيري : ... (ص ٩٢، ٩٥، ٩٩،٩٧).

عن عكرمة بن الأغرّ عن أبيه قال:... (ص ١٠٤).

قال الإسكندر:... (ص ٥٧).

وقالت الحكماء : ... (ص ٤١، ٧٠، ٧٢).

وقالوا : ... (ص ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٨، ٧١).

وقيل : ... (ص ٤٤، ٥٢).

وقال الحكيم : ... (ص ٥٤، ٥٦، ٥٨، ٥٩، ٧٤،٦٠).

وقال آخر : ... (ص ٥٤، ٥٥).

تدلّ الأمثلة على أنّ أسامة أهمل تحديد المصادر التي اختار منها مروياته، كما أهمل في أحايين أخرى اسم الرّاوي الذي نقل عنه. ولا تُضعف هذا الحُكم تلك المواضع القليلة التي حدّد فيها مصادره، كما فعل في إشارته إلى كتاب «الفرائد والقلائد» لأبي الحسن علي بن محمد الصّغاني[١٥]، وهو مؤلف مجهول لا نعرف شيئاً عنه[١٦]. صحيح أنّ إهمال المصادر أضرّ بقيمة «لباب الآداب»، ولكنّ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فضل أسامة باق، إذ حفظ لنا مرويّات ضاعت أصولها الأولى، كما هي حال مروياته عن كتب أبي الحسن المدائنيّ (١٣٥ - ٢٢٥ هـ). كما حفظ لنا مرويّات أخرى نستطيع بشيء من الجهد تحديد مصادرها، وخصوصاً الشعرية منها. وهذه المرويّات تدلّ على أنّ أسامة لم يبذل الجهد في نسبة المرويّات الشعرية إلى أصحابها الشعراء، مكتفياً بقوله المعتاد: «قال آخر» أو «قال الشاعر»[١٧].

ثالثاً :

يُخيَّل إليّ أنّ أسامة بن منقذ استند في اختياراته إلى حاجة أبواب كتابه إلى مرويّات معيّنة، ولم يستند إلى ذائقته الجمالية، وكأنّ تحديده أبواب كتابه فرض عليه اختيار مرويّات تصلح لأداء المعنى الخاصّ بالباب. وهذا العمل إن دلّ على شيء فإنّه يدلّ على أنّ أسامة جمّاعة أخبار وأشعار وأقوال، وعلى أنه كان يسعى إلى الإحاطة بما قيل في المعنى الذي يدور الباب حوله. والواضح عندي أنّ أسامة لم يُصنّف ما جمعه، ولم يلجأ إلى أيّ نوع من أنواع الترتيب، بل كان يحشد الآيات والأحاديث والأقوال والأشعار حشداً، سواء أكان حشدها منطقياً أم لم يكن. وقد توافر هذا المنطق أحياناً، فبدت المرويّات معبّرة عن جوانب المعنى، ولكنّ المنطق لم يكن له أثر في ترتيب المرويّات داخل أبواب الكتاب في الغالب الأعمّ، وهذا ما جعل المرويّات أكداساً من الكلام المفيد تفتقر إلى منهج أو طريقة تجعل القارىء ينتقل في أثناء قراءته من عصر إلى آخر، أو من جانب من المعنى إلى جانب آخر.

رابعاً :

لا أشكّ في أنّ «لباب الآداب» كتاب من كتب الثقافة الأدبية العامة. ولكنه كتاب يفتقر إلى الأصالة لسببين:

أولهما : عناية أسامة بمرويّات ذكرتها كتب الأدب والتاريخ السابقة، وعُنيت بها روايةً وترتيباً.

وثانيهما : فقدان مصادر بعض المرويّات التي اختارها.

والظنّ بأنّ المعاصرين أهملوا كتاب أسامة لغزارة مادّته وعدم تصنيفها. ولو عُنوا به لمنحوه الأصالة التي يفتقر إليها. من ذلك مثلاً ذكره أبياتاً من الشعر دون أن ينسبها إلى أصحابها. وهذا أمر يمكن استدراكه إذا حُقّق الكتاب تحقيقاً جديداً يضيف إلى التحقيق الرّائد الذي نهض به أحمد محمد شاكر، دون أن ينكر فضله في إخراج الكتاب والعناية به. ولا شكّ في أنّ التحقيق الجديد سيكشف عن أنّ أسامة اختار من دواوين الشعراء المغمورين قدراً كبيراً من الشعر. وهذا القدر يعين على جمع دواوين هؤلاء الشعراء،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويسهم في بناء الصورة الكلية للتراث الشعريّ العربيّ. أمّا الشعراء المعروفون فلم يكثر أسامة من اختيار أشعارهم. إذ اختار – على سبيل التمثيل لا الحصر – بيتين لكلٍّ من المتنبي وامرىء القيس، وثلاثة أبيات لطرفة والأعشى، وخمسة أبيات لزهير، وستة أبيات للفرزدق. ولم يختر شيئاً لأبي تمّام وتأبّط شرّاً وعمرو بن كلثوم والأخطل وغيرهم من الشعراء المعروفين. ولعلّ ذلك كلّه يقود إلى أنّ افتقار «لباب الآداب» إلى منهج واضح في الاختيار جنى عليه، وإن كان يتّسم بغزارة المادّة. كما يقود إلى أنّ هذا الكتاب كنز يحتاج إلى خبير ينقّب في محتوياته، ويعيد تصنيفها ليجعل الإفادة منها ميسورة.

الحواشي

١ – للتفصيل انظر : الطرابلسي، أمجد . نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب . ـ ط ٣ (حلب : المكتبة العربية، ١٩٦٦) ص ١٢٢ – ١٢٣.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢ – انظر : صروف، يعقوب . مقدمة لباب الآداب.

٣ – العقد الفريد (القاهرة : المطبعة الأزهرية، ١٩٢٨) ١:٣.

٤– انظر مقدمة : شاكر، أحمد محمد . لباب الآداب، ص ٦.

٥ – كيلاني، قمر، أسامة بن منقذ (دمشق : مكتبة النوري، ١٩٨٢) ص ١١٦.

٦ – انظر : زكي، أحمد كمال . وأسامة بن منقذ . أعلام العرب ٧٩ (القاهرة : دار الكاتب العربي، ١٩٦٨) ص ١٦٩.

٧ – موسى باشا، عمر . الأدب في بلاد الشام (دمشق : المكتبة العباسية، ١٩٧٢) ص ٢٤٠.

٨ – نقلاً عن مقدمة أحمد محمد شاكر للباب الآداب.

٩ – شكّك فيليب حتّي في أثناء ترجمته لأسامة في مقدمة تحقيقه كتاب «الاعتبار» في أن يحفظ أسامة هذا القدر من الشعر الجاهلي، منطلقاً من أن جيل أسامة لم يصله هذا المقدار من الشعر الجاهلي.

١٠ – انظر : لباب الآداب، ص ٣٦٦، ٣٦٨، ٣٧١، ٣٧٣، ٣٨٧، ٤١٢، ٤١٣ مثلاً.

١١ – من نحو : سيّد القوم خادمهم، المرء كثير بأخيه، استعينوا على الحاجات بالكتمان فكل ذي نعمة محسود.

١٢ – من نحو : المرء مخبوء تحت لسانه، الشديد من غلب نفسه، لا تجني على المرء إلا يده.

١٣ – انظر لباب الآداب، ص ١٩٩ مثلاً.

١٤ – كما هي حال أبيات «امرىء القيس». انظر لباب الآداب، ص ٣٦٨، ٣٦٩.

١٥ – لباب الآداب، ص ٦٧.

١٦ – أبو الحسن الصّغاني غير الرضي الصّاغاني الحسن بن محمد (– ٦٥٠ هـ).

١٧ – من ذلك البيتان المذكوران في ص ١٧ لأبي العتاهية، والأبيات الأربعة المذكورة في ص ٢٦ لأبي الأسود الدؤلي، والأبيات الثلاثة المذكورة في ص ٢٧ لصالح بن عبد القدوس، والبيتان المذكوران في ص ٤٠ للأفوه الأودي، والأبيات الثلاثة المذكورة في ص ٤٨ لأوس بن حبناء.

قراءة في كتاب

«الصرف الواضح»

يوشك التأليف في الصرف بمصطلحه القديم أن يكون نادراً في أيام الناس هذه، بل من وقت طويل. ومرجع ذلك إلى عدة أمور، منها ما لم يزل يذكره العلماء كلما عرضوا للصرف والبحث فيه، وهو صعوبته والحاجة إلى التمكن في أصوله والاضطلاع بالمذاهب فيه تغيّر ثقافة الناس وتطورها، اضطراب الحاجة إليه في مرافق حياتهم، إغفال مناهج التعليم له في أكثر المراحل، ضعف المعلمين فيه، عدم موافقة الكتب المؤلفة فيه للمتعلمين وغموضها عليهم، اشتغال المؤلفين في هذا العلم بمفردات مناهجه المأخوذ بها في اللغات الأخرى وأخذهم بمصطلحاتها، حتى كأنهم استغنوا عن هذا الصرف، فغدا مُهملاً.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عرض وتقديم
الدكتور محيي الدين عبد الحميد
إربد - الأردن

لذا فإن قيام الدكتور عبد الجبار علوان النايلة الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة الموصل بالتأليف فيه على النحو الآتي وصفه يُعدّ عملاً شجاعاً، فضلاً على أن عمله بتكليف من جهة أكاديمية – هي جامعة الموصل – جعل مهمة الزميل ثقيلة: لأن عليه أن يتقيد بكثير من الشروط التي ينبغي أن تتوافر في ما يقدّمه: استيفاء المفردات في الصرف التقليدي، شواهد وتداريب تشتمل على خصائص الصرف، العلل والتعليلات ومذاهب العلماء، المسائل الخلافية فيه، الوضوح والافهام في العرض والاحكام،

والمصطلح والتعاريف.

وحسب الزميل الكريم أمر استيفاء المفردات حتى يجد الصعوبة والإشكال. ولأمر مثل هذا جعل المازني وابن الحاجب وأمثالهما تناولهم للصرف موجزاً. ولمثل هذا أيضاً جعل العلماء مفردات الصرف نظماً. ولمثل هذا اقتصر تناول العلماء على بعض مفرداته. فكتب الكسائي في المصادر والهاءات والحروف كلاً على حدة. وكتب أبو محمد اليزيدي في المقصور والممدود. وكتب أبو علي قُطْرب في وزني فعيل وأفعل. وكتب أبو زيد الأنصاري في التثنية وتحقيق الهمز. وكتب أبو عبيدة معمر بن المثنى في اللغات والجمع والتثنية [i].

وبقيت هذه الظاهرة حتى زماننا هذا يقتصر العلماء على تناول بعض موضوعات الصرف ويجعلونها في كتب النحو... وقلّة قليلة منهم الذين استوفوا البحث في الصرف ومفرداته. وأحسب أن الدكتور عبد الجبار لو خُيِّر في ذلك لاقتصر على طائفة من المفردات واكتفى بها. ولعل الأمر أريحية القيام بالواجب وطموح الباحث المجدّ.

يتبين هذا الذي ذكرته في ما نصَّ عليه الدكتور عبد الجبار من ذكر غايته وأهدافه في مقدمته، قال: «إغناء الكتاب بالمادة العلمية... وتبسيط المادة العلمية... بعيد عن التكرار، وتذليل صعوباته بالأمثلة والشواهد... وترتيب الكتاب وفصوله وأبوابه بحيث تتفق ومفردات المنهج المعمول به... ولا تخلّ بتسلسلها العلمي. وحاولت التغلب عليها بقدر ما سمح لي به نظام تأليف الكتب المنهجية» (ب، ٧).

والحق أن الزميل حاول جهده أن يفعل ما ذكره من أهدافه، وأن يقوم بما أملي عليه من خصائص المنهج المرسوم. ففي كل مفردة كان همه أن يحيط بها ويقدّم مادتها، ويشفعها بالشواهد والأمثلة. غير أن أغلب ما قدّمه إنما كان من مادة كتب قديمة. وكثير منه كان بنصّ أصحابه، وإذا ساقه بمعناه غلب على نصه التقيد بأسلوب أصحابه. وهذا ما أوقع الزميل في: غموض العرض، وإشكال التقرير، والغموض؛ نحو كلامه على حروف الزيادة (ب، ٢٧): «كما وأنها وهي زائدة قد تكون كما في قولنا: أوى وجميع حروفها من الزيادة، ولكنها كما ترى كل حرف يعدّ أصلاً في الكلمة. فلو حذفت أي حرف من الكلمة لما بقي للكلمة معنى، ولكن المقصود بمعنى زائدة أنه إذا زيد حرف على الكلمة لا يكون ذلك المزيد إلا من هذه الحروف»، ومثل قوله (ب، ٢٨): «ونى، فإن كل حرف في الكلمة يعدَ أصلياً مع أنه من حروف الزيادة، لأنه إذا حذفت أياً من الحروف لا يبقى معنى للكلمة بدونه».

إن عرض مادة البحث وتتبع عنواناته وإيراد بعض أقوال الباحث شرحاً وتعليقاً يجعل الأمر سهلاً قريب الغاية، وهو كما يلي:

بعد مقدمة الكتاب المتضمنة شيئاً من المنهج وأغراضه والتنويه بفضل من قدَّم للمؤلف مساعدة مفردات منهج الصرف القديم (ب، ١١) تبعها صفحة بعنوانها، فيه تنويه بصفة المنهج وصلة الصرف بالنحو (ب، ١٣) وزمن برنامجه الأسبوعي ثم عنوان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تمهيد (ب، ١٥) أتى فيه على لمحة تاريخية في نشأة الصرف وأعلامه وجهودهم لمن يعدون فيه وما لهم من مؤلفات.

وفي (ب، ١٩ – ٢١) درس «الصرف والتصريف» في اللغة والاصطلاح، «فأثبت تعريفاً هو: فالصرف والتصريف بالمعنى العلمي: عَلَمان على عِلْم يُعرف به أحوال أبنية الكلم التي ليست بإعراب ولا بناء. وأما بالمعنى العلمي فهو تحويل الأصل الواحد إلى أمثلة مختلفة لمعانٍ مقصودة لا تحصل إلاّ بها» وذكر استعمال العلماء لكلمتي (التصريف والصرف) والفرق بينهما.

وتلا ذلك ثلاثة عنوانات، هي موضوع علم الصرف، العلاقة بين الصرف والنحو، فوائد الصرف (ب، ٢١ – ٢٥) ضمن هذه الصفحات نقول في ما تفيده العنوانات المذكورة. وفي (ص ٢٥) حشد ستة مصطلحات وضّحها، جعل لها عنواناً، هو «مصطلحات وردت في هذا الكتاب». ولا شكّ أن هذا العنوان يمثل عند الزميل حسّاً سليماً بدراسة الصرف ومفرداته. وهو ما يستوجب العرض لأي موضوع لا بدّ للباحث من أن يمهّد بأصوله ومصطلحاته كي يستطيع القارىء متابعته وفهمه.

وبحث بعد ذلك موضوع حروف الزيادة (٢٦ – ٢٨) وموضوع «علامة الزيادة الحرف في الكلمة» (ب، ٢٨ – ٣١) ومما قال في ذلك نحو: «وربما اختص الحرف بموضع لا يوجد زائداً إلا فيه كسين الاستفعال وما يشتق منه». ونحو: «فالحرف الزائد يعدّ جزءاً من الكلمة، ويخضع في بعض التصاريف لقياس خاص ونظام معين». ومن ثم دخلت مباحث علم الصرف. ولولا قياساتها لتركت للذوق اللغوي أو السماع ليمكن تعرفها في كتب اللغة. ونحو: «وينبغي أن تعلم أنه لا يعدل عن المجرد إلى المزيد ما دام يؤدي المعنى المقصود». ونحو: «وكل ما زيد لغرض نحوي لا يعد زيادة».

ثم بحث في «علامة زيادة الحرف في الكلمة»، يقول: «إن الحرف الأصلي هو الحرف الذي يلزم الكلمة في تصاريفها»! وذكر الطرق التي تعرف بها الزيادة، ثم قال: «وهناك ضوابط أخرى لمعرفة زيادة أي حرف من حروف الزيادة العشرة في الكلمة». ولم يذكر شيئاً من ذلك.

ثم تناول الكلام على الميزان الصرفي وفي تقديمه على حروف الزيادة قبل البحث في الميزان سلامة منهج وبحث، ولكنه لم يأت على ذكر المثالين اللذين يقع بهما الوزن، وشغل بذكر فوائد الميزان الصرفي. وعند ذكره للمثال قال: «الميزان الصرفي ميزان قديم ابتكرته عبقرية أحد علماء العربية لمعرفة بنية الكلمة» وأتبع ذلك جداول تشتمل على أصناف من الأفعال والأسماء مقرونة بأوزانها، وشرح لما يلحق الكلمة من تغيير في بنيتها وأصناف الأفعال. يقول: «الأجوف هو الفعل الذي يكون وسطه حرف علة». وبعد كلامه على لفيف مقرون يقول: «واعلم أن الماضي مشتق من المصدر والمضارع، وبقية التصاريف مشتقة من المضارع، والمضارع ما زاد على ماضيه بإحدى حروف (أنيت) في أوله».

ويبحث بعد ذلك في موضوع تصريف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأفعال وإسنادها إلى الضمائر، فأنفدَ في ذلك نحو أربعين صفحة (ب ٥٠ – ٩٠) حشد فيها جداول وقوائم بأصناف الأفعال. أتبعه الكلام على «المجرد والمزيد» (ب، ٩١ – ٩٧)، فأتى على أوزان الأبواب الستة مشفوعاً بالأمثلة والملاحظات، منها قوله: «ومع أن معرفة وزن كل فعل وردّه إلى بابه تكون بدراسة اللغة وكثرة الاطلاع على كتبها والسماع الصحيح من أساتذتها المتخصصين أو بالكشف عنه في كتب اللغة ومعاجمها..». ثم يذكر بعد ذلك أنه سوف يقدّم ضوابط تساعد على معرفة أبواب الأفعال. ويتبع هذا ما يتصل بالأفعال المزيدة ومعانيها، ويمضي في تناول: الفعل الثلاثي المزيد فيه حرف (ب، ٩٨)، يذكر كل وزن وما له من معان موضحاً بأمثلة، كما هو في الكتب التي رجع إليها. ثم الفعل الثلاثي والفعل الرباعي المجرد (ب، ١١١) فمزيده، الملحق بالرباعي.

ويعرض لموضوع الاشتقاق (ب، ١١٥) وأنواعه وأصله في أربع صفحات ثم يشرع في دراسة المصدر وأصنافه (ب، ١١٩)، فيستوفيها في نحو ثلاثين صفحة.

ويأخذ في موضوع جديد هو: أقسام المشتقات (ب، ١٤٧)، ويدرسها صياغة وأحكاماً مفصلاً الكلام عليها من حيث أصناف مصادرها وأصولها، ويفصل كثيراً من الصيغ التي دخلها تغيير في أصولها، ويمضي في ذلك نحو ستين صفحة.

ثم يدرس أبنية الأسماء وتصاريفها (ب، ٢١٠)، ويثبت عنوانات: الاسم المجرد، الاسم المزيد فيه أبنية الأسماء الثلاثية. وكذلك بقية أصناف الأسماء. ويأخذ في دراسة أصناف الاسم من حيث أصوله: الصحيح والمنقوص والمقصور والممدود (ب، ٢١٩ – ٢٣٤)، مثبتاً حكم كل صنف وما يلحقه من تغيير وما فيه من مذاهب وأمثلة منه.

ويبحث في: همزة الوصل وموضعها وأمثلتها وأحكامها ثم يشرع في موضوع: التأنيث بتلخيص الخلاف فيه في أمثلة، متبوعاً بعلاماته وأقسام المؤنث واستعمالات التاء (ب، ٢٣٩ – ٢٤٦).

ويبدأ في جمع التكسير ويمهد له، ويذكر صلته بالقياس والسماع وأصناف هذا الجمع وصيغها. ويثبت عنواناً هو: كيفية حذف الحرف الزائد (ب، ٢٦٤) ويوضح عدة أمور تتصل بهذا الجمع.

ثم يتناول موضوع التصغير، ذاكراً العنوانات التالية: «التصغير لغة، أغراض التصغير وفوائده، ما لا يصغر من الكلم، أوزان التصغير وصيغه، بين الميزان التصغيري والميزان الصرفي، كيفية تصغير الاسم..» (ب، ٢٧٠ – ٢٩٠).

ويبدأ بموضوع آخر هو: «النسب» مثبتاً العنوانات التالية: النسب، المنسوب إلى الاسم المختوم بالتاء، النسب إلى ما فيه ياء مشددة، النسب إلى محذوف اللام، ومحذوف الفاء من الأفعال..» (ب، ٢٩١ – ٣١٠).

ثم يبحث في: مخارج الحروف وصفاتها، موضحاً ذلك بتصنيف الحروف ومخارجها ثم صفاتها.

ويشرع في موضوع آخر هو: الإبدال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والإعلال (ب، ٣١٧) مثبتاً العنوانات الآتية: الإعلال الإبدال، إعلال الهمزة، قلب الهمزة وجوباً، حذف الهمزة، إبدال الهمزة، قلب الواو أو الياء همزة... فيتم ذلك في نحو ثلاثين صفحة.

ويدرس بحث الإمالة مصطلحاً وغرضاً ولهجة وأسباباً، والقياس فيها والمانع منها (ب، ٣٤٨ – ٣٥٣). ويتبع ذلك دراسة الإدغام ظاهرة وسبباً ومواضع ومصطلحاً وفائدة، وما لا يدغم من الحروف، وأقساماً، وشروطاً (ب، ٣٥٣ – ٣٦٥).

ثم يدرس بحث الوقف والحركات التي يجري الوقف بها، وأصناف الكلمات الموقوف عليها، وأنواع الوقف، النقل، الرَوم، الإشمام، الحذف، هاء السكت (ب، ٣٦٦ – ٣٧٤).

وينتهي إلى عنوان: تطبيقات صرفية، يورد أسئلة عن كل بحث تناوله ودرسه (ب، ٣٧٥ – ٤٣٩).

ومحاولتي في ذكر عنوانات الأبحاث ومفرداتها وإيرادها وعدة صفحات كل منها لأجل أن تكون بين يدي القارىء لا يحقق هذا الجهد إلا فائدة قليلة مضطربة، ومخارج الحروف وصفاتها ومدى فائدة ذكره في مطالع البحث، وهو ما أشار إليه الباحث الكريم بقوله: «جرت عادة أئمة النحو والصرف على أنهم يذكرون مخارج الحروف وصفاتها عند ذكرهم إدغام الحرفين المتقاربين في المخرج أو الصفة أو المجموعة وذلك في باب الإدغام غير أني وجدت أنسب موضع لذكر مخارج الحروف وصفاتها هو قبل الإعلال والإبدال». وفاته فعل ذلك في عدة مواضع، نحو بحثه في تصريف الأفعال وإسنادها قبل بحثه في «المجرد والمزيد»، لأن في هذا تقديماً لازماً، فلا سبيل إلى فهم صياغة الأفعال وإسنادها دون معرفة التجريد والزيادة في الكلام. ومثل ذلك تأخير بحث «الاشتقاق» بعد دراسة عدة موضوعات ينبغي أن تتلو الاشتقاق وتتبعه، كما أن دراسته للاشتقاق على أهميته كانت مختصرة جداً، فضاعت الفائدة المنتظرة منه.

ويعد بحثه في المصادر ومحاولته الإحاطة بموضوعها – وأحسب أن القارىء، ولا سيّما الطالب لا يمكنه أن ينتهي إلى تصور واضح لها – جعل يدرس المشتقات أقساماً وأصنافاً، ومحاولته في دَرْسها مثل محاولته في درس المصادر.

ثم يأخذ في دراسة الاسم مزيداً وأبنية ثم أصنافاً، وما في ذلك من أحكام ومذاهب.

ويفرد ألف الوصل ببحث وحدها، وحقها أن تدرس في موضوع الوقف والابتداء، لأنها حركة يوجبها البدءُ بالكلام وفي أثنائه وهي من شأن أصناف الكلم.

وأحسب أن تأخيره بحثي التصغير والنسب وهما قريبان من بحث المشتقات مداخلة تذهب بالنفع.

والأبحاث التي جعلها بآخر الكتاب إنما حقَ أكثرها أن تجعل في أوله ولا سيَما الإبدال والإعلال ومخارج الحروف وصفاتها، فهي من الأصول التي يُبنى عليها البحث في الصرف (ج، ٢). ولعل هذا ما دعا أهل الصرف من القدماء إلى إخراج عدة موضوعات مثل

المشتقات والتصغير والنسب والمذكر والمؤنث من بحث الصرف، لبعدها عن تلك الأصول التي تحكم الكلمة صيغة وهيئة. ومردّ هذه الظاهرة في بحث الزميل الكريم مداخلة الموضوعات وضياع الفائدة واضطراب النتائج قيامه بأغلب موضوعات الصرف التي اقتصر كثير من الأئمة على بعضها. هذا جانب، وهنالك جانب آخر هو وقوع الدكتور عبد الجبار في أسر المادة التي جمعها وانتفع بها، دون أن يجري الاختيار عليها اتقاء سلطانها، وما تحمله من اختلاف مذاهب لم يتقدمها ذكر الأصول.

وفي تركه للأصول التي يبنى عليها البحث، وتقوم بها أركانه وتتماسك جوانبه، جعل بحثه جمعاً بين أشتات غير مؤتلفة، وغلبت عليه سمة التلخيص والاختصار لمادة لا تقبل ذلك وتَفلِت منه.

وإذا كان في دعوة الزميل ما جعلني أكتب هذا التعليق على بحثه فإن في أمور أخرى بعض ما حضني على ذلك وأغراني به. وأنا مع الدكتور عبد الجبار في أن الكمال لله تعالى وحده، فهذا مما يضبط سلوكنا، ومعه في قوله (ب، ٢): «لكل كلام وجه وتأويل»، ما كان في كلامه ما يساعد على ذلك. فإن تجاوزه إلى الخطأ والتحريف فليس ثمت وجه للتأويل.

ولا شك أن في محاولته همة عالية، وإخلاصاً ظاهراً سوف يمكنانه من تحقيق غايته في أبحاث أخرى. وفي ما يعلم الزميل من كلام الإمام الكبير أبي الفتح ابن جني يقين بقيمة عمله وطول باعه وعظم جهده، قوله (د، ٤): «إنما أردت بذلك التنبيه على فضل هذا القبيل من علم العربية، وأنه من أشرفه وأنفسه، حتى إن أهله المُسْلِين عليه والمنصرفين إليه، كثيراً ما يخطئون ويخلطون».

وإني لمع المنتظرين لجهد آخر من جهود الزميل الباحث يقدِّمه إلى طلاب العربية والباحثين.

مسرد الحواشي ومراجعها

أ - ابن النديم، محمد بن إسحاق أبو الفرج (- ٤٣٨ هـ)، الفهرست (القاهرة : مطبعة الاستقامة، المكتبة التجارية) ص ١، ٨٤، ١٠٤، ١١٠.

(ب) النايلة، عبد الجبار علوان، الصرف الواضح (الموصل : وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، مطبعة دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل) ٧، ١١، ١٥، ١٩ - ٢١، ٢١ - ٢٥، ٢٦ - ٢٨، ٢٨ - ٣١، ٥٠ - ٩٠، ٩١ - ٩٧، ٩٨، ١١١، ١١٥، ١١٩، ٢١٠، ٢١٩ - ٢٣٤، ٢٣٩ - ٢٤٦، ٢٦٤، ٢٧٠ - ٢٩٠، ٢٩١ - ٣١٠، ٣١٧، ٣٤٨ - ٣٥٣، ٣٥٣ - ٣٦٥، ٣٧٥ - ٣٤٩.

(ج) الجار بردي، ابن جماعة، مجموعة الشافية من علمي الصرف والخط، (بيروت : عالم الكتب) ١:١١.

(د) ابن جني، عثمان أبو الفتح (٣٢٢ - ٣٩١ هـ)، المنصف شرح كتاب التصريف للمازني، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبدالله أمين (القاهرة : إدارة إحياء التراث القديم، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٤ م) ص ١، ٤.

■ جعلت الإحالة إلى المصدر أو المرجع برمز له متبوعة برقم الصفحة فيه.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

توثيق مضامين الدوريات الفكاهية

الدكتور محمد أمين فرشوخ
المعهد العالي للدراسات الإسلامية ـ بيروت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تشكل الدوريات الفكاهية التي صدرت في الوطن العربي كنزاً تراثياً مهماً لم يتنبّه له خازنو المكتبات العامة ومن ثَمّ الموثقون للتراث والباحثون المهتمون.

إنّ دراسة نصوص الدوريات الفكاهية وتطورها، ودراسة الرسوم الساخرة (الكاريكاتور) وأساليب الانتقاد والسخرية، مَعين ثَر يمكنه أنْ يرفد الإشارات الفكرية الحضارية التي تستقرئها النصوصَ الجادة الأخرى.

وقد تضمنت المقالة إطلالة على سياسة هذه الدوريات وأسمائها وموضوعاتها مستشهدة بما توافر منها في مكتبات خاصة وعامة في لبنان.

هزلية، انتقادية، فكاهية، ساخرة..

لماذا حملت الدوريات القديمة هذه الصفات؟

«يقول الصحفي: إني أكتب ليقرأني أهل زماني، ويقول الأديب: وأنا أكتب لتُعاد قراءتي في كل زمان». هكذا كتب توفيق الحكيم في «فن الأدب» ص ١٧٥، ولكنني أتساءل: كم من أديب تربى أدبه على صفحات الصحف، وكم من صحيفة حملت من الأفكار والوثائق والصور والنصوص ما تعجز الكتب عن احتوائه؟ إنها مهمتنا، نتتبع الآثار،

ندرس، نفهم، نراكم المعرفة ونصل الأجيال.

يبدو أن خازني المكتبات العربية لم يلتفتوا جادين إلى الصحف والمجلات التي وُصفت بالهزلية أو الانتقادية أو الفكاهية أو الساخرة... اعتقاداً منهم أنها لا تحمل الثقل الثقافي أو الاجتماعي مثل الدوريات الأخرى الجادة في تناول المشكلات والحلول، وقد يكون لافتقار مكتباتنا العامة إلى أولى المجلات هذه أسباب أخرى، إلاّ أن هذا لا يحمل العذر لهذه المكتبات - اليوم - إذا لم تبادر إلى التفتيش عن هذه المجلات في المكتبات الخاصة ولدى أفراد ورثوها أو اقتنوها مصادفة دون أن يدروا أهميتها.

ثم من قال : إن تناول الحياة بأسلوب فكه لا يعبّر عنها بجدّ «إذ ليس من الضروري أن نكون في حالة مرح نضحك»[1]، فالأدب في كل أمة هو ابن المجتمع، عنه يصدر، وإليه يعود، تجبل نفس الأديب بآلام مجتمعه وتطرب لأفراحه، ويعبّر عنها كما يحس، «إن أدباً يفارق هذه السنّة هو أدب بعيد عن أن يمثل حياة أبنائه»[2]. ثم إن النص الفكه، مقالة كان أم قصة أم نكتة كافياً ليطلعنا على خواطر الناس، «يوصل البلاغة بالحياة الفعلية حين تعجز خطوط الكلام الجادّ المعتاد»[3]، من هنا تجرأ علماء الاجتماع الأدبي فقالوا بأن النصوص الفكهة هي أفضل تعبير حرّ، وهي مقياس صحيح لدراسة جادة لمجتمعها وليس هناك ما يشين في إعلانها ولا ما يمنع من التأمل فيها.

سياسة الدوريات الفكاهية

ظهر أكثر الدوريات الفكاهية بين الثلث الأخير من القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين، وقف عليها صحافيون قديرون، ظراف ذوو حسّ انتقادي، عدّوا الفكاهة درباً صالحة للتعبير الاجتماعي والسياسي مثل غيرها من الدروب التي توزعها رجال الفكر في تلك الفترات.

الصحافة والحرية

وللدوريات الفكاهية هذه ارتباط كبير بالحرية، فحين عانت الصحافة من جور القوانين العثمانية[4] كانت الرقابة القاسية تحذف أحياناً خمس المادة المكتوبة، فكانت تمنع مثلاً نشر الشعر في كل ضروبه[5] واضطرت «الفكاهة» مع قلم الرقابة الأحمر أن تتقنّع كثيراً، فهي مع قدرتها على الاستيطان واستخدام الأساليب الرمزية والمداورة، لم تستطع العمل في ظلّ التعسّف والتسلّط.

وحين جاء الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ سمح بحريّة الرأي ضمن حدود معقولة، فراجت الصحف عامة، وانتشرت «الفكاهة»، فأضيفت إلى عناوين أكثر الصحف وقتذاك كلمات: هزلية، ساخرة، كاريكاتورية، انتقادية... تميُزاً بها، أو إضافة إلى مواصفاتها، مما أكدّ الرغبة في استحسان الفكاهة وقراءتها لدى العموم، وعدم تحرّج

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أرباب القلم وأصحاب المطبوعات من اعتمادها في كتاباتهم أسلوباً في التعبير.

وقد كانت الصحافة الفكاهية رائجة في مصر قبل أن تسير الصحافة السورية على هديها؛ يقول **فخري البارودي** مؤسس صحيفة «**حط بالخرج**» السورية الدمشقية التي أصدرها في نيسان عام ١٩٠٩: «كنت أحررها باللهجة العامية وكان لها ضجة في مختلف الأوساط، ولما كنت أجهل أصول الصحف الفكاهية فقد استحضرت من القاهرة ما توصلت إليه من الجرائد الفكاهية الصادرة هناك كجريدة **أبو نظارة**[٦] وجريدة **المسمار**[٧] وغيرها، وجعلت أسير على نهجها، مما لم يكن معروفاً في دمشق، ولما راجت الجريدة، ومال الناس إلى هذا الموضوع من الكتابة أخذ بعض الشباب يصدرون جرائد فكاهية[٨].

وللتدليل على أهمية الكتابة الصحافية نشير إلى حالة جريدة **توفيق جانا** التي أصدرها بدمشق في ١٧ أيلول ١٩١٠ باسم «**حمارة بلدنا**» والتي جعلها تنطق بالحكمة السياسية وتستنبط الأفكار الاستعمارية من أعمال موظفي الحكومة الإداريين فيها، إلاّ أن الحكومة والوالي لم يرق لهما هذا النقد اللاذع الذي يسري على أفواه المواطنين فأصدر الوالي أمراً بإغلاقها وإيقاف صاحبها، فما كان من توفيق جانا إلاّ أن أوعز إلى أخيه نجيب بإصدار صحيفة جديدة تحمل الاسم نفسه وهي «**الحمارة**» التي ظهر العدد الأول منها في ٤ تشرين الثاني، ١٩١٠، بعد بضعة أيام من إغلاق الصحيفة الأولى.

وقد سارت الثانية على سياسة الصحيفة الأولى مدة طويلة. وكان تولي الحزب الاتحادي الحكم عام ١٩١٣ ومقاومة مؤتمر باريس والأفكار التمردية التي نتجت قد جعلت الوالي يصدر أمرا تعسفيا بإغلاقها، إلا أن صاحبها عاد وأصدر الصحيفة مرة أخرى. لكن باسم «**البغلة**» في ٤ تموز ١٩١٣، فغضب الوالي وأغلقها ولما يمض على إصدارها أسبوعان، إلا أن هذا لم يفت في عضد صاحبها فقد أصدر صحيفة أخرى باسم «**حمارة الجبل**» في ١٨ آب ١٩١٣، قامت بحملة شديدة لهدم النظام الفاسد وإعادة الإصلاح وإصدار اللائحة الإصلاحية لبيروت، فأغلقها الوالي وأمر ألا تصدر بأسماء مشابهة لأسماء الصحف الأولى، فاضطر صاحبها حينئذ إلى إصدار صحيفة «جراب الكردي»[٩] في ٢٠ نيسان ١٩١٤ ومع ذلك لم يستطع مقاومة طغيان الوالي وأعضاء حكومته، فأغلقت، وسجن صاحبها[١٠]. ولم تنفرج أزمة الصحف الفكاهية في هذه الفترة حتى انقضى عهد العثمانيين بانتهاء الحرب العالمية الأولى لتبدأ مرحلة جديدة من أجل الحرية والاستقلال مع الانتداب حتى سنة ١٩٤٣[١١].

أما في لبنان فكانت جريدة «**هبت**» هي الفكاهية الأولى بالظهور، إذ صدر العدد الأول ببيروت في ١٥ آب ١٩٠٨ لصاحبها خليل كاملة. وقد كتب تحت اسمها: «جريدة أدبية هزلية انتقادية فكاهية مصورة حرّة تصدر مرة في الأسبوع». وتابع شعرا:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وزوز لـهـا كـيـمـا تـهـبّ فـإنّما
أضـحت صـروح الأغـنـيـاء رمـوسـا

فـعسـى يـتـوب إلى الـهـداية مـن غـدا
يـومـاً بـحـرّ سـمـومـهـا مـلـحـوسـا

ونقرأ في افتتاحية العدد الأول من مجلة «المضحك المبكي» السورية التي أصدرها اللبناني حبيب كحالة عام ١٩٢٦، دون تحديد تاريخ الإصدار:

«وبعد... فهذا شكل جديد من الصحف قد سبقتنا إليه أكثر البلاد العربية، فهو سهل مفيد، ترتاح إليه النفس، وتلذ به المطالعة، فقد سئم القراء الجديات فضلاً عن أن الطبيعة البشرية تميل إلى الهزليات والمضحكات، وقد شعر المجددون أنه كما يحتاج الطعام إلى تفلفل وتعصفر ومقبلات لتقوى الشهوة إليه ويسهل هضمه لا سيما عند أصحاب المعد الضعيفة هكذا الصحف ولا سيما السياسية فإنها تحتاج إلى تفلفل وتعصفر يجعل قراءتها لذيذة فيلتهمها القارىء بشهية قوية جداً وجد قوية (على لغة طه حسين) ولا سيما إذا كان من ذوي المعد الضعيفة أيضاً هذا فضلاً على أن قراءة الهزل يزيل الهم ويشرح الصدر، كما ويسهل الهضم ويساعد على تقوية الصحة كما يقول إخواننا (الدكاترة) المحترمون.

فبناءً عليه رأينا أن نسد هذا الفراغ في الصحافة السورية فأصدرنا هذه الجريدة بهذا الشكل، ونحن نتوقع أن نجد بين القراء تنشيطاً يساعدنا على أن نسير بها إلى الأمام وليس إلى الوراء ونرتقي، إلى أعلى وليس إلى أسفل لنقدر أن نصل في تنظيمها إلى مستوى الصحف الراقية لا سيّما وأن الصحف مرآة صافية، تعكس عليها درجة مستوى الأمم واستعدادها الطبيعي. ولكي نتمكن أن نقوم بهذه المهمة أحسن قيام قد اتفقنا مع خيرة الرسامين المشهورين في المدينة، كما أننا اتفقنا أيضاً مع أشهر الكتّاب الهزليين ليكتب كل بما يختص به. وهكذا فقد أصبحنا نأمل أن نقدّم للقرّاء جريدة هي جدّ في هزل وهزل في جدّ ومجموعة من (المقبلات) الطيبات التي ترتاح إليها النفس وتلذ بها المطالعة، فتضحك وتسرّ وتفيد وتجعل القارىء (يذكرنا بالخير) كلما تصفحها.

أما خطتنا فإننا نعاهد القرّاء على أن تكون صريحة صادقة ولو أغضبت البعض، ولا نجعل موقفنا موقف الأحنف الذي كان يسمع مدح الشعراء بيزيد ابن معاوية وهو ساكت، فلما سأله معاوية مالك ساكت يا أبا بحر قال: إنني أخاف الله تعالى إذا كذبت وأخافكم إذا صدقت!!!

فنحن سنسعى إلى أن نخاف الله في صراحتنا وأما عبيد الله فإذا غضبوا ونحن نقول الحقيقة فليشربوا البحر!!! لنستنتج «جديّة» الكتابة في الصحف الفكاهية، فمواضيعها اجتماعية سياسية اقتصادية تظهر العيوب، وتفضح الأسرار، وتقتصّ من الأوغاد والأشرار بالنكتة الجارحة أو بالتلميح البعيد... بالقصة والقصيدة، بالعنوان والرسم والصورة المختارة... هادفة إلى البناء لا إلى الهدم.

أسماء الدوريات الفكاهية

أما أسماء هذه الدوريات فقد تنوعت لكنها ظلّت دائماً في دائرة الفكاهة، تخلط الدعوة إلى التفكير بالدعوة إلى الضحك المباشر، والتفكير هنا هو في صورة التخيّل، تثيره أسماء مختارة يمكن أن تتحمّل أكثر من وجه المعاني لتتوّج الدوريات وظيفة الإضحاك والانتقاد معاً، فكان منها في لبنان أسماء للحيوانات: البغلة، الحمارة، السعدان، حمارة الجبل... هذه الأسماء لم تختر عشوائياً، فمع أنها تفيد الإشارة إلى حيوانات عرفت بصبرها ويتحملها ظلم الإنسان فهي من جهة أخرى تحاول استغلال هذه المسكنة لتغطي الانتقاد واللذع والتهكم، توجهه نحو الظالمين والمفسدين من الشعب وأولي الأمر فيه. تظهر الضحك وتُبطن الانتقاد، وهي ضرورية لتمثل ابن الشعب، العاجز عن محاربة القوى المتحكمة بمصيره علناً، وليشنّ عليها الحملات بطرقٍ غير مباشرة، فهو «سعدان» يتخلص من المزالق فيكشف ما يوقعه فيه القيّمون عليه، وهو «دبور» يلذع مع صغره الظالم والمحتال، والشعب «بغلة» تثير نقمة القرّاء بما تظهره من ضروب تحملها لظلم الحكم، مما يفضح أصحاب المؤامرة والجريمة ويحثّ الضعيف فيقوى ويثور.

ومن الأسماء صفات للمهرّج المضحك: المناغش، المجنون، النمرود، كراكون، جحا... ما هي إلا أقنعة تخفي «غمزات وقرصات» أصحاب الأقلام الكاتبة فيها، يقنعونها بالنكتة والعبث فيقلّ العتب وتزوغ الملاحقة... وينال المرام.

هناك أيضاً أسماء تجمع في مدلولاتها ما يسع المتنوع والغريب: الخرج، جراب الكردي، الكشكول[١٢]... فيستمتع القراء كلّ حسب ذوقه بما تتضمنّه هذه الدوريات، وهي بعامة من حيث وظيفتها كسابقاتها، وإن اختلفت الأسماء، ونجد لدوريات أخرى، أسماء تدل على أصحابها وصفاتهم: الصياد، الصحافي التائه، أبو الرياح والمسامير، المنتقد، يأجوج ومأجوج... وهي بين مقلّة ومكثرة في الزخم الفكاهي، كسائر الدوريات المهتمة بهذا الأسلوب.

ومن الكتب المفهرسة للدوريات الفكاهية أحصيت أنه صدر في بيروت بين ١٩٠٨ و١٩٢٩ اثنتان وعشرون دورية فكاهية، وقد أحصى الفيكونت دي طرازي الدوريات التالية بين ١٨٠٠ و١٩٢٩:

في سورية ٢٤٤ دورية، في العراق ٢٢٠، في مصر ١٣٩٨، في لبنان ٢٧٢ جريدة و١٥٤ مجلة، وهناك ٣٠٠٠ دورية صدرت باللغة العربية في كل العالم، خلال هذه الفترة. فكم منها فكاهية يا ترى؟ من يمكن أن يعمل على هذا الموضوع إحصاءً وفرزاً، ولكن لنقف قليلاً ونتساءل: هل نعترف حقاً بأن النص الصحافي الفكاهي يعدّ معلماً أدبياً جديراً بالدرس، ومؤشراً ثقافياً جديراً بالنقد؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحواشي

١ - Max Eastiman, Enjoyment of Laughter, N.Y.36, p. 3.

٢ - إسكاف، أسعد، مارون عبود الناقد (بيروت : دار الثقافة، ١٩٦٦) ص ٩٧.

٣ - سيد الأهل، عبد العزيز، النكتة المصرية (بيروت : دار العلم للملايين، د.ت) ص ٨٢.

٤ - صدرت عدة قوانين لتنظيم الصحافة في الخلافة العثمانية: في سنة ١٨٥٧ أصدر السلطان عبد الحميد قانوناً، ثم صدر آخر سنة ١٨٦٥ (مع تأسيس مكتب الرقابة)، ثم صدر قانون ١٨٨٨ للرقابة أيضاً، ثم صدر قانون ١٨٩٤، وأخيراً صدر القانون المنظم لمهنة الصحافة في سنة ١٩٠٨.

٥ - الرفاعي، شمس الدين، تاريخ الصحافة السورية (القاهرة : دار المعارف بمصر، ١٩٦٩) ص ١٩٧.

٦ - صدرت في القاهرة في ٢١ آذار ١٨٧٧ ليعقوب صنوع باسم «أبو نظارة زرقاء».

٧ - صدرت في القاهرة مجلة المسامير في ١١ آذار ١٩٠٩ ونعتقد أن الاسم ورد خطأ فجريدة المسمار غير موجودة في المراجع المعتمدة.

٨ - البارودي، فخري، ستون عاماً تتكلم (دمشق : مطبعة الترقّي، ١٩٥١) ٢:٨١.

٩ - جراب الكردي في عرف العامة يسع كل الأشياء الغريبة والنادرة. فالكردي إما مهاجر دائم أو عامل فقير مقيم يجمع في جرابه ما يتصدق به الناس عليه، فضرب المثل بجرابه.

١٠ - المرجع السابق، ص ٢٠٨.

١١ - في هذه الفترة مارست الصحافة حرية أكبر نسبياً، معارضة ومؤيدة، واستخدمت الانتقاد الساخر والرسم الكاريكاتوري، ويتوزع هذا بين مختلف الدوريات فلم تعد الفكاهية المختصة منها لتلقى الدعم الكافي، فقلّ عددها إلى العشرة وأكثرها لم يدم طويلاً، وربما هناك أسباب أخرى نجهلها لتوقف معظمها في نهاية العشرينات، لكننا نعرف أن الرسم الكاريكاتوري والأسلوب الصحافي الفكاهي قد تطوّر وتجدّد، وهو ما رأيناه واضحاً في أعداد مجلتي «الدبور» و«الصياد» في فترة ما بعد الاستقلال اللبناني استمراراً حتى اليوم، رغم ضآلة النتاج الفكاهي قياساً مع مثيله في بعض البلاد العربية والأجنبية. وهي متوافرة في المكتبات العامة.

١٢ - الكشكول : كلمة آرامية تعني وعاء المتسوّل الذي يجمع فيه رزقه دوزي ص ٤٧٣، ومحيط المحيط، ص ١٨١٩.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فارس المنابر

د. غازي طليمات
كلية الدراسات الإسلامية والعربية - دبي

الى روح الشاعر عمر ابي ريشة..
في الذكرى الثالثة لرحيله عن الغانية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يا أبا ريشة ، ما للكَلِمِ ... راعشاً بين فمي والقلم ؟
مرّ عامٌ من ذهولٍ وجمتْ ... فيه نفسي واحتواني سَأَمِي
بعد ما غاب الذي ألقى السنا ... من فمِ الفُصحى على كلّ فم
مُذْ هوى نجمُك لم يسطعْ على ... شفتي إلاّ لهيبُ الألم
مرّ عامٌ ، ويراعي مُغْمَدٌ ... في ضلوعي ، مغلق بالسقم
وجفوني الحمْرُ لا تتركُ لي ... غيرَ ذرف الدمع أو نزف الدم
بم أبكيك ؟ بعينيْ ثاكل ... أم بآلاف العيون اليُتَّم ؟
أنا لا أبكيك ، أبكي أمّةً ... ثكلتْ ما ورثتْ من شَمَم

■ ■ ■

باعِثَ النخوةِ ، مُذْ فارقْتَنا ... فارقَتْنا نخوةُ المعتصم
وانحنتْ هاماتُنا مثقلة ... بالهموم السود بعد الهِمم
فمتى ينقضُّ من خلف المدى ... بارقٌ يَفْري أديمَ الديم ؟

ومتى ينجُم من تربتنا … فارسٌ يحيي مَوات الرمم ؟

■ ■ ■

يا أبا ريشة كنّا أمةً … فَغَدَوْنا مِزقاً من أُمم
جاهليّين ارتددْنا ثمّ لمْ … نَرْعَ ما كان لهم من شيم
قد مَضَوْا بَدْواً لهم أنعامُهم … وغدونا أمَّةً من نَعَم
نعجة عاثرة تنهشُها … من حواليْها نيوبُ النّهم
لَسْتَ بالوغدِ ، فَلِمْ خلّفتَنا … نتهاوى في مهاوي الظلم ؟
لَسْتَ غدّاراً ، فلِمْ غادرتنا … وثرانا قِسْمَةُ المقتسم ؟
قصعةٌ مُترعَةٌ يَكْنُفُها … كلّ شِدْقٍ فاغرٍ ملتهم
تشتكي الجوع ومن أقواتها … يشتكي الأعداءُ داء التخم
أيها الراقدُ في الشهباء ، قُمْ … وتلفَّتْ من وراء الرّجم
أنسيتَ النكبةَ الأولى ، وما … قَتَلتْ أو شرّدَتْ من نَسَم ؟
أم نسيت النكْسةَ الأخرى ، وما … سَحَبَتْ من تحتنا من أدم ؟
نَكَباتٌ لم يزلْ سابقُها … ينطوي في اللاحقِ المقتحم
قد خفرنا ذمَّة الأقصى ، ولمْ … يَعْرُنا في خفرها من ندم

■ ■ ■

أترى أعيننا جفّتْ مَدا … معُها ، أم حُفرت في صنم ؟
ليس فينا شاعر أجفانُه … رطبةٌ ، بل كلُّنا صَخْرٌ عمي
أين من يبكي على الأطلال إنْ … رتعتْ فيها رعالُ البهم
بشرٌ أم حجر نحن ؟ وهل … كلُّ أُذْن أُقفلت بالصمم ؟
أيُّ شعب نحن ما بُغيتُنا … من تفانينا ، وقطعِ الرحم ؟

■ ■ ■

فارسَ المنبر ، كمْ من منبر … قُمت فيه شامخاً كالعلم

تنشد البيت فيمسي شُهُباً في سماء المحفل المضطرم
إن ترخّمْه فأذيالُ الصَّبا أو تفخّمْه فقصفُ الحمم
وقوافيك على أسماعنا كفراشاتِ الربيعِ الحُوّم
وقلوبُ الناس تهوي طرباً وشجىً مخمورةً بالنغم

زعموا شعرك رجعيَّ الهوى بدويّاً موغلاً في القدم
فركلْتَ التُّهم الصغرى كما يركلُ العملاق رأس القَزَمِ
وتربَّعت على العرش الذي قصّروا عن ساقه والقدم
ليس من يزحف في السفْح كمنْ حلَّقت همّتُه في القمم
أنت بعد الموت أبقى منهمُ وهمُ في عيشهم كالعدم
وسواء تمتموا أم جمجموا فهمُ من عيّهم في بكم
فارس الأسفار والأوتار كم جُبْتَ آفاق البيان الملهم
زارعاً في كلّ أُفْق قمراً نيّراً من فننا والقيم
تَجْبَهُ الأعداء أنَّى مردوا غيرَ هيّاب ولا منهزم
وترامي عن فلسطينَ إذا فَوّقَ الكيدُ سهام التهم
كنت و (الفيصل)[1] سيفيْن فذا لمعالينا ، وذا للنقم
عشتما والقدسُ في قلبيكما طعنةٌ نجلاءُ لم تلتئم
حُلُمٌ لوّنتماه بالمُنى وصلاةٌ في ظلال الحرم
ثم شاء الله أن تنطفئا قبل أن يسطعَ فجرُ الحُلُم
فانعما في جنة الخلد بما فات في دار البلى من نقم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) هو الملك فيصل ، والبيت يشير إلى جهاد الملك والشاعر يوم كانا صديقين وممثلَين لبلادهما في هيئة الأمم المتحدة.